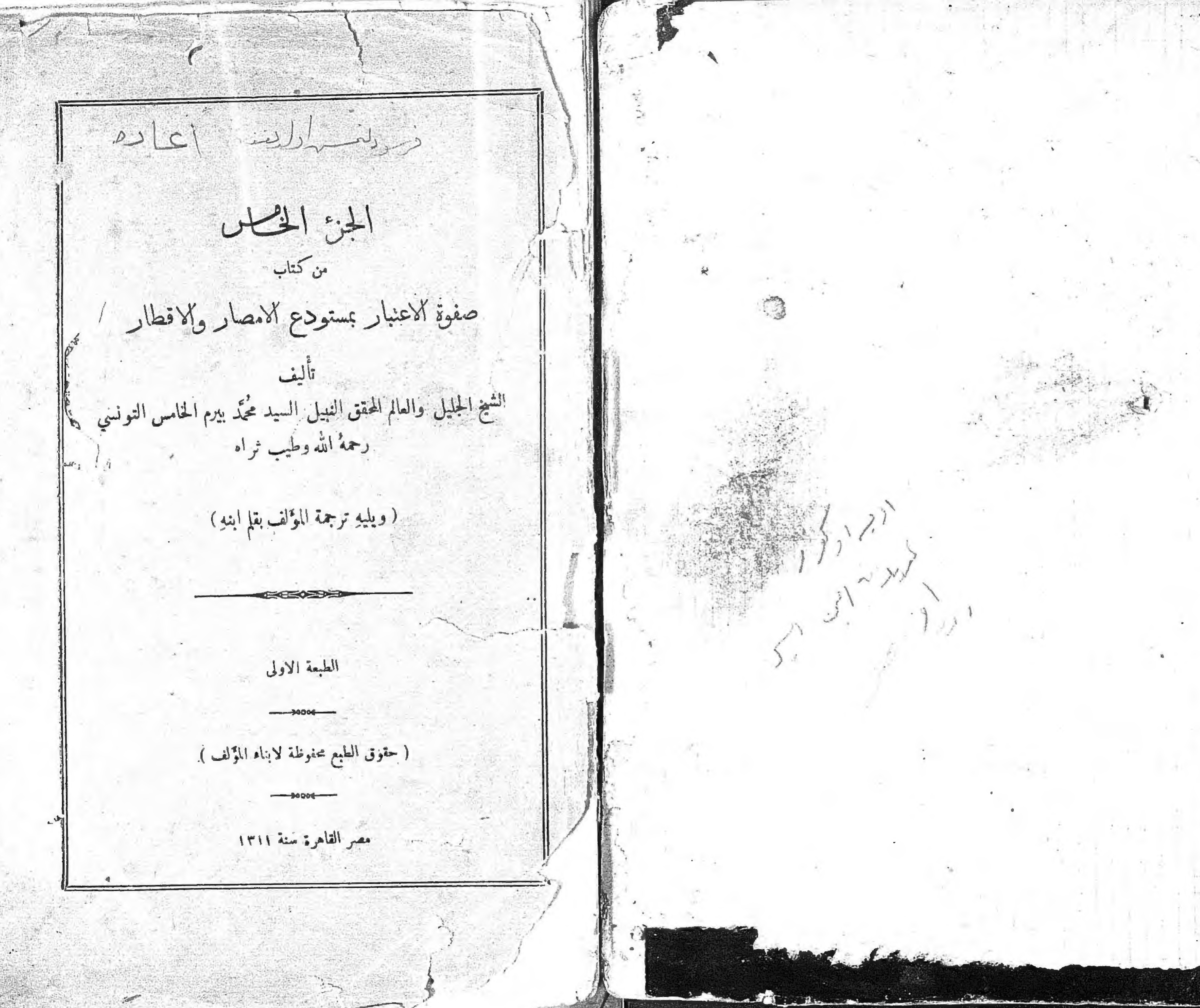


الجزء الخامس

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف

الشيخ الجليل والعالم المحقق النبيل السيد محمد بيرم الخامس التونسي
رحمهُ الله وطيب ثراه

(ويليهِ ترجمة المؤلف بقلم ابنهِ)

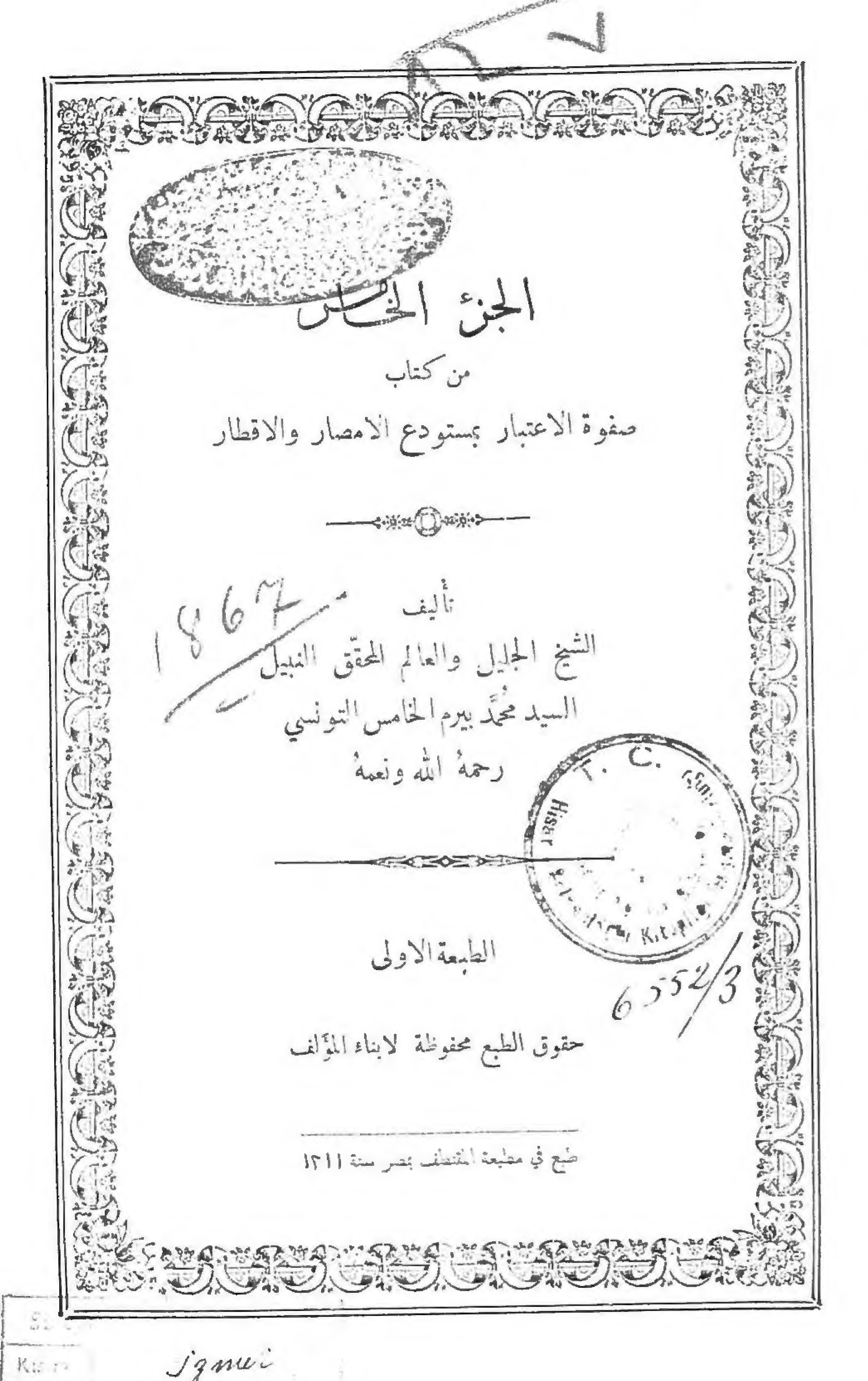
الطبعة الاولى

مصر القاهرة سنة ١٣١١

رسائل لمؤلف هذا الكتاب

(تحت الطبع)

تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص (طبعة ثانية)
احكام تنظيم الممالك شرعاً
التحقيق في مسألة الرقيق
رسالة في واجبات كل من الراعي والرعيّة
جدول في العروض
رسالة في جواز اسدال الشعر
رسالة في جواز شراء اوراق ديون الممالك الاسلاميّة
معروض في مسألة تونس
جواب عن افكار التونسيين بشأن احتلال بلادهم
رسالة في سكنى دار الحرب
رسالة في حقوق السادة الاشراف (طبعة ثانية)
رسالة في تعظيم المولد النبوي الشريف
تجريد السنان للرد على الخطيب رينان
كتابات وتعليقات على جملة احاديث نبويّة كريمة
منشئات المؤلف الادبية والسياسيّة
منظوماته الشعريّة



الجزء الخامس

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف

الشيخ الجليل والعالم المحقق النبيل
السيد محمد بيرم الخامس التونسي
رحمه الله ونعمه

الطبعة الاولى

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اللهمَّ صلِّ على سيّدنا ومولانا محمَّد وآلهِ وسلّمْ تسليماً

فصل في تاريخ الحجاز

مطلب في تاريخهِ القديم

اعلم ان سكان الحجاز هم العرب فتاريخهُ هو تاريخهم نعم قد كان الحجاز معمورًا قبلهم لكن ذلك العمران قد جُهل تاريخهُ بالمرة لتقادم العهد تقادمًا كثيرًا وغاية ما يعلم من حوادث ذلك التاريخ هو بعض جزئيَّات لما تعلق ببعض الاماكن المشرفة هناك مثل بيت الله الحرام فانها بُنيت منذ عهد سيدنا آدم ابي البشر عليهِ الصلاة والسلام وجُدّدت ايضاً قبل سيدنا ابراهيم ولكن الاخبار عن ذلك كادت ان تكون خاليةً عن التحقيق ثم انهُ لما تكوّنت امةُ العرب واستقرت في جزيرتها حدثت فيها حوادث تاريخيَّة مهمة جدًّا غير انها في ذاتها ايضاً منقسمة الى اربعة اقسام باعتبار انقسام العرب في انفسهم لان العرب منذ نشأتهم الى الآن منقسمون الى اربع طبقات فالطبقة الاولى هي العرب البائدة والثانية العرب العاربة والثالثة العرب المستعربة والرابعة العرب المولدين او المخضرمين

فاما الطبقة الاولى فهي التي كانت قبل سيدنا ابراهيم وانما سميت بائدة لابادتها اي انقطاعها وانقطاع اخبارها وان كانت ذريتها لم تزل وهم بقيَّة الطبقات وانقطاع اخبارها انما جاء من شدة طول العهد والامد فلم يعلم من احوالهم الَّا بعض حوادث قصها الله تعالى في القرآن المجيد مثل ما ذكر من احوال رسول الله سيدنا صالح الى قومهِ ثمود وكذلك قصة عاد مع رسولهم سيدنا هود والاشارة الى ما كان لهاتهِ الامة

من القوة والعمران والثروة وشدة البأس الى غير ذلك من احوال انقراضهم والاعتبار بما كان لهم وبقيت بعض آثارهِ في ديارهم واما غير ذلك من تفاصيل تاريخهم فلا يوجد منهُ الَّا قصص يذكرها بعض المفسرين او المؤرخين لا سند لهم فيها الَّا الاعجاب بقصص القصاص ممَّا لاينبغي الاعتماد عليهِ اللهمَّ الَّا ما اذا ورد شيءٌ من ذلك عن الصادق الامين رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ينبغي ان يتلقى بالقبول ولعلهُ لا يوجد من ذلك عدا ما في القرآن المجيد الَّا ما ندر ممَّا روي بصحيح السند وهكذا ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الصدد لانهم اذا صحت الرواية عنهم لايقولون الَّا ما لهُ ثبوت باحدى الوجوه الموصلة وحاشاهم ان يذكروا خرافات القصاص ولذلك كانت الاخبار عن تلك الطبقة من العرب في غاية الابهام وانما المحقق منها هو انهم كانوا امة عظيمة ذات نخوة وشهرة وعمّروا الارض عمرانًا عظيمًا وحادوا عن جادة الصواب في عبادة الخالق * فأرسل اليهم الرسل في ازمان مختلفة يدعونهم الى الرشاد فعاندوا الى ان احاط بهم العقاب وطول الزمن الواقع ما بين اولئك الرسل الدال عليهِ سياق القرآن المجيد والدال عليهِ ايضاً نسيان القوم لما كان اصاب سابقيهم يدل على طول الزمن بين سيدنا نوح وبين سيدنا ابراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام زيادةً على ما يزعم انهُ مذكور في التوراة باضعاف مضاعفة فان تكوُّن الامة وكثرتها بعد الطوفان الى ان تبلغ الى ذلك المقدار من الكثرة والشدة وغير ذلك من الصفات لابدَّ لهُ من زمن طويل كافٍ لتكوُّن ذلك العدد الوافر من رجل واحد ثم ان نسيانهم لمعجزة الطوفان وسبب نجاة جدهم يستدعي ايضاً ذلك الطول ثم ان تعدُّد الرسل مع التعاقب اي ان كل واحد منهم في زمن بعد الآخر وكل واحد منهم يحل العقاب بمن خالفوهُ فبعضهم أُهلك بالريح وبعضهم أُهلك بالصيحة الى غير ذلك يدل ايضاً على شدة طول الزمن فيما بينهم حتى تنوسي خبر السابق وكل ذلك قبل سيدنا ابراهيم عليهِ السلام فلابدَّ ان تكون المدة بينهُ وبين سيدنا نوح طويلة جدًا لا يعلم مقدارها الَّا الله تعالى ومجموع ذلك يدل على طول عمر الدنيا وانما غايتها انها حادثة وانها مآلها الى الفناء وهذا كلهُ يبين لنا معنى قولهِ عليهِ الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيهِ الكريمتين الوسطى والسبابة وكذلك ما دلَّ من الآيات والاحاديث على قرب الساعة فربَّ قائل يقول اين هذا القرب وهذا الاقتراب وقد مضى من زمن البعثة الى الآن أزيد من الف وثلاثمائة سنة ومع ذلك لم تظهر العلامات الكبرى كنزول سيدنا عيسى عليهِ السلام وطلوع الشمس من مغربها الى غير ذلك فنقول لهُ ان الامور نسبيَّة فمن علم المقدار الكثير

من مدة الدنيا التي مضت وعلم ما بقي منها رأى ان الساعة قربت وانها مقترنة بالبعثة ولا يتأتى ذلك الاّ اذا كانت المدة الماضية طويلة طولاً كثيرًا كما هو الواقع والمشاهد من حالة الآثار الدالة على ان ما مضى يزيد على العشرات من آلاف السنين فنسبة الفين سنة او ثلاثة آلاف من تلك العشرات من الالف ما هي الاّ كنسبة المتلاصقين والمقترب واما اذا اعتبر ما يزعمهُ اهل الكتاب من المدة وانها ستة آلاف مثلاً فلا يمكن الفهم الاّ على ضرب من التأويل الذي لا حاجة اليهِ لمخالفتهِ للواقع ولتبين التحريف الثابت فيما يستند اليهِ اهل الكتاب الذي غرّهم فيما ذكر فللهِ الحمد على تنزّه شريعتنا المطهرة عن مثل الخرافات المخالفة للواقع

واما الطبقة الثانية من العرب وهي العرب العاربة فهي التي من زمن سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابنهِ ابي العرب المعروفين الى عصر البعثة وهاتهِ الطبقة اخبارها معروفة اجمالاً لاسيما قرونها المتأخرة بما يستنتج من اشعارها وقصائدها واخلاقها وان كانت تفاصيل الحوادث التاريخية غير محققة لاسيما القرون الاولى لها والمتوسطة لعدم وجود تواريخ محررة في اخبار هاتهِ الامم من العرب دوّنت قبل الاسلام وانما الذي يوجد في ذلك من التآليف انما هو بعد الاسلام عند ما حدث تدوين الكتب في الامة الاسلاميّة وذلك من القرن الثالث من الهجرة فيوجد في التواريخ الاسلاميّة اخبار كثيرة عن هاتهِ الطبقة وكثير منها تلوح عليهِ سمات الصحة لما يؤيدهُ من الاشعار في الوقائع وحوادثها واتياننا على جميع ذلك في هذه الخلاصة مغاير لمقصدنا لانهُ لا يكون الاّ زيادة نسخة من احدى التواريخ المشتهرة في ذلك مثل تاريخ المسعودي او تاريخ ابن خلدون او غيرهما من التواريخ الكثيرة وانما الذي يليق بنا ذكرهُ هو ان نقول ان هاتهِ الامة قد انتشأت فيها دول عظيمة وممالك واسعة وكانت في أغلب الاوقات منقسمة الى ثلاثة اقسام جنوبي وشمالي ووسط

فاما القسم الجنوبي فهو اليمن وحدثت فيهِ دول عظيمة مستقلة بنفسها في أغلب الاوقات ولكنها لم تتسلط على غيرها من الامم الاّ نادرًا نعم قد يتسلط عليها غيرها احيانًا فتارةً تكون تابعةً لملوك فارس وهو الاكثر وتارةً تتبع دولة الحبش او دولة اليونان او الرومان او المصريين وفي كل الاحوال الاغلب ان يكون حكامها منها وان كانوا تابعين لغيرهم ممن ذكرناهُ ونشأ فيهم تمدنًا جميلاً كما تدل عليهِ الآثار التي حول المدن القديمة مثل صنعاء وغيرها وصار في اليمن رجال ذوي فطنة وفكر وقاد وتأهل للكمال كما يرشد اليهِ الحديث الشريف القائل الايمان يمان والحكمة يمانية او كما قال عليهِ الصلاة والسلام

واما القسم الشمالي فهو مملكة غسان اي الجهة الموالية للشام والعراق فهاتهِ كثيرًا ما حدثت بها دول مستقلة ذات شأن لكنها لم تبلغ مقام دول اليمن وفي اكثر الاحوال تكون هاتهِ المملكة تابعة لصاحب ملك الشام كالرومان وغيرهم وفي اكثر الاحوال ايضًا تكون رؤساؤهم منهم وان كانوا تابعين لغيرهم

واما القسم الثالث وهو الوسط الشامل للحجاز ونجد وتهامه فالحجاز منهُ في أغلب الاوقات ان لم نقل في كلها كان منفردًا

واما غيرهُ فيكون تارة تابعًا للجنوب وتارة للشمال وتارة ينفرد بنفسهِ مثل الحجاز والحجاز الذي هو بيت القصيد مع كونهِ كان منفردًا عن الخضوع لغيرهِ الاّ ان يكون خضوعًا اسميًا بمعنى الادلاء بالبيعة لبعض ملوك اليمن العظيمي الملك فانهُ في نفسهِ لم تكن بهِ دولة ملكيّة قط وانما جميع السكان منقسمون الى قبائل كل قبيلة خاضعة الى رؤسائها فقط ولا سلطة لواحدة على أخرى الاّ ما يكون على طريق الظلم والعدوان وقد انفردت قبيلة قريش من بين سائر قبائل العرب بالمجد والفضل لما لها من المزيّة باختصاصها بالسكنى حول بيت الله الحرام الذي لم يزل معظمًا عند الجميع منذ بناهُ سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابو العرب وكانت سائر القبائل العربيّة تحجهُ من جميع الآفاق اليمن والشام وغيرهما وتعظم اهلهُ وتكرمهم واختص بمزيد الشفوف على قريش بنو هاشم منهم فكانوا هم سدنة البيت وهم حماتهُ وقد تقررت في قبائل العرب اكثر شيم المكارم لا سيما قريش فكانوا ابعد الخلق عن تحمل الضيم وكانوا احرص الناس على حفظ المجد وحماية النسب فيحفظون انسابهم ويتفاخرون بها ويكرمون الضيف ويتنافسون في البذل والكرم ويحمون الجوار ويوفون بالعهد ولهم اليد البيضاء في الشجاعة والرماية والفروسيّة والاعتناء بتربية الخيل الجياد والابل ويتفاخرون بالعدل ويستقبحون الظلم وان افتخروا بهِ في قهرهم بهِ لاعدائهم والحاصل انهم اقتنوا اكثر سمات الفضائل ومكارم الاخلاق حسب ما يرشد الى ذلك قولهُ عليهِ الصلاة والسلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويؤكد ذلك حلف الفضول الذي قال فيهِ صلى الله عليهِ وسلم لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما احب أن لي بهِ حمر النعم ولو أدعى بهِ في الاسلام لاجبت الخ وذلك ان قريشًا تحالفوا على ان لا يجدوا مظلومًا الاّ انتصروا اليهِ حتى يردوا ظلامتهُ ويأخذون حق الضعيف من القوي ولتنافسهم في سمات الكمال حدثت بين القبائل المشاحنات على استحصالها وتمكنت العداوة بينهم وصاروا على قلوب شتى

وكان اعظم همهم وغاية تفاخرهم هو البلاغة في لغتهم التي بها يعبرون عن خصال فضائلهم ومناط تنافسهم حتى صاروا يعقدون لذلك اسواقًا كسوق عكاظ فيفيضون اليهِ من كل فج عميق وتأتي القبائل بما لديها من البضائع والتجارة ويقع بينهم تعارف ورواج في المتجر ولكن موضوع اصل الاجتماع هو عرض كل قبيلة كلام فحول فصحائها من نثر ونظم فتنصب لاصحاب البلاغة واللسان الطلق المنابر وينشد كلٌّ منهم ما لديهِ من القصائد التي كان تأنق في احضارها حتى ربما بلغ الحال بأحدهم ان لا يظهر قصيدتهُ الّا بعد التروّي والتدبر فيها واصلاحها مدة العام والعامين حتى كانت لهم قصائد تسمى بالحوليّة وقد يكون الانشاد ارتجالاً مع الابداع والاغراب من مصاقعهم في اغراض شتى من نصائح وحكم وصفة مكارم الاخلاق او في الشجاعة والبطش والحروب او في الغزل والنسيب او المفاخرة والمدح والذم الى غير ذلك مما اشتهر امرهُ في الآفاق بين سائر الامم الى الآن ولا زال يضرب بهِ المثل فيما كان للعرب من سعة اللغة وكمال الادراك فيما خاضوا فيهِ من مناهج الكلام وكانت لهم حكام مسلم اليهم الانصاف ومعترف لهم بكمال الخبرة والاحاطة بأساليب البلاغة وجزالة المعنى ودقة المدرك فيحكمون بتفضيل بعض الكلام على بعض وربما بلغ الحال من العناية بالكلام البليغ ان يكتب في صحائف مونقة ويعلق في داخل الكعبة التي هي مناط تعظيمهم قديمًا وحديثًا ولو في الجاهليّة دلالة على ان ذلك الكلام قد بلغ الغاية القصوى في المهيع الذي هو بصددهِ لما احتوى عليهِ من الفصاحة ومن ذلك المعلقات السبع الشهيرة غير انهم مع هاتيك الكمالات قد تناسوا دين آبائهم ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ولم يبق فيهم من آثارهِ الّا اعتقاد الخالق والاعتراف لهُ بالوجود كما يرشد اليهِ قولهُ تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنّ الله وكذلك تعظيمهم للبيت الحرام ثم تفرقوا في بقيّة العقائد على انحاء شتى باطلة من وثنيّة ومجوسيّة ودهريّة وكتابيّة اي متنصرين او متهودين مستغرقين في الضلال الذي عم جميع اطراف الارض في ذلك العصر بحيث لم يكن بها من يعبد الله على حق الّا عدد من افراد مخصوصين * وبينما كان اهل الارض في ذلك الظلام الحالك واذا بنور الله قد سطع وكشف عن البصائر الحجب ببعثه رسول الله سيدنا ومولانا مُحَمَّد صفوة بني هاشم سادة العرب فانقلب الكون حينئذٍ الى طور آخر في سائر الاحوال المتعلقة بالدين والدنيا وظهر في العالم عصر جديد عمّ اعتدالهُ واستقامتهُ اغلب المعمور من الارض في سنين قليلة والكلام على تفاصيل زمن البعثة وما سبقهُ وما لحقهُ من مكملات

دعائم الدين الاسلامي قد بسط ووفر في مجلدات عظيمة من كتب السير والتاريخ لا تمكن الاحاطة بها هنا وشهرتها غنيّة عن البيان وانما الذي ينبغي التنبيه عليهِ هنا لمن لم يكن خبيرًا هو ان تاريخ ذلك العصر اعني عصر البعثة وعصر الخلفاء الراشدين يلزم فيهِ من القيود ما لا يلزم في غيرهِ من التواريخ وهو صحة السند واتصالهِ بحيث يصح ان يكون معتمدًا لانبناء الاحكام الشرعيّة عليهِ * لان جميع حركات وسكنات رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تشريعيّة للامة الّا ما قام الدليل على اختصاصهِ بهِ عليهِ الصلاة والسلام وهكذا اعمال خلفائهِ الراشدين من بعدهِ ومن المقرر في كتب الاصول ان الادلة الشرعيّة لا تثبت بمجرد النقل بل لا بد ان يكون النقل على الوجه المعتبر وهو روايةُ اي الدليل بالتواتر او الشهرة او الافراد على ما هو مبسوط في كل منها وبهذا يتبين غلط من يزعم ان الامام ابا حنيفة رضي الله عنهُ كان غير عالم بالسير الذي هو تاريخ سيرة رسول الله سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليهِ وسلم وعلى آلهِ وكذلك سيرة خلفائهِ الراشدين من بعدهِ وهم سيدنا ابو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضي الله عنهم لان كل ذلك يتوقف عليهِ كثير من مسائل الاجتهاد كمعرفة الناسخ والمنسوخ من الاقوال والافعال وكذلك نفس الادلة التي يستند اليها المجتهد فمن تشدق بحكايات عن ابي يوسف او مُحَمَّد فيما سلمهُ امامهم ابو حنيفة رضي الله عنهم اجمعين ليس هو الّا جهول بمقام الاجتهاد ومعاني الكلام وارتباط العلوم ببعضها ولا غرابة حينئذٍ في فحش غلط وكذب مؤرخي غير المسلمين فيما ينسبونهُ بهتانًا الى النبي صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلم في بعض سيرهِ وصفاتهِ لانهم يظنون ان تاريخ ذلك العصر خصوصًا ما يتعلق بالنبي صلى الله عليهِ وسلم هو مثل سائر التواريخ التي تتوقف على مجرد الرواية مع عدم المانع العقلي وقد عرفت ان الامر عندنا ليس كذلك بل هو مشروط بما ذكرناهُ فلا يغتر مسلم بما يذكرهُ الافرنج الآن في تواريخهم في هذا الموضوع وننبه على الخصوص ابناء أوطاننا المعجبين بأحوال الافرنج على الاطلاق لانكبابهم على تعاليمهم وعدم فتح بصائرهم في حقائق معارف المسلمين حتى جرهم ذلك الى استحسان طريقة التاريخ عند الافرنج مطلقًا مع انها في نفس الامر ليست مطابقة للواقع في الموضوع الذي ذكرناهُ ثم ان هاته الطبقة من العرب لما كتب الله لها ان تسود على الارض ويعم حكمها فيها في الطول والعرض وأنجز لها وعدهُ في اقرب مدة بحيث انها في خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهُ المتوفى سنة ٢٧ هجرية امتدّ حكمها من جبال

القوقاز الى المحيط الغربي جهة اسبانيا ومراكش وكان ذلك احدى معجزاته عليه الصلاة والسلام حيث قال (وزويت لي الارض فأوريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مقدار ما زوي لي منها) فكان الامر كذلك ولم يتوغل ملك الامة في الجنوب وفي الشمال مثل ما توغل في المشرق والمغرب كما قاله حجة الاسلام الغزالي في الاحياء وسبب ذلك والله اعلم أن العمران في الارض كان في ذلك التاريخ غير معتبر في جهتي الجنوب والشمال وانما مناخ الامم ومقام اغلب الخلق في جهتي الشرق والغرب وكان الوجه في الاتيان بلفظ المشارق والمغارب بصيغة الجمع هو الاشارة اما الى المشارق بالنسبة للعرض اي تعددها نظرًا لاختلاف الفصول او بالنظر الى الطول اي مشارق اهل الارض فان كل جهة من الارض شرقيها مسكون الى نهاية المحيط الشرقي بالنسبة لنصف الكرة الذي هو القسم المعمور والمعروف اذ ذاك وهكذا الغرب فيكون في الحديث على الوجه الثاني اشارة الى عدم تملك المسلمين في امريكا كما هو واقع بالفعل لانها ليست بمشرق ولا بمغرب لاحد سكان هذا القسم اعني القسم المشتمل على آسيا وافريقيا وأوربا لان بعد قارة امريكا من هاته القارة جعل مشرق شطوط قارّاتنا ومغربها هو البحر فبسبب امتداد ملك هاته الطبقة الى ذلك الحد وانتقال القبائل الى تلك الاصقاع المفتوحة واختلاطهم بأممها ورجوع تلك الامم ايضًا الى مركز الحكم وتخته وتخت الديانة ايضًا لانهم دخلوا فيها افواجًا * فبسبب ذلك كله حدثت الطبقة الثالثة من العرب وهي العرب المستعربة اي الذين تعربوا وان لم يكونوا في الاصل عربًا وامتدّت هاته الطبقة الى نهاية دولة العرب في الصورة والمعنى اعني إلى حدود المائة الثالثة التي تقاص فيها ظل دولة جنسيّة العرب وان بقي فيهم الملك لكن عصبته وانصاره والقائمون به والذين امر الدولة في أيديهم حقيقة هم الاعجام من الترك والموالي الذين اتخذهم بنو العباس بطانة لهم فتغلبوا على الاطراف وعلى نفس الخليفة تارةً مع شدة في الاستيلاء وتارةً مع ضعف الى ان اندثر ملك الخلفاء بالمرة بواقعة هلاكو خان على بغداد التي بها انقرضت دولة بني العباس وان عادت اسماً بلا مسمّى بعد مدة قليلة من السنين بظهور احد ذريّة بني العباس في مصر واكرامهم له بالبيعة الصوريّة وتسميته بالخليفة ثم يحجرون عليه في قصره الرحيب بحيث لا يكون له من الامر شيء ويكتب كتابًا يشهد فيه على نفسه انه فوّض الامر الى ذلك السلطان الذي ولاه ويبقى ممتعًا في لذاته التي يتفضل بها عليه حسن ظن من سلاطين ذلك الزمان بمصر حتى اعتقدت العامة ان وجود الخليفة

موقوف على شرط النسب العباسي وحده فأزاحت هاته البدعة الدولة العثمانيّة عند استيلائها على مصر سنة ٩٢٢ هجرية بفتوى العلماء

ومن تاريخ انحصار دولة العرب اي بني العباس في مملكة العراق وخروج الحجاز عنها غالبًا الى بيعة من هو بمصر حدثت الطبقة الرابعة وهي العرب المخضرمون الذين هم سكان جزيرة العرب الى الآن فانهم وان كان اكثرهم قبائل عربيّة النسب اصالة لكن لغتهم قد خرجت عن اصلها وكذلك طباعهم وعاداتهم لتقليدهم الامم المتغلبين على الدولة التي هي اكثر نفوذًا في ممالك الاسلام فهم وان كانوا عربًا من جهة الانساب لكنهم غير عرب من جهة اللغة والطبائع وبعض الاختلاط في الانساب ولذلك اطلق عليهم اسم المخضرمين وقد أدانا الكلام على اجمال اوصاف الطبقات الاربعة من العرب الى التكلم عن شيء من حالة التاريخ الجديد للحجاز لكي ينسجم تعريف تلك الطبقات على وتيرة واحدة ثم نعود الآن الى ديدننا في التكلم على التاريخ فنقول ان انتهاء التاريخ القديم للعرب كان بظهور الاسلام

فصل

في التاريخ الجديد للحجاز

اعلم انه ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاصة العرب وسيد الامم قد حدث تاريخ جديد في سائر العالم لا في الحجاز فقط الذي هو مطلع نوره عليه الصلاة والسلام وذلك لعموم رسالته صلى الله عليه وسلم فانه ولد عام الفيل الذي كانت تؤرخ به العرب وهو العام الذي قدم فيه ملك الحبشة للاستيلاء على مكة ومعه فيلة للحرب فولي كبيرها على عساكرهم وانهزمت الحبشة بدون حرب وكان ذلك من الارهاصات الدالة على البعثة وذلك العام قبل الهجرة بسنة ٥٣ ويوافق ذلك سنة ٥٦٩ ميلاديّة وقد كان والد النبي صلى الله عليه وسلم قد توفي قبيل ولادته فكفله جده عبد المطلب وارضعه اخواله بنو النجار في المدينة ثم نشأ صلى الله عليه وسلم على كمل الاخلاق واشرفها سجيّة فطر عليها من غير تعليم ولا تأديب حتى انه كان اميًا لا يقرأ ولا يكتب على ما هو الغالب في الامة اذ ذاك وكفله عمه ابو طالب بعد وفاة جده فلما استكملت شبوبيته تعاطى التجارة

على وجه المضاربة وهي ان يكون المال لانسان والعمل على الآخر والمال الذي اتجر بهِ كان لخديجة بنت خويلد احد اعاظم قريش واغنيائها فسافر الى الشام ورجع بربح فاق على انظارهِ ثم تزوج السيدة خديجة وقد رغبت فيهِ لعلو نسبهِ حيث كان صفوة بني المطلب وبني هاشم سادات العرب كما تقدم ولكمال حسبهِ لما رأت من جزيل الارباح في تجارتهِ مع ما هو عليهِ من استجماع كافة مكارم الاخلاق ووفرة العقل والجلالة والمهابة حتى كانت قريش يدعونهُ الامين وينقادون لاشارتهِ وامرهِ حتى انهم لما اختلفوا عند تجديدهم بناء الكعبة فيمن يبني الحجر الاسود وهم بالمسجد الحرام وتراضوا على تحكيم اول داخل فكان هو النبي صلى الله عليهِ وسلم فقالوا جميعاً رضينا هو الامين

ومن كمال تدبيرهِ ارضى جميعهم في ذلك حيث اخذ ثوباً ووضع فيهِ الحجر الاسود ثم قال لهم لترفع كل طائفة من احدى جهاتهِ فرفعوهُ جميعاً حتى اذا بلغوا بهِ محلهُ وضعهُ فيهِ هو عليهِ الصلاة والسلام وهكذا عرف بين الجميع بالصدق والوفاء والنزاهة عن كل نقيصة فلما بلغ الاربعين من عمرهِ بعثهُ الله رسولاً بنزول الوحي عليهِ صلى الله عليهِ وسلم مع الملك واقام بعد ذلك بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو فيها الناس للايمان بما انزل عليهِ من القرآن واقامة الدليل والبرهان واظهار المعجزات الخارقات للعادات من الاخبار بالمغيبات الماضية كحوادث الامم الماضية مما اختلفت فيهِ اخبار اهل الكتاب فجاءهم فيهِ بما يوافق الحق والعقل وان خالف اقوالهم جميعاً وكذلك المغيبات الحالية كالاخبار عن بيت المقدس وتوصيفها توصيف معاين لها مع انهُ لم يرَها قط الا في الاسراء الذي هو معجزة لهُ عليهِ وآلهِ الصلاة والسلام وكذلك المغيبات المستقبلة كغلب الروم من الفرس وعود الكرة لهم وانتصار المؤمنين وعزتهم وامتلاكهم مشارق الارض ومغاربها مما جاء كلهُ على نحو ما قال وهكذا اجابة دعواتهِ وغير ذلك من المعجزات واعظم بمعجزة انشقاق القمر التي بينا ثبوتها القطعي في الكلام على مصر وفوق ذلك كلهِ معجزة القرآن الذي هو من جنس كلامهم ومن النوع الذي فيهِ مجال تفاخرهم واعتنائهم فاذا هو يومياً يقصص عليهم القصص ويقيم البراهين على الايمان ويوعظ ويرغب ويرهب باساليب شتى ويدعوهم الى المعارضة باتيانهم بمثلهِ وينادي عليهم بالتعجيز مما يزيد في حماستهم في المعارضة ولم يأتوه واحد منهم بشيء حتى لجأوا الى انهُ سحر وغير ذلك من اعذار المعاندين العاجزين كقولهم انهُ تعاليم نسطور الرومي مما ردهُ عليهم القرآن الكريم حيث قال لسان الذي يلحدون اليهِ اعجمي وهذا لسان عربي مبين (الآية) فقد اخطأوا وافتروا ولم يفقهوا ان مناط المعجزة هو اللسان

العربي وهو محل مناداتهم الى المعارضة وذلك لا يتأتى فيهِ قولهم لان لسان من زعموهُ عجمي وليس هو موضوع التعجيز وهذا كافٍ في دحض اصل الدعوى من كون نسطور لم تكن بينهُ وبين النبي صلى الله عليهِ وسلم علقة ولا مواصلة وغاية الامر ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد رآهُ اثنان من الرهبان قبل النبوة وآمنا بهِ حتى عدهم البعض من الصحابة على قول من يرى الصحبة تثبت بالرؤية مع الايمان ولو قبل البعثة وهذان الراهبان اولهما يسمى بحيرا او جرجيس رآهُ صلى الله عليهِ وسلم عند اول سفرة لهُ صلى الله عليهِ وسلم مع عمهِ ابو طالب الى الشام وهو ابن اثنتي عشر سنة وكان الراهب في صومعة لهُ ينزل حولها الركبان فلما رأى النبي صلى الله عليهِ وسلم ورأى بعض العلامات التي استدل عليهِ بها قرب من النبي صلى الله عليهِ وسلم وتفحص جسمهُ فرأى الخاتم وتعرف اخبارهُ من رفقائهِ ثم تلطف الى عمهِ حتى رجعهُ الى بلدهِ خوفاً عليهِ من اليهود واخبر عمهُ ورفقاءهُ بما يكون لهُ من الشأن والامر (وثاني) الراهبين هو نسطور الراهب رآهُ ايضاً قبل البعثة وعند سفرهِ للتجارة الى الشام ومعهُ ميسرة غلام خديجة زوجتهِ فلما رآهُ من الصومعة ايضاً تعرّف خبرهُ من الرفقاء واخبرهم بما يكون لهُ من الشأن ايضاً ولا يعلم ولا ينقل عن احد لا في الثقات ولا في الموضوعات انهُ اجتمع بغيرهما في غير ذلك الموطنين الا ما روي بضعف من انهُ صلى الله عليهِ وسلم سافر وهو ابن عشرين سنة الى تجارة ايضاً بالشام وفي صحبتهِ ابو بكر الصديق رضي الله عنهُ وان نسطوراجتمع بهِ اذ ذاك ايضاً وحذرهُ ورغبهُ في الرجوع عن الشام خوفاً عليهِ من الروم فارسل معهُ ابو بكر رضي الله عنهُ غلامهُ مصاحباً في الرجوع وهاتهِ الرواية على ما فيها من الضعف ليس فيها شيء زائد عما في الروايتين السابقتين بالنسبة لامر الراهبين فيا ليت شعري من اين افترى بعض المتشدقين من الافرنج المدعين معرفة التواريخ بان النبي صلى الله عليهِ وسلم كانت لهُ مودة مع ذلك الراهب وهو بحيرا وينصحهُ بالنصائح وقد علمت مما مرّ سابقاً ما يشترط في حالة تواريخ ذلك العصر ثم ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد امرهُ الله بالهجرة الى المدينة التي قدر ان تكون هي مظهر اصلاح هذا العالم الارضي ونجاة اهلهِ في الآخرة وكان اذ ذاك قد فشا خبر الاسلام والبعثة فتلقاهُ الانصار اهل المدينة بالبيعة والطاعة وانثالت عليهِ القبائل بالايمان واستعد اذ ذاك لاجراء امر الله واحكامهِ على من عاندوا بعد اقامة البرهان والحجة وتم ابعد وعدهِ لرسولهِ وللمؤمنين ففتحت مكة وآمنت في اثرها جميع قبائل جزيرة العرب ولم يزل الدين ينتشر الى ان عمّ البسيطة في نحو نصف قرن ثم ان تاريخ

الحجاز لما كان من ذلك الوقت هو تاريخ الامة الاسلاميَّة الى انتقال الخلافة منهُ في خلافة
سيدنا علي ثم عودها اليهِ في خلافة سيدنا الحسن رضي الله عنهم جميعاً ثم خروجها منهُ من
ابتداء خلافة سيدنا معاوية والكلام على ذلك كله مبسوط في جميع التواريخ الاسلاميَّة
فلا ثمرة في ذكرنا لازيد ممَّا ذكرناهُ هنا طبقاً لقاعدتنا وانما نقول ان الخلافة لما انتقلت
عن الحجاز صار على كلٍّ من مكة والمدينة والٍ مخصوص غير ان والي مكة قد تعين
من وقت الفتح واول والٍ بها هو عتاب بن اسيد وُلي سنة ثمان عند الفتح وولي ايضاً
على اقامة الموسم والحج ثم ان بني اميَّة كانوا لا يولون على المدينة الاَّ اقرب الناس وآمنهم
لديهم واستمرَّ الامر على ذلك الى حدود سنة ٢٥١ التي استقلت فيها عائلة ساداتنا الاشراف
بني الاخيضر وبقيت بايديهم الى ان غلب عليهم القرامطة سنة ثلاثمائة وسبعة عشر وهولاء
القرامطة قوم ظهروا باليمن مظهرين الاسلام والتمسك بالسنة وهم اشد كفرًا ونفاقاً من
المنافقين فادخلوا في الدين الدسائس ووضعوا الاحاديث وفعلوا من المناكر ما لهُ خبر
مأثور حتى استولوا على مكة والمدينة وخربوا الكعبة وقلعوا الحجر الاسود من موضعهِ
الى ان رجعهُ بعد ذلك عمال بني العباس الذين طهر الله بايديهم الحرمين من اولئك
القرامطة ثم استقلَّ بالحرمين ايضاً السادة الاشراف بنو سلمان بن داود بن الحسن
المثنى وبقي الملك بأيديهم الى سنة اربعمائة واثنين وخمسين فاستقلَّ بملك الحجاز الهواشم
الذين هم العائلة المستولية الى الآن من ساداتنا الاشراف واولهم سيدنا المولى الشريف
ابو هاشم محمَّد العلوي المستولي في السنة المذكورة والمتوفي سنة ٤٨٧ وبقيت في بنيهِ الى
الآن فانهم كانوا من ذلك التاريخ مستقلين بالامر والنهي والنصب والعزل وسائر الادارة
الداخليَّة الاَّ انهم يدلون بالبيعة ظاهرًا الى الخلفاء العباسيين والسلاطين الذين تغلبوا
عليهم ببغداد الى انقراض دولتهم فادلوا بالبيعة الى سلاطين مصر وانما كان الحال يختلف
عندهم فتارة تنفرد مكة والمدينة بامير واحد منهم وتارة تستقل كلٌّ منهما بامير الى ان
فتح السلطان سليم الاول مصر واقام بها مدة فاستقبلهُ في الطريق وهو راجع الى الاستانة
الشريف المقدس ابو نمي ابن الشريف بركات فبايعهُ نيابةً عن ابيهِ وقلدهُ السلطان حالاً امارة
الحجاز كلهِ بمشاركة لابيهِ في حياتهِ واستقلالهِ بعد مماتهِ ولم تزل ولله الحمد هاتهِ العائلة
الكريمة الشريفة هي الحاكمة على الحجاز الى الآن وذاك اعظم دليل على ثبوت نسبها لانها
من عهد استقلالها الذي هو كبد القرن الخامس وتوفر حالة معرفة الانساب من الدولة
العباسيَّة التي لم تزل الى ذلك التاريخ لها صولة وشوكة خصوصاً فيما يعود لامر النسب الذي

يخشى منهُ حتى السلاطين المتغلبين عليهم لانهم يخشون من خروج الخلافة الى غير العباسيين
الذين هم من شيعتهم واخضعوا الناس باسمهم ان يتلاشى امرهم بتلاشي متبوعهم فلم يقروا
لهم بالنسب ويرضوهم بالسكوت عن الحجاز الاَّ لما يعلمون من حقيقة نسبهم وثبوتهِ عند
الخاص والعام وهكذا بقيت هاتهِ العائلة بارك الله لنا وللمسلمين فيها حاكمة على منبع البعثة
أقرَّ الله اعيننا والمسلمين بوجودهم والقيام بسنة الحق لابائهم وجدودهم والامير الحالي هو
مولانا الهمام الشهم عون الرفيق ابن مولانا المقدس المبرور سيدنا محمَّد بن عون صلوات
الله وسلامهُ على جدهم رسولهِ وعليهم وعلى جميع آلهم

مطلب في السياسة الداخليَّة للحجاز

اعلم ان مدار الادارة كلها جليلها وحقيرها كلياتها وجزئياتها قد كان سابقاً مناطهُ
هو الامير السيد الشريف وكانت على حسب اصول المراسم الشرعيَّة المتعارفة من قديم
مثل تفويض الاحكام الشخصيَّة الى القاضي والمفتي وانفراد الامير بالجلوس الى رفع المظالم
واجراء بقيَّة الادارة واستمر على ذلك بعد الخضوع للدولة العليَّة ايضاً قسماً مديدًا من
الزمن حتى في امر القوة الحربيَّة فقد كان للامير عساكر خاصون بامارتهِ ليقيم بهم ما
تستدعيهِ القوة وقد بقي الى الآن شيءٌ من ذلك حيث ان للامير نحو الحراس او العساكر
الخاصة لا يبلغ عددهم المائتين وعند ما بدى للدولة العليَّة الاحتراس من امر الولاة مدة
السلطان محمود الثاني في اواسط القرن الثالث عشر لكثرة مخالفة ولاة الاطراف على ما
سيأتي بيانهُ في محلهِ حصل ذلك التغيير ايضاً في الحجاز لكنهُ بأمرين وهو جعل القوة
العسكريَّة الكبرى خاصة بالدولة العليَّة بان ترسل هي من تختها عساكر يقيمون هناك وتزيد
قوتهم وتقللها على قدر الحاجة ورئيسهم من طرف الدولة ايضاً ليس بملزوم لامتثال امر
الامير فيما يراهُ من معاقبة بعض القبائل بل هو على حسب ما يظهر لهُ في الواقعة وعند
مخالفتهِ في الرأي للامير يخبران الدولة معاً لتأمر بما تراهُ وكذلك امر العاشر اي الكمرك
في المراسي البحريَّة استبدَّت بهِ الدولة وحدها بمأمورين ترسلهم من طرفها ونشأ عن ذلك
في اول الامر قلاقل ومحاربات افضت الى ابدال الامير بغيرهِ من فروع عائلتهِ الكريمة
ولم يزل يزداد تداخل الدولة في التصرفات الداخليَّة الى ان جعلت والياً على الحجاز من
احد كبار رجال دولتها مثل بقيَّة ولاياتها مع بقاء سيادة الامير على منصبهِ واعتبار نفوذ اوامرهِ

على الاطلاق ولا يخفى ما في وجود آمرين على مأمور واحد في زمن واحد من الاضطراب ونشأ ايضاً عن ذلك الاحتراس ان الدولة صارت تستدعي من يلي سيادة الامير في السن من عائلتهِ ليبقى بتخت السلطنة ويتخلق بأخلاق الدولة ويتعرف سياستها الداخلية والخارجية لانهُ هو وليُّ عهد الامير فاذا آلت لهُ الولاية كان عالماً بأحوال الدولة التي هو خاضع لها وتقلدهُ الدولة مدة اقامتهِ بتخت السلطنة رتبة الوزارة والمشيرية وتجعلهُ عضواً بمجلس شورى الدولة الذي يرجع اليهِ غالب التدبير في اغلب مصالح الدولة الداخلية هكذا ظاهر الحال ونعم المسلك لو يكون هو الامير والوالي بحيث تحدد لهُ الدولة تصرفاتهُ على نحو بقية ولاتها غير انهُ ينفرد بكونهِ ممتازاً بعدم خروج الامارة عنهُ وعن عائلتهِ وبكون الادارة في امارتهِ تجري على طبق الشريعة المطهرة مع غاية الاحتراس عن البدع التي لا داعي لشيء منها هناك لكنهم اقتصروا على خصوص الفائدة في ابقاء ولي العهد بالتخت لمآرب للدولة ربما احتاجت اليها مع سيادة الامير نسأل الله التوفيق

والجاري الآن هو ان يختص سيادة الامير بالامر والنهي والولاية والعزل في جميع قبائل الاعراب وكذلك الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام من امامة وخطابة وغيرها الّا انهُ ينهي الى الدولة ما يراهُ في كبارها لتصدر الاوامر السلطانية على حسب ما ينهيهِ وعلى نحو من ذلك الوظائف الدينية بخصوص مكة كالفتوى في المذاهب ونقابة الاشراف وما شاكلها واما القاضي فانهُ يرسل الى مكة قاضٍ والى المدينة المنوّرة قاضٍ من تخت السلطنة على نحو بقية ولاياتها وكذلك بقية الولايات العرفية كلها تتصرف فيها الدولة والحاصل ان الذي استقرّ عليهِ الحال الآن هو اختصاص الامير بأمر قبائل الاعراب ما لم يستدعِ الحال محاربتهم وبعض الوظائف في خصوص مكة مما مرجعهُ الديانة كائمة الصلاة في البيت الحرام من المذاهب الاربعة وهم وان كانوا اربعة الآن لكنهم لم يقع استقرارهم هكذا في زمن واحد بل كان الامر اولاً امام واحد شافعي ثم زيد ثانٍ من المذهب الحنفي ثم آخر من الحنبلي ثم آخر من المالكي في ازمان متباعدة بحسب المناسبات في اتباع ذلك المذهب ونفوذهم لدى الدولة الحاكمة وهكذا الامر في ائمة المسجد النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وعلى آلهِ فان الامام المالكي لم ينصب الّا في عشرة التسعين من القرن الثالث عشر

واما بقية مدن الحجاز التي هي المدينة المنوّرة وجدّة فاما المدينة المنورة ففيها محافظ وهو كبير العساكر وشيخ الحرم النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وقاضٍ

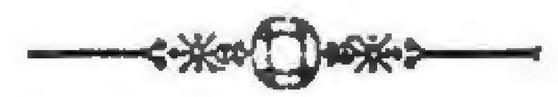
وكلهم يأتون من تخت السلطنة وفيها مفتٍ وائمة وخطباء وامين الخزنة مع وظائف أُخر صغيرة وهؤلاء المتوظفون سيما اصحاب الادارة والحكم تابعون لوالي الحجاز مع بعض امتياز لهم في مخاطبتهم للدولة رأساً

واما جدّة فمتوظفوها مثل متوظفي بقية مدن المملكة العثمانية ما عدا المجالس الحكمية القانونية لان الاحكام سيأتي بيانها وانها على خلاف بقية الممالك العثمانية اذ لا مجالس عرفية بها فاجمال الحال ان الادارة السياسية مرجعها هو سيادة الامير مع الوالي اللذان يرجعان جميعاً الى ما تراهُ الدولة العثمانية

وكليات الادارة الآن هناك ليس فيها مكوس ولا ضرائب ما عدا الكمرك على الواردات البحرية وبعض اعشار على النخيل في القبائل الخاضعة حقيقة وكل هولاء القبائل لا يدفعون شيئاً الى الحكومة ولا الى الامير بل ان خضوعهم الذي ذكرناهُ الى سيادة الامير في الحقيقة هو ظاهري فقط وانما يختلف الحال فيها بحسب الزمان وشدة الطغيان في الانقياد وعدمهِ وبعض الجهلة ينسبون ذلك الى ارادة بعض الامراء من العائلة الشريفة معللين ذلك لان بقاءهم في الامارة انما هو لاخضاعهم تلك القبائل فهم لا يريدون ان يكسروا شوكة القبائل بالمرة حتى تجري فيهم الاحكام مثل غيرهم ويدخلون تحت قياد المذلة اذ ربما استغنت اذ ذاك الدولة عن الامراء الاشراف والحق ليس كذلك فان بعض هولاء الامراء قد اخضعوا جميع القبائل الى الاحكام حقيقة منذ عهد ليس ببعيد زمن السلطان عبد المجيد وولاية المولى المقدس الامير الشريف عبدالله بن عون عند ما ساعدتهُ الدولة وعملت برأيهِ وامدتهُ بالعساكر مثل ما اراد والباعث الحقيقي على اهمالهم هو عدم مساعدة الدولة للامراء على اخضاعهم متعللاً رجالها في الظاهر باحترام هاتيك البقاع الكريمة ومراعاة مجاوريها وسلاطين آل عثمان احترامهم وتعظيمهم لشعائر الدين وتوقيرهِ شنشنة معروفة قديماً وحديثاً ولذلك يوافقون على مثل تلك النصيحة على انها ربما كان باطنها غير ذلك وهو عدم استفادة اولئك الرجال من انقياد تلك القبائل لانهم وان خضعوا حق الخضوع فلا مساغ لضرب شيء من الضرائب عليهم لا سرّاً ولا جهراً فتكون فائدة خضوعهم راجعة لسيادة الامير وحدهُ من نفاذ احكامهِ واوامرهِ فيها فيظهر اولئك الرجال النصيحة الى السلاطين على نحو ما قدمناهُ مع ان اخضاعهم واجب شرعاً لأمن السبل وحفظ الحجاج من التعدي واقبال تلك القبائل على عمران اراضيهم لانهم الآن زيادة عن عدم دفعهم للدولة ولا للامير حتى اعشار ابلهم فهم يأخذون من الدولة

امولاً في كل سنة بمجرد محافظتهم على امن السبل ولا يؤخذ منهم شيء من المال قل او جل غير انهُ قد كان في اواسط القرن الثالث عشر رجل من قبيلة حرب يسمى الشيخ سعد قد تقوى بدهائهِ على اتحاد جميع قبيلتهِ وعظمت شوكتهُ بانقياد غيرهم من القبائل ايضاً ولم يخضع الى الحكومة قط الاَّ انهُ اذا اخذ المرتبات التي اشرنا اليها امن طريق الحاج الى المدينة وعند ما تسافر القوافل اليها يعد جمال كل قافلة ويأخذ على كل جمل نصف ريال اي اثنين فرنك ونصف ضريبة منهُ على اصحاب الابل وبعد موتهِ وخضوع ابنهِ وانقياد القبائل نوعاً ما ابقت تلك الضريبة على اصحاب الابل عند ما يكترونها الى الحجاج وليس للدولة غير ما مر ذكرهُ من انواع المداخيل الاَّ انواع من الضرائب الخفيَّة اكثرها يستفيدهُ افراد من المتوظفين لانفسهم مما يؤخذ على الحجَّاج بأسماء سموها كضريبة على تنظيف منى في العيد من الضحايا وغيرها ما لا يصرف منهُ في الحقيقة الاَّ نزر يسير في الجهات التي يذكرون الصرف لاجلها وكل المصاريف اللازمة لكلٍ من الحرمين سواءٌ كانت الوظائف الدينيَّة او السياسيَّة او شعائر المسجدين او اقامة المواسم كلهُ تصرفهُ الدولة من خزانتها وهو مقدار يبلغ نحو مليونين ونصف فرنك لان الاقامة بخصوص شعائر المسجدين الشريفين مبالغ في اقامتها ولا اقول على حسب الاستحقاق لان حقها لا يبلغ اليه ولو ببذل النفس والنفيس . ومن المعلوم ان الشريعة المطهرة كان منبعها تلك الاماكن المكرمة وقد اجريت فيها الشريعة حق الاجراء واستقر الامن في سائر جزيرة العرب وكانت القبائل تؤدي الى بيت المال الاسلامي ما اوجبهُ الشرع على كل مسلم فكيف يغير ذلك الآن حتى يتجروا على ابدال حرم الله بعد الامن بالخيفة والاتيان بما يسود منهُ الوجه يوم القيامة وتثقل بهِ في الذنوب الصحيفة مع ان حملها على الاستقامة امر سهل يسير

وما اجدر هاتيك الاماكن الشريفة بالمحافظة فيها على ادارة تحافظ على السنة واعمال الخلفاء الراشدين الذي هو الامر الوحيد في جلب قلوب سائر المؤمنين الى الدولة التي تجري ذلك فضلاً عن خصوص اهالي الحجاز ولا ريب ان ذلك يرسخ قدم الدولة وتستغني عن الاحتراسات الناشئة عن الدسائس في رمي بعض ذوي الامر بمعاضدة بعض الدول الاجنبيَّة لتطلب الخلافة او الاستقلال نسأل الله اصلاح الحال



مطلب في السياسة الخارجيَّة

اعلم ان الحجاز مرتاح ولله الحمد من امر السياسات الخارجيَّة اذ ليس في دواخلهِ ومدنهِ ما عدى جده وينبع اجانب ولا يدخلهُ الاَّ المسلمون وليس لواحد الادعا بحماية احدى الدول الاجنبيَّة وكل من دخل فهو خاضع لاحكام البلاد ولا ريب ان المسلمين يحجون في كل عام من جميع آفاق الارض وعلى الكثير منهم استيلاء الدول الاجنبيَّة التي يبلغ عددها في هذا الوقت الى ثلاثةعشرة دولة منها القوي ومنها الضعيف ومنها المنصف ومنها المعتسف ومع ذلك كلهِ ليس لهم ادنى تداخل او تكلم فيما يتعلق برعاياهم المسلمين هناك والله يديم سترهُ الجميل نعم ان جده يوجد بها قناصل كثيرون للدول الاجنبيَّة الذين لهم عناية او علاقة بالمشرق ولهم تجار افرنج في تلك المرسى وكذلك بعض الدول الاجنبيَّة الذين ليس لهم هناك شيء يذكر تجد لكثير منهم قناصل يستولون تلك الوظيفة برغبة منهم للدولة الموظفة لمجرد الفخر لهم من غير داع ولا مرتب وعلى كل حال فسياسة اولئك القناصل متعلقة بالدولة العثمانيَّة اما بواسطة واليها هناك او بواسطة سفرائهم في تخت السلطنة فالسياسة الخارجيَّة حينئذٍ في خصوص جده تابعة لسياسة الدولة العثمانيَّة التي سيأتي الكلام عليها في محلهِ ان شاء الله تعالى

مطلب في عوائد وصفات الاهالي

اعلم ان البلدين الاكرمين سكانهما الآن اغلبهم من غير العرب الاصليين فان المدينة لا يوجد بها الاَّ العائلة الشريفة حقيقة من العرب وقد كنت رأيت رجلاً واحداً من ذريَّة العباسيين قيماً في ضريح عمهم سيدنا حمزة ولم يبق من الانصار هناك الاَّ بقيَّة عائلة واحدة وبقيَّة سكانها كلهم من الآفاق واكثرهم مغاربة واما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين الاَّ عائلة السادة الاشراف وعائلة الشيبي والبقيَّة كلهم من الآفاق واكثرهم هنود ولا يخفى ان العوائد والصفات تغلب على السكان باعتبار اصلهم غير انهُ لا بدَّ ان تحدث فيهم تغيرات تناسب حالة السكان الاصليين فأخلاق هذين البلدين على الاجمال مناسبة لاخلاق العرب غير ان اهالي مكة تعتري اخلاقهم الحدة بخلاف اهالي المدينة فانهم ليِّني الاخلاق كرام الطباع ويغلب على الجميع الحشمة والحياء وسلامهم بالمصافحة او الاشارة باليد ويقفون لكل داخل ولو تكرر دخولهُ واهالي المدينة اشد حريَّة في الطباع

وعدم المذلة والتمكن في اخلاق الرجولية والجلد فيركبون الخيل ويسافرون الى الحج
ركوبًا على الهجين من غير تخوت مع السير الحثيث مع التمكن في معرفة الرماية والفروسية
ولكل منهم سلاح مستوفر . واما الملاهي فلا يلتفتون اليها ولا وجود لها كما هو الواجب
سيما في تلك الاماكن نعم قد وجد من بعض الوافدين تساهل وتجري على استعمال الخمر
وآلات السماع سرًّا وكاد ان يكون من بعضهم جهريًّا سيما من بعض اجلاف العساكر
او المتوظفين الذين لا يخافون الله ومن المعلوم ان الفساد ملائم لطباع البشر فيسرع فيهِ
التقليد لكنهم مع ذلك لا يزال الامر بحمد الله مستورًا فلا تجد المحارم متجاهرًا بها ولا
ترى حانة لخمار او دارًا معينة للفسوق وان وجد شيء فانما يكون في بيت صاحبهِ في
الستر . وعلى قريب من هذا المنحى اهالي جدة . واما بقية البلدان فهم على اخلاق بقية
السكان من قبائل العرب الذين لم تبقَ فيهم من الاخلاق العربية التي قال فيها صلى الله
عليهِ وسلم(بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) الاّ القليل وعاد اليهم التفاخر بالتظالم وهجوم القوي
على الضعيف فلا تجد الامن مستقرًّا الاّ قليلاً الاّ انهم بقي فيهم حفظ الذمار وتوقير
الصغير إلى الكبير فاذا جعل الرجل من بيتوناتهم يدهُ على ذقنهِ كناية عن حفظ ذمة
المستجير بهِ فانهُ يوفي بعهدهِ ولو حملهُ ذلك على الحرب وهلاك فيها هو وقبيلتهُ هذا غاية ما
يمكن ان يذكر لهم من الصفات الحميدة مع اكرام الضيف واطعام الطعام . واما بقية
الاخلاق السابقة العربية فكادت ان لا يوجد منها شيء كجودة القريحة والدهاء في
الامور ومعرفة احوال العالم فمن عجيب ما شاهدتهُ من السذاجة في بعضهم وبلههِ ان كان
احد الجمّالين ماشيًا بقرب منى في طريق المدينة المنورة على صاحبها افضل الصلاة
والسلام وعلى آلهِ وهو كهل يخاطب شابًّا في حساب بينهما فقال لهُ الشاب سبعة
وعشرون مع سبع كم هو فقال لهُ الكهل هيه فأعاد عليهِ السؤال فأجابهُ بالجواب الاول
ثم اعادا ذلك ثالثًا ايضًا فقال حينئذ الشاب هي سبعة وعشرون فقال لهُ صاحبهُ هيه
ايضًا وانفصلوا على ان ذلك هو الحساب وعلى ذلك فقس فلا تكاد تجد من عامتهم من يصلح
للخطاب في البديهيات وانما لخواصهم بعض من الآداب التي ينتفع بها الضروريات غير
ان حفظ الحريم والبنات من صغرهنّ فلهم فيهِ مبالغة كلية بحيث لا يمكن ان يرى الرائي
امرأة ولو معتجرة وما اصبر نسائهم على الجلد في التخدر فقد كان رئيس الجمّالين في
قافلتنا استصحب معهُ عيالهُ من مكة الى بلد الجديدة وكان مردفًا لها على جمل لهُ فكانت
من ساعة ظهورها الى ساعة دخولها لبيتها التي هي مدة تنيف عن ستة ايام وهي ملتحفة

بعباءة ثخينة من الصوف سوداء لا يظهر منها مقدار ظفر ولو من اصابع رجليها فضلاً
عن يديها او وجهها ليلاً ونهارًا لاتفارق حويّة البعير وعلى هذا النمط النسوة في المدن
فلم أرَ بالمدينة امرأة قط . واما مكة فكان بعض نسائها يخرجنَ لاداء مناسك الحج
لكنهنّ في غاية التستر بحيث لا يظهر منهنّ شيء وعادتهنّ في الجميع ان لا يخرجنَ الاّ
ليلاً مع شدة التستر بالخمار والتحاف وان اضطررنَ للخروج نهارًا فلا يمررنَ بالاسواق
ولا بالطرقات الكثيرة المرور وتوجد قبيلة تسكن في عوالي المدينة اي خارجها بقرب
من فنائها يسمون النخاولة وهاتهِ القبيلة اصلها من قوم قد تفرقوا في آفاق الارض وهم في
كل قطر مستقلون بأنفسهم لا يداخلون احدًا ولا يخالطون الناس الاّ في ضرورة البيع
والشراء ولهم في كل قطر لقب بحسب عرف اهلهِ فيقال لهم في بلاد الترك شنكانة وفي
تونس جمازية ويتبعون في كل جهة الصنائع الخسيسة مثل اصلاح اواني النحاس وصفائح
الخيل وقد اتخذوا في جهة المدينة صناعة خسيسة ايضًا ويتمذهبون بمذهب الشيعة على
دعواهم ويستحلون نكاح المتعة فاذا قدم بعض حجّاج الفرس ممن يرى مذهبهم يأوي
الى بيوتهم لقضاء الوطر بنكاح المتعة وامرهم في ذلك شهير وليس عليهِ نكير والامر لله
الذي اليهِ المصير

مطلب في التجارة بالحجاز

اعلم ان بلد جدة هي مرسى تجارية عظيمة لانها مركز للبضائع الهندية وغيرها من
البضائع في الاقطار الشرقية ومنها يرسل لبقية الممالك الاسلامية التي تجارها مسلمون وكذلك
لكثير من البلاد الاورباوية كما ان البضائع الاورباوية والبضائع الغربية من بلاد المسلمين
وكذلك بلاد الترك ومصر والشام يؤتى بها الى هناك وترسل الى الهند وغيره من الاقطار
الشرقية فبذلك كانت جدة مرسى تجارية كبرى فضلاً عما يدخل منها الى جزيرة العرب
على طريق البر سواء كان للحجاز او لغيرهِ من بقية الاقطار ومركز تجارة جزيرة العرب
هي مكة المشرفة فتأتيها البضائع من جدة وتوزع منها على القوافل الى سائر جهات جزيرة
العرب الاّ ما قرب من الجزيرة الى جهات اليمن التي بها مراسي تجارية مثل الحديدة وقليل
ما هي فكانت مكة حينئذٍ هي المعتبرة لتجارة العرب والتجار المعتبرون فيها اغلبهم هنود واما جدة
فتجارها من اجناس مختلفة وفي اسواق كل من هذين البلدين تقاسيم حسنة تجعل لكل

صنف من التجار جهة مخصوصة وتجارتهم غنيّة جداً واما المدينة المنورة فالتجارة فيها
مقصورة على اهلها غالباً فيؤتى اليها بالبضائع المحتاج اليها فيها وتباع لاهلها والقبائل تحمل
البضائع على قوافلهم الى مراكز القبائل والى جهات جزيرة العرب مع الامان على البضائع التي
يحملونها فالقافلة لها رئيس يكون ذا ثروة ولهُ كفال اغنياء في الجهات التي يذهب اليها
ويحمل منها فتسلم اليهِ البضائع والمكاتيب البريديَّة ويبلغها بامان الى اصحابها وان حصل
ضياع لشيءٍ منها ولو بتعدي بعض القبائل بالاغارة فكفلاؤهُ يؤدون لاصحاب البضائع
جميع ما يضيع لهم ومن اهم انواع التجارة التجارة في المأكولات من الحبوب كالقمح
والشعير وقد علمت ان البريد موكول الى هولاء القوافل التجاريَّة فامرهُ غير منتظم كما
انهُ غير محتاج اليهِ في اغلب تلك الجهات غير انهُ يوجد بين مكة وجدة بريداً منتظماً
يومياً صباحاً ومساء يحمل على الحمير السيَّارة فيصل في نحو تسع ساعات كما انهُ يوجد في
مكة مركز للتلغراف اي السلك الكهربائي ويصل الى جدة ومنها يتصل بجميع العالم كما
انهُ يوجد بريد منتظم في كل شهر مرة بين مكة والمدينة الَّا ان يكون امراً مستعجلاً
فيرسل مع سيَّار مخصوص وهذا البريد كلهُ ما عدا اصحاب القوافل مرتب من الحكومة
والمباشرون لهُ من قبائل الاعراب الساكنون في اماكن مروره وفي كل سنة في موسم الحج
تروج التجارة في مكة لان اغلب الحجاج يشترون منها البضائع التي لا تعلم في بلادهم مما
على وجه التجارة فيها وهو القليل او على وجه الاهداء الى اقاربهم واحبابهم وكذلك تروج
التجارة بالمدينة المنورة لان سكانها يأتيهم في ذلك الوقت واردهم المالي اما من اموالهم
في بلدانهم او من الهدايا التي ترسل من الآفاق او من الاوقاف والارصادات المعينة
لذلك في بعض الجهات وهاتهِ الجهات هي الدولة العثمانيَّة وهي الركن في ذلك لانها ترسل
في كل عام للقيام بشعائر الحرمين الشريفين ولمرتبات المجاورين واهل الوظائف ما يبلغ
مقدارهُ سنوياً نحو المائة الف ليرة اي مليونين ونصف فرنك وكذلك الحكومة المصريَّة
ترسل كل عام احدى وعشرين الف اردب من القمح مع اموال عيناً يبلغ مقدار جميعها
الى نحو العشرين الف ليرة اي نحو خمسمائة الف فرنك فضلاً عن قيامها بمدرستين كل
منها في احدى الحرمين لها اوقاف مخصوصة بمصر يرسل منها قدر كفاية القائمين هناك
في كل عام وكذلك القطر التونسي يرسل من اوقافهِ المعينة على الحرمين الفين ليرة في
كل سنة لكل حرم الف اي خمسة وعشرين الف فرنك فاهالي المدينة اذا فرقت عليهم
تلك الاموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون ترتبت عليهم في ضروريَّات اشتروها

نسيئة ثم يشترون كفايتهم للسنة القابلة اكلاً ولبساً وان فضل شيءٌ بعد ذلك ادخروهُ
لبقيَّة السنة فلذلك يحصل في ذلك الوقت رواج للتجارة وهذا بالنسبة لغير ذوي الثروة
منهم اما هولاء فهم على نسق غيرهم من ذوي الثروة وكذلك بعض قبائل الاعراب المقيمين
بين الحرمين لهم نصيب مما ترسلهُ الدولة والحكومة المصريَّة فيحصل منهم ايضاً رواج في
التجارة بما يشترونهُ من ضروريَّاتهم والحاصل ان التجارة المعتبرة مركزها هو جدة ادامها
الله بلد اسلام

مطلب في الصنائع

لا يخفى ان الصنائع شعبة من شعب التمدن فتتكاثر وتقل على حسب ما في المكان
التي هي بهِ من التمدن وحيث تطاول زمن بعد الخلافة عن الحجاز وتكاثر بعد عهدها
فيهِ الهرج وقل العمران وتغيرت طباع العرب السكان على حسب ما اشرنا اليهِ فلم يكن
الآن بالحجاز الَّا الصنائع الضروريَّة وبعض الحاجيَّة فاما الفلاحة فكادت ان تنعدم الى
ان صار اهل الحجاز عيال في قوتهم جميعهِ على ما يرد اليهم من خارج بلادهم الَّا ما ندر
والمسافر في تلك الاقطار لا يرى من الزراعة الَّا نزر يسير حول بعض البلدان لا يسد
من عوز مع ان عشر ما حول المدينة وحدها قد كان في خلافة سيدنا عمر يبلغ الى
اربعمائة الف اردب من الشعير وحدهِ فضلاً عن بقيَّة الجهات ولو جمع الآن حاصل جميع
ما بالحجاز لما بلغ الى عشر المعشار من ذلك المقدار وعلى نسبة من ذلك امر زراعة
الاشجار فانهُ يوجد بالطائف بساتين بها كثير من انواع الشجر الليمون والرمان والعنب
وغيرها من الفواكه المتعارفة كثيراً وغير هاتهِ البلد لا يوجد بها الَّا بعض شجيرات من
تلك الانواع لا تستحق الذكر وان كان حول المدينة بعض من البساتين لكنها ليست
على ما ينبغي الَّا النخيل فيوجد بها كثيراً كما يوجد بجهات اخرى حول المدن والقرى
وفيهِ انواع كثيرة جداً من انواع التمر منها الحسن للغاية ومنها دون ذلك وفيهِ بعض
تجارة سيما في موسم الحج لشراء الزائرين للتمر وحملهِ الى آفاقهم كل على قدر سعة حالهِ
تبركاً بذلك واما البقول فكادت ان لا يوجد منها الَّا النادر كالبصل وما شاكلهُ من
البقول المتعارفة الشهيرة وكذلك الازهار واما بقيَّة الصنائع فيوجد منها البناية والخياطة
والتجارة وبعض صنائع اخرى من الحاجيات كالسروج وحوايا الابل وغيرها مما يحتاج

اليهِ اكيدًا من غير تحسين والسبب في هذا الانحطاط في كل من الفلاحة وبقيَّة الصنائع هو اعتماد السكان اعني اغلبهم على المرتبات والجرايات من الدولة والاوقاف وتعويل الاعراب على مثل ذلك ايضاً لان الدولة جاعلة للقبائل جرايات سنويَّة من مال وحبوب للقوت ليقوموا بحفظ امن الطرق ومن الطبيعي ميل الانفس الى ما يرد بلا تعب فصاروا حينئذٍ عيالاً على تلك الواردات ونشأ عن ذلك اعتساف الاعراب بقطعهم للطرق وتعديهم على قوافل الحجاج اذا تأخرعنهم ذلك المرتب او شيءٌ منهُ حتى ان بعض المتوظفين الذين لهم يد في توزيع ذلك المال ربما تساهل في تنقيص شيء باولئك الاعراب من مرتباتهم فيثورون ويعثون في الارض بالفساد ونشا عن ذلك قلة الامن في جميع الجهات حتى ان المدينة المنوَّرة على صاحبها وآلهِ افضل الصلاة والسلام كثيرًا ما تبقى محصورة ويدافع عن اسوارها وابوابها من حصونها بالمدافع والطرق منقطعة عنها وتتضايق اهلها لقلة القوت والحبوب ويتطاول الاعراب على ما حولها من البساتين بالتخريب والفساد فاذا كان هذا حال المدينة فما بالك بغيرها الاَّ القرى التي هي لنفس القبائل ممَّا لا يزرع حولهُ الاَّ النخيل فلذلك ضعف الامن وقل العمران وجدبت الارض مع انها صالحة للزراعة وفيها عيون كثيرة احدثها المتقدمون في عصر الخلافة وما قرب منهُ وقد شاهدت في كل من بلدي الصفرا والجديدة عيناً غزيرة الماء عرضها ازيد من ذراع ونصف وعمقها ازيد من ثلاثة اذرع جارية في غاية العذوبة غير ان ماءها حارٌّ فاذا رفع في الاواني برد وصلح للشرب وهو صالح جدًّا للزراعة لكنهُ الآن ليس عليهِ الاَّ بعض نخيلات وباقيهِ يسيح على الارض الى ان يغور فيها وقد ذكر في خلاصة الوفاء في اخبار دار المصطفى صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم عيونًا وآبارًا كثيرة على ذلك النحو لم يبقَ الآن منها منتفعاً بهِ سوى ما ذكرناهُ وكذلك الغابات والآجام التي بقرب المدينة وغيرها كلها ذات اشجار مثمرة وغير مثمرة صالحة لاخذ الاخشاب للبناء وهي الآن مهملة ولا ينتفع اهالي البلدان الاَّ برقاب شجر النخل ممَّا حولهم وبقيَّة الخشب يؤتى بهِ اليهم من الهند وغيرهِ مع انهُ حولهم مبذول والمانع من الوصول اليهِ عدم الامن والجهل بكيفيَّة القطع هذا فضلاً عن الاراضي الخصبة الوسيعة الصالحة للزراعة واما بقيَّة النباتات فقد كان سيدنا عمر رضي الله عنهُ حمى في وادي القرى جهة تكفي اربعين الفاً من الخيل المسبلة للرعي فيها ثم زاد بعدهُ سيدنا عثمان ومن بعدهُ الى اضعاف ذلك المقدار فيا اسفا على الخوف في بلاد الامن وتلك العوائد وان كان القصد منها حسنةً فقد آلت الى سيئةٍ اذ لو انقطع عنهم ذلك المدد

ومن تجرأ على السبل عوقب وأُقيمت الشريعة حق القيام لاقبل السكان على العمران وكفى الله المؤمنين غوائل الطغيان وما الله بغافل عما يعملون

مطلب في المعارف

من البديهي ان الذي ذكرناهُ في الصنائع من جهة الرواج والكساد هو اساس ايضاً في المعارف فالمعارف الآن بالحجاز على غاية من الخمول وما يوجد منها انما هو محصور ومقصور على خصوص البلدين المكرمين فيوجد في كل منها بعض دروس في المسجدين المحترمين في بعض العلوم الدينيَّة وبعض وسائلها فيوجد من الوسائل قليل من دروس النحو والمعاني ومن المقاصد بعض دروس في التفسير والحديث والفقهِ على اختلاف مذاهبهِ وان يكن يوجد بكل من البلدين الاكرمين علماء اجلة لكنهم نبغوا في اقطار أُخرى ثم جاوروا الآن هناك الاَّ ما ندر من بعض الاهالي لذين تلقوا العلم هناك من العلماء الوافدين من الاقطار على احوال خصوصيَّة غير منتظمة ولا مفيدة للعموم وفي هاتهِ المدة الاخيرة أُنشأ بعض الهنود ذوي التوفيق بواسطة العالم الجليل الشيخ رحمة الله مؤلف كتاب اظهار الحق مدرسة بمكة المشرفة يقرأُ بها الشيخ المذكور ومن معهُ من العلماء المجاورين بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب وبعض علوم اخرى رياضيَّة وعلم التصوُّف ايضاً وبما ذكرناهُ بلغ السكان لاسيما الاعراب الى درجة عالية في الجهل وفساد الاخلاق غير ان لطف الله حف بما حدث منذ مدة قريبة من انتشار طريقة الشيخ السنوسي لذي كنا ذكرناهُ عند ذكرنا لرجوعي من فرانسا لان هذا الشيخ كان استقرَّ بمكة المشرفة وأنشأ في جبل ابي قبيس زاوية نشر فيها طريقتهُ فأنبثت في قبائل اولئك الاعراب حتى كادت ان لا توجد قبيلة الاَّ وفيها زاوية وشيخ يرشد الى الطريق فحصل في القبائل نوع من معرفة اصول الديانة الاسلاميَّة والفروض العينيَّة والمحرمات الذاتيَّة ودب في هؤلاء شيءٌ من صلاح الحال وان لم يكبحهم عن التعدي على عباد الله القاصدين لاحد الحرمين فيا اسفا على اهمال المعارف وضياعها في مكان ينبوع الحكمة وظهورها ولولا وجود افراد من اطباء الدولة الذين ترسلهم لاحد البلدين الاكرمين او البعض من الهنود العارفين بالطب على الطريقة القديمة لكن معرفتهم لذلك عن علم وتدريس للكتب على طريقة اخذ العلم حقيقة فلهم باع حسن في علاج الامراض ولولا هؤلاء لحرمت السكني في البلد التي

يفترض على عموم الامة تعميرها فان ابا حنيفة وغيرهُ من الائمة يقولون بحرمة سكنى البلاد التي لا طبيب بها وكل من المدينة المنوَّرة ومكة المشرفة يفترض حمايتها فكيف يسوغ اهمالها بأمر المعارف واهلها حتى تخلو من طبيب لولا أُولئك وانما قلت في اطباء الهند انهم عالمون بالطب على الطريقة العلميَّة احتراساً من المدجلين ممن يدعي هذا العلم مع جهلهِ المطبق بهِ المتكاثر ظهورهم بالبلدان التي لا تنتبه حكوماتها لمنعهم من ذلك التدجيل لانهم يضرون بجهلهم وقد شاهدت ذلك في نفس مكة عياناً حيث كنت مريضاً بابهام رجلي اليمنى حيث انقلب الظفر تدريجاً وغاص في اللحم واشتدَّ امرهُ حتى كاد يمنعني عن المشي وكان حصل لي مثل ذلك وانا بباريس فجيء لي بطبيب خاص بذلك النوع من الامراض وعالجني برفع الظفر بآلات وكيفيَّة في عملها لم يحصل لي منها شدة ألم وجعل تحت ظفري ورقة من الرصاص صفيقة لكيلا يغوص ثانياً وقطع الظفر الى محل التصاقهِ باللحم وعافاني الله بسبب ذلك فلما كنت بمكة وعاودني مثل ما وقع سابقاً وذكرت لبعض الحاضرين عندي ما كان وقع اخبرني بانهُ يوجد حكيم يفعل مثل ذلك فجيء بهِ اليَّ وكنت محترساً منهُ لكني رايت معهُ آلات للقطع وغيرهِ كثيرة متقنة وابتدأ في العمل من غير كثرة ألم فظننت انهُ عن علم فلم يفعل الاَّ قطع الظفر لكن عقبهُ ألم كدت معهُ ان لا استطيع المشي لولا لطف الله لانهُ اراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتنعت لانهُ ليس لهُ من العلم شيء سوى كونهِ حلاقاً حجاماً تعوَّد على فصد بعض الناس فامثال هذا يمنعون شرعاً عن مباشرة اعمالهم

ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

فاذا خلت البلاد عن حكماء عارفين بعلم الطب يضطر الناس الى هؤلاء الدجالين والحق ان امر المعارف مع كونهِ واجباً في كل صقع وبلاد فهو في الحرمين اشد تاكيداً وانَّا لله وانَّا اليهِ راجعون

مطلب في الاحكام

قد علمت مما مرَّ في مبحث السياسة الداخليَّة الأصول التي تجري عليها الاحكام وحاصلها ان سيادة الشريف امير الحجاز هو مرجع الحكم في قضايا الوقائع التي تقع بين القبائل وهو ايضاً مرجع الشكايا من مظالمهم فيحذر رؤساءهم ومشايخهم ويأمرهم بما يراهُ

وينفذ الحكم في الظالم بحسب اجتهادهِ هكذا الاصل ولكنهم الآن مستبدون باموره كل قبيلة لا تخضع الاَّ لمشائخها ورؤسائها مما يذكر في زمن الفترة وكلٌّ يحكم باجتهادهِ واستبدادهِ ولو في القصاص في الانفس واذا تعدت قبيلة على أُخرى كان الامر لمن هو اقوى فطاعتهم الآن لسيادة الامير انما هي ظاهريَّة وهو وان استطاع على اخضاعهم ولو بدون عساكر الدولة بل بمن ينضم اليهِ من بقيَّة القبائل لكنهُ لا يقتدر على تنفيذ ذلك لما مرَّ في احوال السياسة الداخليَّة كما يرجع الى سيادة الامير فصل المظالم في اهل مكة والوالي هو الذي يجلس الى فصل المظالم فيما يقع بين السكان في مكة ايضاً فكانها مشتركة بين الامير والوالي لكن الوالي ينفرد بسائر مظالم جدة. والمدينة المنوَّرة يجلس فيها المحافظ في مثل ما ذكرناهُ وفي كل بلد حاكم يلقب قائمقام يجري ما ذكر ايضاً في المسائل الخفيفة والمسائل الثقيلة ترفع الى الوالي بمكة او الى سيادة الشريف الامير والقبائل كلها مشايخها هم مرجع الحكم في سائر القضايا ثم ان كلاًّ من البلدين الاكرمين بها قاض هو مرجع الحكم في كافة النوازل الشخصيَّة يجريها بمقتضى الشريعة وفي كل من البلدين مفت حنفي يسترجعهُ الخصوم في احكام القاضي لكن القاضي ليس ملزوماً باتباع فتواهُ بل لايجري الاَّ ما يراهُ وان كان جاهلاً والمفتي عالماً ولا يخضع القاضي الاَّ لاوامر باب مشيخة الاسلام في تخت السلطنة ان اقتدر الخصم الى البلوغ اليهِ ولا يخفى ما في ذلك من المشقة لبعد الشقة كما يوجد في كل من البلدين الاكرمين محتسب لهُ النظر في امر المعاشات وقيم البيوعات وغش البائعين وخسران الكيل والميزان ويحكم في ذلك كلهِ بما يراهُ من الاجتهاد ولو بالضرب المبرح كما يوجد بهما مفتيات أُخر على بعض المذاهب الاخر يرجع اليهم اهالي ذلك المذهب في الاحوال الشخصيَّة ويفتونهم بحسب مذاهبهم وهؤلاء المفتيون كلهم يولون بأمر من الدولة العثمانيَّة

واما بقيَّة البلدان فجدة بها قاض يُولى مثل السابقين وغيرها من البلدان يولى فيها نائب عن القاضي يعينهُ قاضي مكة لاجراء الاحكام الشرعيَّة في البلد التي هو بها وبقيَّة الادارات والاحكام ترجع الى القائمقام او الشيخ وهو الذي يحكم بما يريد. والحاصل ان ادارة الاحكام بالحجاز لا زالت الى الآن على شبه من النمط القديم اعني انها ليس بها مجالس للاحكام العرفيَّة وغيرها من القوانين الجارية بالممالك العثمانيَّة الآن ويا ليت الامر يجري حقيقة على المنهج الذي سلكهُ الخلفاء الراشدون كيف وهو مكان ظهور الشريعة واقامة العدل وتأسيس التمدن الحقيقي الصالح لاستقامة الدنيا والآخرة والامر لله وحدهُ لارب سواهُ

مطلب في هيئة المساكن

المساكن بالحجاز تختلف بين حالها بالمدن وحالها بالقرى فاما المدن فالديار بها هي شبيهة بالنوع الذي ذكرناهُ في مصر غير انها في مكة تكثر طبقاتها حتى انها ربما بلغت الى الست طبقات كل منها مستكمل اللوازم لا يحتاج الى غيرهِ في السكنى والطبقة الارضيَّة لا يعتنى بها للسكنى وانما هي للمرافق وجلوس الرجال بخلاف المدينة المنوَّرة فان دورها كل منها بها طبقة ارضيَّة يسكن فيها في الصيف لانها ابرد من العلوية غير ان المبيت بكل منها يكون غالبًا في الصيف في السطوح التي يجعل لها حرم كاف لوقاية السكان من السقوط والابنية كلها لا تجصص حيطانها الَّا في بعض الديار الحسنة لاهل الثروة فانها تجصص وتبيض حيطانها وتدهن سقوفها التي تجعل من عيدان النخل ويجعل عليها من اسفل ألواح لاصقة منظمة ويعلق فيها ثريَّات . واما بقيَّة الديار وسائر الابنية فان الحيطان يسد فيها ما بين الاحجار بطين البناء المركب من الجير والطين ثم تبيض بماء الجير والسقوف تكون من عيدان النخل مكشوفة للرائي وفوقها حصير من انواع الحلفا وفوقهُ التراب وليس في الحجرات بلاط ولا غيرهُ بل الارض تكون ترابًا عليها الحصير او الزرابي (الابسطة) الَّا المدينة المنوَّرة فان الطبقة الارضيَّة مبلطة بأنواع من الاحجار الشبيهة بالمرمر والدرج في كل غير محسنه متعبة الَّا نادرًا وديار مكة لا سيما المعدة للاجرة كل طبقة منها لا يوجد فيها مطبخ وانما يطبخ اهلها باحدى حجراتها بالفحم او الحطب نادرًا لاحضار مياه الاغتسال في الشتاء واما في الصيف فلا يسخنون الماء للاستغناء عنهُ ولهذا لا يوجد في كل من مكة والمدينة الَّا حمَّامان بكل منها لان السكان يغتسلون في ديارهم غالبًا وهكذا بقيَّة البلدان ليس بها حمَّامات ومفروشات الديار على النحو الذي هو جارٍ بمصر وغيرها من التشبه بالمفروشات التركيَّة والاوروباويَّة ومن غريب صناعتهم المغالق التي تقفل بها الابواب فان المفاتيح نحو عود مستطيل في آخرهِ اسنان تدخل في ثقب في المغلاق وترفع الى فوق ويجذب المغلاق بعجلة اذ ذاك فينفتح ولا ريب انهُ سهل السرقة اذ تقليد المفاتيح على ذلك النحو يسير لكن الامر الفظيع هو ان تلك المغاليق على شكل الصليب وقد رأيت على باب الحجرة النبويَّة مغلاقًا من تلك المغاليق وهو من ذهب تقشعر من رؤيتهِ الجلود وقد خاطبت من يقتدر على تغييرهِ فتعلل بان ذاك لا يخطر على فكر احد من الاهالي لجهلهم الصليب وبقي الحال على ما هو ولله الامر

هذا في المدن واما في بقيَّة البلاد الاخرى فكل دار تؤلف من طبقة واحدة الَّا نادرًا من طبقتين وهي في الحقيقة بيوت لا ديار والفرق بين الدار والبيت ان الدار هي المسكن الذي يشتمل على جميع المرافق المحتاج اليها وابواب حجراتهِ الى فسحة تكون في وسطها غالبًا مكشوفة الى السماء واما البيت فهي التي مثل ما ذكر غير انها لا فسحة بها مكشوفة اعني الفسحة التي فيها ابواب الحجرات وهذا هو الفرق اللغوي وان كان الاستعمال مختلف بحسب الاصطلاح في البلدان فالحجاز ومصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت وتونس والمغرب يطلقون على الكل ديار وهاتيك البيوت في القرى الحجازيَّة مظلمة غالبًا اذ لا يجعل لها شبابيك على الطرقات وليس بها فسحة مكشوفة فغاية الامر ان يجعل للحجرات منافذ للضوء بقرب السقوف احتراسًا من كشف النساء لانهم يشددون بحجبهن كما تقدم سابقًا فتلك البيوت شبيهة بالغيران ولا تبيض بالجير الَّا نادرًا ما عدا سطوحها التي هي على نحو سطوح المدن من الاتقان في تجصيصها لكيلا تخترقها الامطار فتكاد هاتهِ القرى ان لا تبين للناظرين الَّا اذا بلغوها خصوصًا التي هي في مرتفعات الجبال السود فانها لا تكاد تبين والحاصل ان الابنية على العموم نسبتها للتمدن كنسبة بقيَّة الصنائع التي مرَّ ذكرها في مطلبها غير انهُ يوجد في صناعة النجارة اتقان للرواشن وبعض الابواب والشبابيك على العموم اي الطواقي المطلة على الطرقات او غيرها لا يوجد بها زجاج يمنع دخول الريح الَّا نادرًا في بعض الديار المترفه اهلها ومن الغريب ان ترى البيوت مفروشة بالزرابي في مدة الصيف مع شدة الحر هناك فهم في الحقيقة غير مستعدين للتوقي منهُ الَّا اهل المدينة فانهم معدون الطبقات السفلى لذلك فيجعلون فيها بيتًا رحيبًا لهُ جهتان يمنى ويسرى مرتفعتا الارض عن الوسط الذي بهِ حوض الماء غالبًا وسقفهُ مكشوف الى السماء ينجذب منهُ الهواء الى اسفل ويكون الماء جاريًا الى ذلك الحوض ويجلس السكان باحدى الجهتين التي يجعل بها مساطب وارائك وكل تلك الطبقة مبلطة بنحو الرخام كما ذكرنا سابقًا وذلك مناسب لشدة الحر على خلاف من اهل مكة وغيرهم الذين ليس لهم مثل ذلك واما الطرقات على العموم بالبلدان وغيرها فهي طبيعيَّة ليس بها تحسين ولا صناعة وغاية الامر انها تكنس في المدن فهي نظيفة واغلبها ضيق حتى يكاد ان لا يمشي بعضها الَّا انسان واحد مع ان اصل الشريعة على خلاف ذلك * فان سيدنا عمر رضي الله عنهُ لما استشير في بناء بلد للصحابة والجيش الذي فتح الفرس لما استوخموا ارض فارس وامرهم باختيار ارض تشبه ارض العرب فاختاروا الكوفة فامرهم ببناء بلد بها وان تكون دورها لا تتجاوز الطبقتين

وان تكون طرقها العامة كل منها ثلاثة عشر ذراعاً والطرق الخاصة سبعة اذرع عرضاً والبطحاء التي تكون امام المسجد ستون ذراعاً في ستين وهذا هو الاصل الذي يستند اليهِ المذهب الحنفي في ذلك فانظر كيف كانت حالة البلدان في صدر الاسلام ويؤيد هذا ان بئر حا التي هي بستان كان لابي طلحة الانصاري رضي الله عنهُ قد كان في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم تجاه المسجد النبوي كما هو مذكور في صحيح البخاري رضي الله عنهُ فاين هو الآن من المسجد النبوي اذ بينهما الآن ابنية وديار وطرقات واسوار وغير ذلك فيا اسفاعلى وقوع مثل هذا التغيير المخالف للشريعة المكدر للتمدن ومصالح الناس حقيقة فليس توسيع الطرق وتنظيفها من تقليد الافرنج كما يدعيهِ الجهلاء بل هو من شريعتنا التي تنوسي الالتفات لمثل ذلك فيها وحيث كانت الطرق على نحو ما مر ذكرهُ يكثر فيها الوحل زمن المطر غير انها تنور ليلاً من قبل الحكومة بفوانيس من القصدير والزجاج تعلق في الحيطان او سقوف الاسواق لان كل صناعة لها سوق يخصها وبعض هاته الاسواق بل اكثرها مسقوف بالالواح على نحو ما ذكرنا في اسواق تونس والحوانيت هيئتها ايضاً على ذلك النحو وليس للديار جنائن ولا بطحاآت خاصة وانما ابوابها في الطريق تفتح الى سقائفها المختلفة كبرًا وصغرًا واما الطرقات خارج البلدان فهي على طبيعتها الاصلية واغلب الطرق بين مكة والمدينة صالحة لمشي العجلات وتمر فيها المدافع الآن وهي مثل العجلات وكذلك الطريق بين جدة ومكة فيا ليت شعري اي مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فاني لم أرَ الاّ عجلة واحدة لوالي الحجاز بمكة وقالوا انهُ ليس بها غيرها ورأيت بالمدينة عجلة قيل انها لركوب بعض المرضى هي اشبه شيء بعجلات حمل السلع ملقاة في الطريق وكأن امر الامن هو الاساس

مطلب في اللبس وبقيَّة العادات

اما اللبس الرسمي فهو كاللبس بالدولة العثمانيَّة الذي تقدم مثلهُ في مصر وكذلك لبس الرجال هو مثل لبس اهل مصر والاعيان يلبسون جبة واسعة الاكمام كعلماء مصر الاَّ انها لها رقبة مرتفعة خصوصاً للسادة الاشراف ويجعلون على رؤوسهم كوفيَّة مطرزة بالحرير على اشكال حسنة بديعة تكون مكشوفة الوسط وعليها عمامة مكورة عظيمة يشدونها شدًّا محكمًا جميلاً وهي بيضاء . واما الاشراف في القبائل فيجعلون على رؤوسهم

منديلاً من الحرير ملوَّنًا وعليهِ عوض العمامة عقال من وبر الابل مقصب بخيوط الفضة المذهبة ولكل واحد منهم مطلقاً في البلدان او القبائل خنجر يجعلهُ في حزامهِ في وسطهِ من امام وكانها هي علامة الشرف مع لبسهم لعباءة يمانيَّة او عراقيَّة مقصبة بالذهب ونحوهم في هذا سائر الاعيان من القبائل وبقيتهم يلبسون عباءة على قميص ويتمنطقون على القميص بمنديل او غيرهِ وكثير منهم يعلق على جنبهِ خنجرًا والكل يلبسون في الارجل النعال الحجازيَّة ذات الشرطان التي تدخل بين الاصابع وتختلف جودة ورداءة على حسب ثروة اللابس وربما تدثر بعض اهل البلدان بالجبائب ذات الفراء المعروفة بالكرك ولبس نسائهم سراويل من نسيج الحرير او المقصب بالذهب بحيث انهنَّ يتنافسنَ في صنعهِ على حسب الثروة والمكان والزمان للابسهِ ومثل السراويل فيما ذكر منتان يفتح صدرهُ ويغلق ذو اكمام ضيقة لا تبلغ المرفقين وفوق الجميع نحو عباءة من المنسوجات الثمينة مشقوقة الى السرَّة من اعلا بلا اكمام واسعة جدًّا حتى انها تغطي اصابع الكف وان كان لها ثقوب في محل الاكمام تخرج منها الايدي وعلى رؤوسهنَّ نحو المناديل من منسوجات صفيقة يحيطون باطرافها شريطًا مكعبًا بخيوط الفضة او الحرير على حسب الاحوال وفي ارجلهنَّ احذية من نوع البشامق التونسيَّة واذا خرجنَ من البيوت زدن على ذلك خفًا من الجلد الاصفر مع رداء واسع جدًّا ذي اكمام ساتر للاصابع وخمار مسدل الى السرة مثقوب جهة العينين ويلبسن ايضاً المصوغ بانواعهِ كلها . واما الاكل فانهم يجلسون لهُ على الارض ويوضع على الخيوان وهو مثل ما تقدم في اكل اهل مصر غير انهُ اكثر اداماً من السمن واكثر ابهرة والاعراب اكثر اكلهم الارز مع العدس ولا ياكل الجميع لحم البقر الاَّ نادرًا بحيث يستعير بهِ الاعيان في المدن وياكلون الجمل بكثرة ويبخرون الماء بالمصطكي او بعود القرنفل ثم يجعلونهُ في اواني ويضعونها في ممر الريح لاكتساب البرودة

واما المواكب فأعظمها موكب الحج وقد تقدَّم الكلام عليهِ ولاهل مكة موكب يسمى الرجبيَّة يسافر به ذوو اليسر الى زيارة النبي عليهِ وعلى آلهِ اكمل الصلاة وازكى السلام ويحصل من ذلك في المدينة المنورة موكب حافل في رجب ولكثرة اسراف اهل مكة في حجهم والتباهي بينهم فيما يفعلونهُ فيهِ يضطرُّ بعضهم الى تأخير فرضهِ الى ان يبلغ سن الشيخوخة خشية المعرة من كونهِ لم يفعل تلك العادات الاسرافيَّة في الرحل والمركب والخيام والمآكل واما الاعراس فهي اقرب عندهم الى الطريقة المشروعة

من جهة عدم وجود المغنيات جهرة والملاهي الاّ الدفوف وشيءٌ من غيرها مع حفظ التستر في النساء ولاهل المدينة عادة وهي ان الرجل اذا تزوج ببكر ودخل بها فلا يخرج من بيته اسبوعاً تاماً الاّ انهُ يجتمع باحبائهِ في بيتهِ وان خرج يوماً ولو للصلاة استاء اهل المرأة لان ذلك دليل على انها غير مستحسنة عند زوجها واما الثيب فلا يعتبرون ذلك فيها . واما المآتم فهي على الوجه المشروع من اكثر وجوهها فلا عياط ولا زياط ولا قراءة بالطرقات ولا ولائم من صاحب المأتم وانما يفعلون في ذلك ما هو المشروع في السنة اجرى الله احوالنا واحوالهم جميعاً على الوجوه المشروعة

مطلب في اللغة

لا يخفى ان الحجاز هو ميدان بلاغة العرب ومجال تسابق فرسان الكلام لكن ذلك كلهُ قد انعكس على ضدهِ فلا تكاد تجد متكلماً باللغة العربيَّة المعربة حيث دخلت العبارات العجميَّة بين القوم منذ تغلب الاعجام على الدولة الاسلاميَّة لان الناس على مذهب امرائهم فيقلدون الغالب والقوي حتى في نحلتهِ وكلامهِ وما كفى ذلك في ادخال المفردات الاعجميَّة حتى سرى الامر الى اللحن في الاعراب كما هو مقرر من قديم حيث ذكروا في سبب وضع علم النحو سماع سيدنا علي عليهِ السلام للحن في الكلام فاشار بوضع ذلك العلم ومن البديهي ان الامر يتفاقم بطول المدة وشدة الاسباب ففي ذلك الوقت لم يكن الاّ اختلاط الامة بامم اخرى ثم ازداد بعد ذلك بتمكن الاعاجم من الدولة ففسدت اللغة في الحجاز فساداً كلياً حتى لم يبقَ من يكتب كتابة مستقيمة في الاعراب والالفاظ الاّ النادر ممن هم اهل علم وربما اضطروا الى كتابة كثير من المفردات الاعجميَّة لشهرتها وتعارفها وهجران ما يرادفها من اصل العربيَّة وسبحان مقلب الاحوال وهو لا يتغير ولا يزال

الباب العاشر

في المملكة العثمانيَّة

(تنبيه) * لما كانت هاتهِ المملكة ليست كسائر الممالك التي مرَّ الكلام عليها لا من جهة الذات ولا من جهة المعنى اما الذات فانها مركبة من ممالك شتى كانت كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولا يزال كل منها لهُ صفات خاصة من جهة جغرافيتهِ وجنسيَّة اهلهِ وعوائدهم واخلاقهم وغير ذلك فيمتنع الكلام عليهم كلهم من هاتياك الجهات بصفة واحدة وان تكلمنا على كل واحدة منها بانفرادها ربما عدل الكلام فيها جميع ما تقدم وما يأتي في الممالك التي شاهدناها ولذلك راينا ان نتكلم عليها من الحيثيَّة التي يدل عليها اسمها وهو كونها مملكة عثمانيَّة اذ ليس هناك قطعة من الارض تسمى في الاصل بهذا الاسم وانما لكل منها باعتبار ذاتهِ اسم خاص والجامع بينها في هاتهِ التسمية انما هو كونها تحت سلطة دولة سلطانها من هاتهِ العائلة وهي العثمانيَّة اي المنسوبة الى عثمان الذي هو اول من تسلطن من العائلة وبقيت في ذريتهِ الى الآن هذا من جهة الذات واما الحامل على مخالفة ما سبق في مثلها من جهة المعنى فلصعوبة الامر او تعسره لان قول الحق صعب والكذب حرام ونحن وان كنا في هذا القطر السعيد بأمنهِ في ظل خديوينا المعظم التوفيقي لا زال قرة لاعين اهل الاسلام ولكل سكانهِ من الامن والحرية ما يسيغ لهُ ان يقول الحق ولا يخشى لومة لائم غير ان بعض مقتضيات الحال تستدعي الاقتصار في المقال فلا مخلص في الكلام على هاتهِ المملكة العثمانيَّة الاّ الاقتصار على الاجمال على حسب ما تسيغهُ الاحوال الى ان ييسر الله بفضلهِ افراد هاتهِ المملكة بتأليف خاص يحتوي على التفاصيل في الحقير والجليل ورحمتهُ تعالى قريبة لا يعزب عن امره شيءٌ وهو على كل شيءٍ قدير

فصل في سفري اليها

قد تقدَّم انا ركبنا من مرسى ينبع في رجوعنا من الحج وقد كان ركوبنا في باخرة نمساويَّة من اجمل البواخر البريديَّة السيَّارة بين الهند واوربا فاجتازت بجدة وحملت منها ذلك الطود الشهير ذا النسب الخطير والحسب المنير السيد سلمان القادري حفيد قطب الاقطاب الاكبر مولانا سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنهم وهو نقيب اشراف

بغداد ايضاً واكبر عائلته وكان حاجّاً في ذلك العام فمن الله تعالى عليَّ برفقتهِ عند ما
اجتازت الباخرة بمرسى ينبع وركب في الباخرة ايضاً بعض من الحجاج الترك العثمانيين
والروسيين غير انهُ لم يركب في الطبقة الاولى سوى السيد وبرفقتهِ اخوهُ السيد احمد
وابن عمهِ السيد عبد القادر وجوار لهُ وبعض من الخدمة القائمين بين يديهِ لانهُ ابقاهُ
الله قد اتخذ في الحجرة الكبرى في الباخرة احدى زواياها واختص بها وفرش بها فرشاً
عربيَّة وكانت خدمتهُ هم القائمون بشؤونهِ زيادة عما يباشرهُ خدام الباخرة مثل كونهِ ياكل
منفرداً هو ومن معهُ على مائدتهِ الخاصة في الارض من خصوص طعامهِ الذي يطبخهُ
لهُ طباخهُ الخاص غير انهُ من مكارم اخلاقهِ كان يتحرى للاكل وقت اكل الرفقاء
بحيث كنَّا نتخاطب وكل منا على مائدتهِ حتى على الطعام الذي بين يدي كل منا اذ
كنت اجلس مع بقيَّة ركاب الطبقة الاولى أنا وتابعي في ذلك الايوان للفطور والعشاء
وسارت بنا الباخرة ثلاثة ايام فوصلنا جبل الطور ووقفنا هناك مدة الحمية وهي يومان
وانزل كل من كان بالباخرة الاَّ اصحاب الطبقة الاولى ومن انزل ابقى رحلهُ في الباخرة
الاَّ القدر الذي يحتاجون اليهِ واخبرونا عند صعودهم انهُ لم تحصل لهم مشقة لقلة الازدحام
وكان من هولاء الترك رجل من اهل بوسنه يعرف قليلاً من العربي حصلت بيني وبينهُ
مودة حتى استأذنت عليهِ رئيس الباخرة وأذن لهُ في الجلوس معي بايوان الطبقة الاولى
وهو جميل الاخلاق لهُ بعض مشاركة في النحو والفقه وقد ترجم يوماً بيني وبين احد
الترك الروسيين من اهل ولاية قازان وان كان تفهمهُ منهُ عسر جداً لان لغته مخالفة
للغة التركيَّة العثمانيَّة ولهُ بعض اطلاع على العربيَّة من جهة كونهِ قرأ بضاعة مزجاة في
الفقه فسألتهُ عن حالة المسلمين اهل بلدهِ من جهة الاحكام الروسيَّة فكان مآل كلامهِ
ان الروسيَّة لا زالت محترمة لهم في احوالهم الشخصيَّة ولا يتداخلون فيما شجر بينهم اذ
مرجعهم في ذلك الى حكام منهم وكأن هذا خاص باهل تلك الولاية التي صارت مع
الروسيَّة على توافق لطول عهد استيلائها عليهم ومحافظتهم على الشروط التي خضعوا بها اليها
لان الروسيَّة مجرية في الولايات التي استولت عليها في الحرب الاخيرة مع الدولة العثمانيَّة
ما هو جارٍ في بقيَّة ولاياتها والزمت جميع السكان من مسلمين وغيرهم بان يكون التعليم
بلغتها فقط لان اللغة هي التي توحد الجنسيَّة فاذا تنوسيت لغتهم صاروا روسيين حتى في
الجنسيَّة ثم انَّا وصلنا الى خليج السويس الموصل بين البحر الابيض والبحر الاحمر وهو
احدى مآثر هذا القرن لان السفن صارت تصل من شطوط المغرب في افريقيا الى

شطوط الصين والهند في ايام قليلة لا تتجاوز الشهر الى ابعدها بعد ان كانت يلزمها
عدة اشهر لانها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ثم تحيط بجميع قارة افريقية
بالبحر المحيط ثم بحر الهند فلعمري انها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم وان كانت فيها
مضرَّات سياسيَّة بالنسبة لكثير من المسلمين وقد روي ان عمرو بن العاص استأذن
سيدنا عمر بعد فتحهِ لمصر ليفتح خليجاً موصلاً ما بين البحرين ولعلهُ بهذا المكان الذي
هو عليهِ الآن لانهُ اصلح الاماكن لذلك حيث كانت بالوسط بحيرات عميقه مغنية عن
حفر خليج فيها . ثم ان سيدنا عمر سألهُ عن هذا الخليج الذي يراد فتحهُ هل يحصل بهِ
فصل بين ارض جزيرة العرب ومصر فاجابهُ بنعم فقال لا افصل بين ارض المسلمين
بالبحر . ويقال ان سيدنا علي رضي الله عنهُ قال للخليفة عند ما استشار كبار الصحابة
في ذلك انهُ اذا تمَّ ذلك الخليج تصير سفن الروم تضرب الى جده وغيرها من مراسي
بلاد العرب وليس للمسلمين سفن تعارضهم فيسهل عليهم غزو بلاد الاسلام ولذلك
كتب سيدنا عمر رضي الله عنهم اجمعين الى عاملهِ عمرو بن العاص بان يضرب عن
ذلك صفحاً ويمكن ان يكون الخليج في اصلهِ موجوداً في العهد القديم . ثم ان الرمال
تراكمت في احدى جهاتهِ على ما سيأتي ذكرهُ فسدت البحر وامتدَّ عرضها الى ان صارت
الارض واحدة ما عدا البحيرات التي في الوسط على سمة واحد التي ربما دلت على اتصال
البحر سابقاً . ويدل على هذا ان بعض المفسرين روى في تفسير قولهِ تعالى " حتى اذا
بلغا مجمع البحرين " في قصة موسى والخضر عليهما السلام ان بعض المؤرخين يقول ان
المراد بالبحرين هما بحر فارس والروم اما بحر الروم فهو معلوم واما بحر فارس المعروف
الآن فيستحيل ان يتصل ببحر الروم الذي هو البحر الابيض خصوصاً في هذا الزمن
القليل نسبيًّا من زمن موسى عليهِ السلام الى ما قبل البعثة المعروف فيهِ حالة الارض
على ما هي عليهِ الآن فلا يصح ذلك الكلام الاَّ اذا كان البحر الاحمر يطلق عليهِ بحر
فارس سابقاً لانهُ متصل بهِ وقريب منهُ جداً لانهما يلتقيان الآن في جزيرة العرب
اي شطوطها الجنوبيَّة فلا يبعد ان يكون الاسم يطلق سابقاً على الجميع سواءً. واتصال
البحر الاحمر ببحر الروم سهل جداً لما مرَّ بيانهُ ولما هو مشاهد بالفعل حيث اتصلا في
هذا الزمن وسبب هذا الاتصال هو ان رجلاً فرنساوياً يقال لهُ فردنان دي ليسبس
لهُ مهارة في الهندسة وهو من مشاهير قومهِ بدى لهُ يوماً امكان اتصال البحرين بهذا
الخليج واعانتهُ على مرغوبهِ دولتهُ لمآرب سياسيَّة في قرب الاتصال بالهند لعلهُ يمكن لها

يومًا ما اخذ الثار من الانكليز على نحو ما سبق في تاريخ الدولتين فساعفهم على قصدهم والي مصر اذ ذاك سعيد باشا ابن مُحَمَّد علي باشا وكان الانكليز من اشد المعارضين في ذلك سرًّا وكأن الاقدار تقول لهم (وعسى ان تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) فانهم حصلوا فيهِ على اكبر فائدة اذ صارت سفنهم هي اكثر السفن المارة بهِ مع تحصيلهم على مآرب اخرى سياسيَّة كتداخلهم في القطر المصري وغير ذلك زيادة عن كونهم صاروا هم المالكين للقسط الاوفر منهُ ومحصلين على ارباحهِ الباهرة وذلك لان فردنان دي ليسبس ألَّف جمعيَّة لذلك العمل وجعلت هاتهِ الجمعيَّة التي هو رئيسها رأس مال لمصاريف العمل وجعلتهُ على اوراق ذات أسهم تباع وتشترى لكل من اراد وكان للحكومة المصريَّة من تلك الاوراق ما مقدار قيمتهِ نحو المائة مليون فرنك وآل الامر بعد ذلك الى بيع اسماعيل باشا خديو مصر لاسهم حكومتهِ فاشترتها الدولة الانكليزيَّة .تمامًا زيادة عما اشترتهُ سابقًا ولا حقًا من الاسهم افذاذًا وصار دخل هاتيك السهام يوازي اصل قيمتها حتى صارت كل رقعة منها اصل سعرها خمسمائة فرنك تباع الآن بالفين وثلاثمائة فرنك او نحو ذلك لان تلك الجمعيَّة شرعت في العمل وتممتهُ بحفر خليج من البحر الاحمر بمحاذات مرسى السويس واوصلتهُ بالبحيرة الاولى ثم حفرت خليجًا بين هاتهِ البحيرة والبحيرة الثانية الى ان وصلت الى البحر الابيض وعند ما تم عملها عقد اسماعيل باشا خديو مصر لفتح هذا العمل الغريب موكبًا مشهودًا جعل بهِ القطر المصري كانهُ دار عرس واستدعى اليهِ ملوك اوربا كلهم لمشاهدة مرور اول باخرة تمر في ذلك الخليج وكذلك اعيان غيرهم من الاوربَاويين وكل من قدم منهم فمصاريفهُ مدة اقامتهِ بالقطر المصري على الحكومة المصريَّة ولهم ان يتفرجوا حيث شاؤُوا وقد ساح بعضهم حتى الى السودان مع القيام بكل منهم على حسب مقامهِ اعظم قيام ووفد عليهِ من ملوك اوربا العظام امبراطور النمسا وامبراطورة الفرنسيس اي زوجة الامبراطور وولي عهد كل من انكلترا والروسيا وبروسيا فضلاً عن بقيَّة الملوك المتوسطين والصغار وصرفت في ذلك كلهِ من الحكومة المصريَّة اموال تكاد ان لا تحصى تعاظمت بها ديونها وذلك كلهُ لمآرب سياسيَّة لم ينجح منها المقصود ونشأ عنها وحشة مع الدولة العثمانيَّة آلت الى الرضاء بعد صرف اموال باهظة ثم استقر عمل جمعيَّة الخليج على اقامة فعلاء ومراقبين على محافظة الخليج ويستخلص على كل سفينة تمر فيهِ مقدار معلوم من الاموال على حسب حمولتها ونوعها حربيَّة او تجاريَّة وفي رأس كل سنة تقسم الارباح على اصحاب الاسهم بعد

اخراج المصاريف المستمرة لان الخليج من جهة السويس لم تزل الرمال تنثال عليهِ منذ فتحهِ الى الآن لولا شدة العمل في رفع تلك الرمال ليلاً ونهارًا على مسافة طويلة تزيد عن العشرة اميال ومع ذلك كلهِ فقد شاهدت في الباخرة التي اجتزنا فيها ان سيرها كان بطيئًا جدًّا هناك وكذلك غيرها احتراسًا من الغرز في الرمل مع كثرة العلامات المجعولة في المياه لمحل المرور ومع ذلك كلهِ قد اصطدمت الباخرة في الرمل عدة مرار حتى اني خلت انهُ عمل لا يدوم لشدة التعب الذي شاهدتهُ من العملة في جلبهم للسفن والبواخر المصطدمة في الرمال حتى كانها تجر بالايدي مع كثرة ومداومة العمل بالآلات الرافعة للرمال ومع ذلك كلهِ لا تجتاز فيهِ الآ سفينة واحدة وفيهِ اماكن لوقوف السفن اذا كانت تعارضها سفينة اخرى اي احداها غادية والاخرى رائحة فتلك الاماكن وسيعة تمر بها السفينتان ولذلك يجعلون علامات على اعمدة مرتفعة في البر يمينًا وشمالاً ليدرك منها رئيس الباخرة ما يأمرهُ بهِ محافظو الخليج من الوقوف او المشي السريع او البطيء او غير ذلك ولذلك رأيت رئيس باخرتنا قد اخرج كتابًا فيهِ تلك العلامات وشرح المراد منها ليعمل بمقتضاها عند دخوله الى الخليج وبسبب ذلك كانت السفن لا تتحرك فيهِ ليلاً في تاريخ مرورنا وقد وقفنا مرة لمعارضة باخرة انكليزيَّة حربيَّة ذاهبة الى الهند حاملة للعساكر فلما مرت بنا خيل الينا انا راكبون في زورق مع انا راكبون في اعظم البواخر البريديَّة لكن عظم تلك الباخرة الحربيَّة التي هي من نوع الفرقطين خيل الينا ذلك فانها كانت ذات ثلاث طبقات من المدافع وحاملة لاربعة آلاف وخمسمائة عسكريًّا وكثير منهم معهم عيالهم وكانوا على همجيَّة فانهم لما رأَونا صاروا يصرخون ويضحكون ثم وصلنا الى مرسى الاسماعيليَّة التي هي بوسط الخليج وبقربها ينصب جسر يصل بين اسيا وافريقيا ولا ينصب الآ عند وجود المارين ويدفعون عليهِ خراجًا للحكومة المصريَّة وبتنا بالخليج ليلتين وفي صبيحة اليوم الثالث وصلنا الى بورت سعيد ووقفنا بضع ساعات وكان عمال الحكومة المصريَّة حارسون لباخرتنا لكيلا ينزل منها احد لانهم رسموا في ذلك التاريخ بان لا يدخل الى القطر المصري حاج الآ من هو من اهلهِ لانهُ كان كثير من المغاربة يدخلونهُ وهم فقراء فربما حملوا الاهالي والحكومة مصاريف لرجوعهم الى اوطانهم ولذلك اعلنوا بذلك التحجير ثم قفلنا من هناك الى ان وصلنا الى مرسى بيروت اعظم مراسي ولاية الشام المعروفة بسورية فطلب مديرو جمعيَّة تلك الباخرة من الركاب ان ينزل منهم الى تلك البلدة كل من كان قاصدًا القسطنطينيَّة وما حولها واما القاصدون بوسنه وهرسك وغيرها ممن تكون لهم

مرسى تريست طريقاً فانهم يبقون في الباخرة لانها قاصدة هناك توًا والذين ينزلون وكانت الباخرة تعهدت لهم بالوصول الى القسطنطينيَّة وما حولها فانهم ينتظرون هناك الى ان تأتيهم بعد خمسة ايام باخرة اخرى لجمعيَّة الباخرة الاولى وتحملهم الى مقاصدهم وكل من اراد من هولاء اخذ مصاريفهِ مدة انتظارهِ فلهُ ذلك يدفعها اليهِ القيمون بامر شركة تلك البواخر البريديَّة النمساوية المسماة بشركة لويد وقد اخذ منهم بالفعل كثير ممن نزل لكن بعد مشقة لعدم التفاهم حيث كان اغلبهم من الترك الروسيين الذين قل من يعرف لغتهم ولاستشاطة بعضهم في مقدار المصاريف التي طلبها مع ان اللجنة مقومة لاهل كل طبقة مقدارًا عن كل يوم لم اعلم ما هو لاني صرفت النظر عنهُ حيث كان النزول هناك من اعظم مرغوباتي لمزيد التأنس بذلك السيد الجليل القادري والتعرف بتلك البلاد

فنزلت هناك وكانت المرسى صعبة جدًا لبعد ارساء الباخرة عن الشط وركوبنا في زوارق مع هيجان البحر وبعد ان خلصنا رحلنا من الكمرك الذي لم نرَ من اهلهِ الَّا خيرًا دخلنا الى البلاد راجلين لقربها وعدم وجود ما يركب حول الكمرك فدلني رجل من المتشبثين بخدمة المسافرين على منزل للمسافرين قريب من جهة طريقنا كاشف على البحر فاذا هو منزل لاحد الافرنج مثل منازل اوربا المتوسطة الحسن واخذت بهِ بيتًا واسعة ذات حجرة للنوم والصناديق وحجرة للجلوس واغتسلت في حمّامهِ وبتنا تلك الليلة والاكل فيهِ حسن ومن غد شرعنا في زيارة بعض اعيان البلاد والتفرج على منازهها ومنافعها فاذا هي بلد جميلة الوضع في سفح جبل مطلة على البحر وحولها كثيب رمل وجبل لبنان بحيث ان حدودهُ منها على نحو ربع ساعة مجعول لهُ علامات ولهُ ادارة ممتازة كما سيأتي في محلهِ وواليهِ يسكن في الشتاء في بيروت وهو اذ ذاك رستم باشا وقد رايتهُ يومًا راجعًا من الجبل الى دارهِ متخذًا ابهة فاخرة في عجلة يجرها ثلاثة من الخيل العتاق وامامهُ فارس ووراءهُ اربعة من العساكر الخيالة متسلحين وبندقيَّة كل منهم حاملها في وجههِ وهذا الباشا هو شيخ مسن اصلهُ طلياني خدم الدولة العليَّة بنصح وشاخ في خدمتها وسمعت الثناء عليهِ في تلك البلد وغيرها من مسلمين وغيرهم غيور على الدولة محافظ على ناموسها ومصالحها ومن غريب ما سمعتهُ عنهُ انهُ كان مرة يتفقد في جهات ولايتهِ على ذلك الجبل فصادف انهُ يتفقد الجهة القريبة من طرابلس الشام ويصل الى تلك الجهة آخر النهار وليس بقربهِ مكان صالح للمبيت الَّا بلد طرابلس فارسل من صباح اليوم الى متصرفها اي حاكمها يعلمهُ بانهُ يبيت ضيفهُ وكان الوقت رمضان فعرضهُ آخر النهار ذلك المتصرف وعلماء البلد

ووجهاؤُها ثم دخلوا جميعًا الى دار المتصرف وجلسوا في ايوانها كلهم فدخل الخدمة باطباق المشروبات المبردة والحلويات وكان الغروب لم يقع وكان هو اي رستم باشا لا زال على دين نصرانيتهِ لكنهُ لما راى تلك الاطباق داخلة وعلماء البلد ووجهاؤُها جالسون اكفهرَّ وجههُ وقال للمتصرف ما هذا فاجابهُ بانهُ مشروبات مبردة فقال الباشا أليس هذا رمضان فتبسم المتصرف وقال تملقًا من غير ان يريد اظهار قصدهِ لمخالفة الدين نعم هو رمضان ولكن جنابكم مسافر وانا ايضًا مثلكم وها انا ابتدئ بذلك واخذ الكاس وشرب فاشتدَّ حنق الباشا عليهِ وخاطبهُ بشدة بما معناهُ انك ان كنت لم تراعِ ديانتك فانا يجب عليَّ ان اراعي دولتي ووظيفتي لاني متوظف ووزير لخليفة المسلمين وهذا المقام انما جاءني منهُ وهاتهِ البلاد بلاد مسلمين وهؤلاء الجمع مسلمون جاؤُني لاجل وظيفتي فهبني نصرانيًا فاني اذب على الشعائر الاسلاميَّة التي صرت بها انا من انا واقتدر بها على احتقارك وطردك ايضًا من هنا فاخرج حالاً حيث لم تراع سلطانك وامامك الذي هو خليفة المسلمين ولا اهل البلاد التي انت عليها ولا انا الذي تعدني ضيفًا فخرج المتصرف من المجلس وشكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا فقال لهم ما فعلت هذا لاشكر وانما هي واجباتي اديتها ولعمري ان مثل هذا الرجل يحق ان يستخدم ويا ليت متوظفي الدولة كلهم على نمطهِ كثر الله من المخلصين الناصحين امثالهِ ووفقهُ لسعادة الدارين . وحاصل وصف هاتهِ البلد هي انها بلد جميلة المنظر لان ديارها محسنة الحيطان من خارج وحسن اكثر طرقها غير ان بجانبي الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما اضرت بالمارين والبناء طينهُ مخلط بالجير فهو حسن المنظر ويقرب شكل الديار من ديار تونس غير انهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجًا مكشوفة في البطحاآت الخاصة بالديار وجعل في البلد طريق للعجلات وهذا الطريق واصل الى دمشق الشام جعلتهُ جمعيَّة افرنجيَّة منتظم السير في اوقات معلومة وكراء معين وتغير الخيل في مراكز معينة ليلاً ونهارًا وكنت اردت الذهاب فيهِ الى دمشق لكن قصر الوقت مع تعطل السير في الطريق لكثرة الثلوج منعني من ذلك

واعظم جوامع البلد الجامع المنسوب لسيدنا يحيى عليهِ السلام وهو جامع واسع نظيف وكذلك بقيَّة جوامعها نظيفة وحماماتها جميلة نظيفة جدًا متقنة التحسين بانواع المرمر وفوارات المياه وبها اسواق جميلة وان كانت صغيرة على نسبة البلاد لان البلد الاصليَّة صغيرة وكثر حولها البناء المتقن على اشكال شتى منها قصر بديع صالح للملوك

وحولهُ بستان موَّنق غاية التأْنيق فيهِ من المرمر في البناء والرخام وانواع المفروشات البديعة والاشجار وتقاسيم الماشي وهو لاحد الاهالي النصارى ذوي الثروة الكبيره التي حصلت لهُ من بعض خدمات لهُ عند خديو مصر السابق ثم استحصل على ان يكون قنصلاً للروسيا في بلدهِ وتوجد بيوت اخرى حسنة تقرب من ذلك كما توجد مدارس علمية اسسها القسوس من البورتيستانت الاميريكانيين ومن الجزويت الفرنساويين وقد اثرت هاتهِ المدارس تأثيرًا واسعًا في المعارف هناك فتقدمت النصارى سكان بيروت في التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربيَّة نحوًا ولغة وانشاء وفي معرفة بعض اللغات الاجنبيَّة واغلب مبادي الفنون الرياضيَّة حتى صاروا متاهلين للتقدم وتقلد الوظائف في بلادهم وغيرها ويحصلون ذلك في مدة قليلة لسهولة التعليم بالكتب التي اخترع بعضها نفس الاهالي وغيرها غير ان انشاءهم بالعربيَّة يكون غالبًا على غير اللهجة الفصيحة والاسلوب العربي القح لان غالب التلامذة يولعون باللغات الاجنبيَّة فينسجون كتاباتهم العربيَّة على منوال تلك اللغات فيصير السبك اعجميًا في قوالب عربيَّة يمجها من ذاق طعم البلاغة ودونك ما كنت رايتهُ من رسالة لاحد برعاء ذلك الوطن وهو البارع المتفنن رشيد الدحداح كتب بها في ذلك المعنى نص محل الحاجة منها بعد ان ذكر ما طرأ على اللغة العربيَّة الشريفة وما حصل لها من التغيير بالاساليب الاعجميَّة الى ان قال" وكذلك لاجل تحبيب الفرنسيس المسلمين يجب ترويج لسان العرب باللغة الفرنساويَّة حتى تصير لباسًا لهُ ويصير لباسًا لها فيبدأُ بتبديل الاسماء فيجعل اسم المعلم ميخائيل ميشال افندي ويبدل مريم بماريا واذا كتب رسالة قلب رجلاً على قدم. وتناول ريشة عوض القلم. وقال اخذت الحريَّة لاكتب لكم اوعندي الشرف ان اخبركم اني قبلت رسالتكم المكرمة وبالطبع صرت ممنونًا لما تضمنتهُ من الاحساسات الوديَّة. والشعائر الوطنية. ورايتها ملهومة من روح الصداقة . وراغبة في دوام العلاقة. واخذت الاحتياطات اللازمة لادخالها في اعمدة الجرائد ليس فقط لاجل مسرتكم بل بالسبب الاقوى لاجل مصلحتنا ولكن من سوء البخت مراعاة الظروف توجبنا على نوع ما ان نتخذ التمهل بالعمل الى فرصة وفوق كل شيء لانهُ الآن حاصل هنا افكار واستعدادات حريَّة واما عاملو الالقاب فبالضد ومع الاعتبار يقدم لكم الشكر ويهدي لكم السلام حبكم فلان وقس على ذلك الف داهية. من التعبيرات الواهية. التي هي بالمقت حريَّة والتي في اعجميتها سرف. كعندي الشرف. وما هو احط من السفالة. كقبول الرسالة. وآلم من الصفع. كطبيعيًا وبالطبع . وامر من ريب

المنون. كالممنون. واسمج من الخسائر. كهذا الاستعمال للروح والافكار والتقدم والاستعدادات والاحساسات والشعائر". الى ان قال" اما تشبثهم بمادة اخذ فداء اصفر وموت احمر ولو حرمت عليهم اليوم هذه المادة لكسروا الاقلام وعجزوا عن الكلام فتراهم يعبرون بها عن كل الافعال العربيَّة فيقولون اتخذ الباشا مادبة للقناصل واتخذ الملاطفة لهم واتخذوا الدعاء للدولة الى ان قال فيا للخسارة والاسف . على مرض اللغة واشرافها على التلف. فوأيم الله انهُ لصدع لا يلتئم . وجرح لا يلتحم" الى آخر ما اطال بهِ في تلك الرسالة المنشورة في جرائد عديدة عربية ومنها العدد ٩٥ من مرآة الشرق وهذا الكاتب وان كان من اهل لبنان البارعين في العربيَّة والفرنساويَّة لاقامتهِ بفرنسا وصيرورتهِ من اغنيائها لكنهُ استفاد من ذلك التعليم لان هذا التعليم شمل اهل لبنان ايضًا بفوائدهِ والحق يقال ان فوائدهُ جليلة لحسن التعليم وان اثر بعض تأثيرات سياسيَّة في جلب طباع سهل الطبيعة الى حب جنسيَّة المعلمين لكنهُ من حيث التعليم لهُ مزيَّة معتبرة تقدم بها النصارى هناك على المسلمين حتى تفطن في المدة الاخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك ووجدوا واليًا يمد اليهم يد المساعدة وهو مدحت باشا فعقد لهم جمعيَّة تسمى جمعيَّة المقاصد الخيريَّة ومكنها من الاوقاف التي في البلد وكانت استولت عليها ايدي الاغتصاب والمنافع الشخصيَّة فاستعانوا بها مع ما يوزعونهُ على اهل البلد من كل ذي حميَّة وعلى اباء التلامذة وانشأُوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكرهُ وكنت دخلت الى كِلاَ القسمين فرايت من تلامذتها ما يسر القلب ولعمري انها لمأْثرة جليلة تحق ان تذكر * وهذا الرجل وهو مدحت باشا هكذا دأْبهُ في كل ولاية وليها لا بد ان يترك فيها مأْثرة تذكر وان اعترى كثيرًا منها بعدهُ بعض الخلل الاَّ انها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة وهو في الحقيقة من افراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخها نصحًا وتدبيرًا وعملاً وعملهُ اكثر من قولهِ بحيث لا يجد القادح فيهِ قولاً لولا عجلة فيهِ كأَنهُ حملهُ عليها مداومة ما يشاهدهُ في وظائفهِ من التأْنيات والتسويف الذي يستعملهُ الرؤساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة والوقت لديهم ليس لهُ اعتبار فاداهُ ذلك الى انتهازهِ للفرص التي يجدها لاجرائهِ المصالح فعلا وجرأَهُ ذلك لما اوقعهُ اخيرًا فيما اداهُ الى الوقوع في حتفهِ رحمة الله عليهِ رحمة واسعة . وقد حصل من تلك الجمعيَّة فائدة لا تنكر في المعارف لاهل تلك البلاد وهي وان تأسست في جميع البلاد الشاميَّة لكنها كانت في بيروت اشد تقدمًا في المعارف حتى صارت هي اول البلاد الشاميَّة في المعارف على العموم وان كان لدمشق

مزيد التقدم في الفنون الشرعيَّة ثم ان اهالي بيروت وان كانوا قسمين مسلمين ونصارى لكنهم جميعاً في غاية الالفة بعضهم مع بعض وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن اخلاقهم وقد شاهدت من فضلاء القسمين ما اشكرهم عليهِ من محاسن الاخلاق والفرح بالضيف مثل الشيخ الدراكة البليغ البارع ابرهيم الاحدب ولهُ ديوان شعر شهير ومثل الاعيان الاجلاء حسين بيهم ونخري بك رئيس الجمعيَّة الخيريَّة وعبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون احدى الجرائد العربيَّة المتكاثرة في هاتهِ البلد لما في اهلها من التقدم الذي اشرنا اليهِ مع بعدها عن مراكز السياسة ومن اصحاب الجرائد الذين اجتمعت بهم هناك ايضاً البارع المجيد المتفنن سليم البستاني صاحب جريدة الجنة وجريدة الجنان وهو من النصارى اعيان البلاد وممن اجتمعت بهِ منهم ايضاً الوجهاء الاعيان ابرهيم اليازجي ابن الحسن الذكر المتفنن اللغوي البليغ ناصيف اليازجي صاحب المقامات الشهيرة ومنهم سليم ثابت وغيرهم ومنهم الكاتب البارع حسن الجابي وهو وان كان من اهالي دمشق الَّا اني اجتمعت بهِ في بيروت لانهُ قدم اليها صحبة والي الشام اذ ذاك مدحت باشا رحمهُ الله لانهُ كان من كتَّاب الولاية المجيدين عربيَّة وتركيَّة فاستصحبهُ الوالي لنصحهِ ونجابتهِ ثم ترقى بعد ذلك في خدمات الدولة العليَّة وكذلك اجتمعت بالوالي المشار اليهِ هناك لما لي معهُ من المعرفة السابقة في باريس ولاقيت عندهُ مرة النصوح رائف باشا متصرف بيروت اذ ذاك ولقد شاهدت من هؤلاء الجمع اكراماً يوجب عليَّ الثناء عليهم جازاهم الله عني كل خير واجل ما حصلت عليهِ في هاتهِ البلاد اخذي للاجازة في الطريقة القادريَّة من مولاي وسيدي السيد سلمان القادري ومثلهُ ابقاهُ الله من يجيز ويحافظ على شريعة جدهِ الاعلى عليهِ وعلى آلهِ الصلاة والسلام فانهُ عند ما اجازني قال لي ما معناهُ في امر الاذكار وآداب الطريقة ليست هي الَّا الشريعة نقف على ما ورد بهِ الشرع واعمل بهِ فهكذا يكون المرشدون وما اجازني بذلك الَّا بعد مزيد الالحاح تواضعاً منهُ ابقاهُ الله الى ان اتت ليلة سفري فساعفني برغوبي فودعتهُ وسافرت صبيحة تلك الليلة الى القسطنطينيَّة في احدى البواخر السابق ذكرها * فوقفت بنا بضع ساعات على ازمير التي هي قاعدة احدى ولايات الدولة ونزلت متفرجاً على مرساها وما حولها فاذا هي ذات مرسى جميل حصين صنعهُ احد الافرنج برخصة من الدولة وفيهِ بواخر جمة وتصل سكة الحديد الى رصيفهِ وهي ذات فرعين يمتدان الى داخل الولاية شرقاً وغرباً وحول المرسى قشلاقات عسكريَّة وبعض ديار للافرنج والطريق فيها واسع جميل وبقيَّة الطرقات والاسواق ضيقة عليها

آثار الهرم لان غالب الابنية من الاخشاب وقدم عهدها فلم ارَ ما يذكر الَّا كونها بلاد تجاريَّة لغنى الولاية بما منحها الله تعالى من كثرة الغلال والفواكه التي تحمل منها الى سائر الآفاق مثل التين المجفف وغيرهِ ثم مررنا على جزر كثيرة تابعة للدولة العليَّة ذات جمال باهر لكثرة اشجارها وجبالها الخضر المتعممة اذ ذاك بالثلج ومن اجملها جزيرة رودس وجزيرة استانكوي التي تشرح الخاطر بما كساها الله من حلل النبات والاشجار العظيمة ثم وصلنا الى جنه قلعة قبيل الغروب من اليوم الثاني وهي باب الخليج القسطنطيني والبلدة ليست بشيء يذكر سوى انها مقام حربي اذ حولها وامامها من الحصون والطوابي والاستحكامات ما يدهش الناظر وهي كثيرة ممتدة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهتهِ الى البحر الابيض التي هي ضيقة جداً لا تسع ازيد من مرور اربع بواخر جسيمة وتلك الحصون اكثرها لا يكاد يبين لتخالهِ وسط الجبال المحيطة بالجانبين وما يظهر منها تلوح منهُ مدافع ضخمة تكاد تخرق الجبال عند انطلاقها ولذلك يعد هذا المركز اعظم المراكز الحربيَّة تحصناً بحيث لا يمكن ان يجتازهُ مجتاز بغير رضاء صاحبهِ ولا تدخلهُ سفينة الآن ولو تجاريَّة الَّا بالاذن من موظفي الدولة هناك ولذلك وقفت الباخرة هناك لاخذ الاجازة وهي لا تطول مدتها الَّا نحو نصف ساعة في اثنائها طافت بنا القوارب من البياعين لسلع تلك البلاد والمأكولات والفواكه والذي يمكن ان يذكر من سلعها ليس هو الَّا الاباريق من طين مطلي بمعدن اخضر يصير بهِ الطين صقيلاً ويذهب باشكال وعلى نحو هاتهِ الاباريق اوان أُخر على اشكال مختلفة المياه ثم دخلنا الى بحر مرمره المتوسط بين فوهتي خليج الاستانة التي مر ذكر احداها التي على البحر الابيض والاخرى بجنب الاستانة على البحر الاسود فبقينا سائرين الى طلوع الفجر وما انفلق الصبح الَّا وقد بانت مآذن جوامع القسطنطينيَّة التي هي مثل غابة من النخيل وبينها قباب الجوامع الضخمة فارست الباخرة في داخل الخليج على مقربة من القنطرة الموصلة بين استانبول وغلطه وطافت بالباخرة القوارب لمن يكتري من الركاب وقوارب السلع ثم بعد هنيهة قدم اليَّ البعض من اصدقائي مع زورق مخصوص للوزير خير الدين باشا التونسي انزلوني فيهِ وتكفلت اتباعهم مع تابعي بانزال صناديقي فنزلت ضيفاً عند الوزير المذكور ثم بعد بضع ايام اكتريت داراً جميلة على الخليج وسكنت بها بعد ان اشتريت لها جميع مفروشاتها اللازمة واحضرت من الخدمة اللازمين والطباخ مقدار الحاجة واقمت ساكناً من صفر سنة ١٢٩٧ الى شعبان سنة ١٢٩٨ واحضرت اليَّ ابني البكر من

تونس وبقيت بالقسطنطينية مستريح الفكر والبدن متنعماً بهوائها الحسن متأنساً بالاصدقاء ذوي الوفاء الى ان حل بالوطن ما حل في سنة ثمانية من استيلاء الفرنساوبين عليهِ مما كنت بهِ انذرت ولم تفد النصيحة لغلبة الهواء والله يقضي ما اراد فذهبت الى ايطاليا لاخابر عائلتي في نقلتهم وبيع املاكي وفي اثناء ذلك ذهبت الى جنيف من مملكة سفيسرا فوضعت بها ابني في مكتب خصوصي ثم رجعت الى ايطاليا لاتمام ما ذكرناهُ ثم رجعت الى القسطنطينية بعد ان اعلمتني عائلتي بسفرها اليها فمررت على مملكة المانيا ثم النمسا ثم الرومانيا ثم الصرب والبلغار وسيأتي ذكر هاتهِ الممالك ان شاء الله كل منها منفردًا ببابهِ ثم رجعت الى القسطنطينية مقيماً فيها بعائلتي من اول سنة تسعة الى اول سنة اثنين وثلثمائة التي توجهت فيها الى مصر حيث لم اجد من الراحة الفكرية والبدنية ما يستقيم بهِ الحال وكذلك امر المال وان كانت الحضرة السلطانية تفضلت عليَّ بمرتب وكراء بيت لم يمكن استطرادهما لما في خزنة الدولة من التضايق المجحف حتى بالقيام بالضروريات الواجبة في اغلب الجهات نسأل الله تفريج الكربات

مطلب في صفة القسطنطينية

هاتهِ البلدة قديمة الانشاء وتأسست تختاً لمملكة الرومان المعروفين بالروم سابقاً على ما تقدم في تاريخ ايطاليا وسميت البلدة باسم احد ملوكهم ذوي الصيت المنتشر وهو قسطنطين المتولي سنة ٢٢٣ ميلادية واتخذ موقعها في اجمل مواقع الكرة الارضية في نصفها المعروف قديمًا وموقعها ايضاً احصن هاتيك المواقع لانها متحكمة بين البحر الاسود والبحر الابيض ويوصل بينهما الخليج الذي بوسطهِ بحر مرمرا وهذا الخليج بمكان البلدة يكتنفهُ جبال يميناً وشمالاً والجبال مكساة بحلل النبات الباهر في جميع الفصول وقد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج اما قسم منها فيفصل بينهُ وبين غيرهِ الخليج الكبير وهذا القسم هو المسمى باسكودار الواقع في قارة آسيا والقسمان الآخران يفصل بينهما فرع من هذا الخليج داخل في قارة اوربا الى ان يتصل بجدول يعرف بكاغدخانة فالقسم الشرقي من القسمين يسمى بغلطه والقسم الغربي يسمى باستانبول وقد كان في القديم محل البلدة مفصولاً عن بقية القارة بخليج واصل الى بحر مرمرا وهو قرب مقام سيدنا ابي ايوب الانصاري الآن فكانت جزيرة منفردة

وهذا القسم هو مقر البلاد الاصلية الذي يشتمل على مركز الادارة والاسواق وغير ذلك وحيث كانت البلد واقعة في عرض سبعة واربعين شمالي كان هواؤها يغلب عليهِ البرد وتنزل عليها الثلوج في كل سنة وربما جمد الخليج في بعض السنين فهي في جميع اوقاتها لها منظر منفرد في الارض لمن يراها داخلاً من الخليج حيث كان الخليج في الوسط وتحفهُ على جميع شطوطهِ الممتدة نحو ٢٢ ميلاً قصور ودساكر جميلة الصنع ذات ألوان لان البناء بالاخشاب ويدهن ظاهرًا وباطناً بألوان جميلة مع كثرة طاقاتهِ ويتخلل هذا البناء الصوامع المتناغية في الجو مع جودتها وتعدد ادوار مآذنها وبينها القباب الشاهقة ثم وراء هاتهِ البناآت على سفح الجبال البساتين والجنائن والاشجار الملتفة والعيون المتدفقة فتدهش رؤيتها ابصار الناظرين وتستمر البواخر خارقة لهذا الخليج في ذلك المنظر البديع مدة نحو ساعتين فلا ريب ان كانت هي سيدة البلدان السياسية خصوصاً ووضعها قد جاء على كل من قارتي اوربا وآسيا وعلى كل من البحرين الابيض والاسود ولهذا يسمونها في القديم بفاروق لفرقها بين البرين والبحرين لكن ذلك المنظر والجمال ينحط درجات عديدة اذا نزل قاصدها الى البر وتخلل بالمشي في شوارعها لان طرقاتها اغلبها ضيق ومباط بحجارات على اصل خلقتها مقلبة مكعبة تتعب الراكب والماشي وكثيرًا من الديار قد اخذ منهُ الهرم مأخذهُ خصوصاً في هذا الوقت الذي تفاقم فيهِ على اهلها الضيق المالي لان اهلها المسلمون وهم اكثر السكان اغلبهم لهُ جرايات ومرتبات بحيث ان اقاتتهم مناطة بالدولة التي ضاقت خزينتها عن القيام بشؤونها وبقيتهم ذوو صنائع خسيسة كسائقي العربات والنوتية وما شاكل ذلك والقليل النادر لهم تجارة على قدر الحاجة والتجارة المعتبرة انما هي بيد الافرنج او النصارى من رعية الدولة وكذلك اغلب الصنائع الضرورية والحاجية والتحسينية على كثرتها كلها بيد النصارى ايضاً الا ما ندر وكأن سبب ذلك هو اختصاص المسلمين قديمًا بالوظائف والرتب فانحصرت معيشة غيرهم فيما يجيدونهُ من صنائعهم وتجارتهم ولما انفتح الباب في الازمان المتأخرة شاركوا المسلمين في الوظائف وسابقوهم فيما كان خاصاً بهم لمد أيدي المساعدة لهم من الافرنج ودولهم الاجنبية فاتسعت معارفهم الرياضية واتقنت صنائعهم واتسعت تجارتهم وتقهقر المسلمون لوقوفهم فيما كانوا عليهِ بل لانحطاط درجة المعارف لديهم واعراضهم عن الصنائع وغيرها من اوجه التكسب لانحصار الامال في مجرد التوظف في الدولة ولهذا ترى البلاد ممتلأة بالقهاوي وبالقرائتخانات التي هي

قهاوي نظيفة ينتابها الوجهاء من الناس فلذلك صارت الديار الحسنة قليلة في هاتهِ البلد العظيمة التي يتجاوز سكانها المليون وربع واذا ضممت القرى التابعة لها في جوارها مثل بيوك آطه اي الجزيرة الكبيرة وغيرها من بقية الخليج يكون مجموع سكانها مليون ونصف على ما يقال حتى انها كانت هي اعظم البلاد المعروفة وسميت بالقسطنطينية العظمى والحاصل ان طرقها الآن التي لها نوع من الحسن هي طريق يبتدى من بطحاء في وسط استانبول تسمى بميدان السلطان احمد وفي وسطها مسلة من المسلات المصريَّة متناغية في الهواء فيمر الطريق على الباب العالي ثم على القنطرة الموصلة الى غلطه ثم يمر منها الى الطوبخانة على سمت نحو المستقيم وهكذا يمتد على ذلك النحو الى قبطاش وبشكطاش واورطه كوى ثم قورى شيشمه ثم ارنؤوط كوى ثم الى بيك ثم الى روم ايلي حصار ثم الى يني محله ثم الى طرابيا ثم الى بيوك دره ثم الى نهاية الخليج المسمى بروم ايلي قواغي جهة البحر الاسود والاماكن التي تقدمت اسماؤها كلها حارات مثل البلدان متصل بعضها ببعض ممتدة على طول الخليج وانما كان هذا الطريق محسنًا لان اغلب اماكنهِ بها بناآت للدولة او للسلاطين او ابنائهم او بناتهم او وزرائهم او امرائهم او لسفراء الدول الاجنبيَّة او للاغنياء من الافرنج والنصارى اتباع الدولة مع كون شركة افرنجية قد جعلت بذلك الطريق عجلات الترامواي برخصة من الدولة على شرط تحسينها للطريق وتوسعتها لهُ حتى لا يعارض مروره العجلات الاخر وهكذا يمتد هذا الطريق أيضًا بفرع آخر من البطحاء المذكورة ويمر على بطحاء السلطان بايزيد ثم على آق سراي ويمتد هكذا مستطيلا على نحو استقامة الى ان يصل الى آخر استانبول في باب ادرنه ويوجد طريق آخر على ذلك النحو يبتدي من غلطه امام القنطرة ويصعد في جبلها ويمر في بابوغلي التي هي حارة السفراء في الشتاء واما في المصيف فانهم يسكنون في الخليج ومثلهم بقية الاعيان وحسن طريق بابوغلي فائق على الكل لمزيد التحسين في الديار الحافة بجانبيهِ وقد احدثت طرق اخرى كثيرة على النوع المتعارف في اوروبا في جهات سراية بلدز ونيشان طاش الى ان تتصل بطريق بابوغلي لكن هاتهِ الطرق لم تنتظم الديار التي على حافتيها فاغلبها خالٍ عن البناء بالمرة ويمكن ان يقال ان البناآت الحسنة الموجودة في هاتهِ البلاد تكاد اصحابها ان لا يخرجون عن الاصناف الذين ذكرناهم وهذه البناآت قديمها كلهُ من اخشاب ذو طبقتين او ثلاث نادرًا وجديدها من بناء اغلبهُ بالطوب المطبوخ الاحمر او الحجارة والمرمر متقاربة الشكل الحسن منها حسن الظاهر والباطن

وصورتها ان يدخل من الباب الى دهليز فيهِ درج قليلة يصعد منها الى الطبقة الاولى التي هي ايوان مثل وسط الدار مسقوف مع بقيَّة بيوتها وفيهِ ابواب هاتيك البيوت التي هي مربعة او مستطيلة وفيهِ ايضًا نحو المقعدين يمينًا وشمالا في الغالب ثم تلك الدرج تنبعث صاعدة الى الطبقة العليا التي هي على نحو التي تحتها وتختلف اشكال الدرج في كونها ذات فرع واحد الى آخرها او ذات فرع وفرعين وكل دار تشتمل على عدة مراحيض جميلة الوضع نظيفة كل منها بهِ محل للوضوء ومحل لمنديله بحيث ان الوضوء في هاتهِ البلاد ايسر شيءٍ على صاحبهِ مع نظافة المكان والحق ان جميع الديار بل وجميع احوال السكان نظيفة للغاية كلٌ على حسب حالهِ عسرًا ويسرًا وقصور السلطنة ومساكن السلاطين قد اشتملت على اشكال البناآت المستحسنة في اكثر البلدان واعظمها بهجة ورونقًا قصر دولما بغجه الذي هو الآن قصر السلطنة الرسمي فانهُ لهُ باب عظيم ذو اتقان وتزويق بالذهب لم ارَ مثله قط ضخامة وزخرفة في جميع اوروبا وغيرها وهو يفتح الى بطحاء عظيمة امامهُ وفي مقابلتهِ جامع انيق لهُ باب مقابل ذو بهجة وقريب من باب القصر في الحسن باب ثان يفتح الى طريق بشكطاش وكلا البابين يدخل الى بطحاء عظيمة بها باب القصر الذي هو منقسم الى ثلاثة اقسام في الحجم متصلة ببعضها اوسطها ارتفاعهُ يوازي ارتفاع القسمين الآخرين مرتين وهذا القسم الوسط كلهُ ديوان واحد هو مجلس السلطان في المواكب فانظر الى هذا البيت الذي اتساعه قدر اتساع قصر تام سلطاني فان القسم الاول هو قصر ذو طبقتين وطبقة ثالثة سفليَّة نصفها تحت الارض ونصفها فوقها وتشتمل كل طبقة على دواوين واواوين وحجرات مزخرفة مكالة مزوقة بالذهب والفرش الفاخرة والثريات المتكاثرة وغير ذلك من الزخرفة والابهة التي تأنق فيها السلاطين للمباهاة وهذا القسم خاص بجلوس السلطان للرجال والقسم الثالث مثل هذا القسم وربما زاد عليهِ رونقًا في الفرش وهو مسكن حرم السلطان ثم عند الباب الاول في الذكر قصران يمينًا وشمالاً لحاشية السلطان وخاصتهِ وبطانتهِ ووراء قسم الحريم قصر آخر مفصول عن السابق مثل احد القسمين السابقين هو مسكن ولي العهد لكنهُ لا يلقب بهذا اللقب وانما يقال فيهِ اكبر ابناء السلاطين بعد السلطان المستولي وهاتهِ القصور انشاها السلطان المنعم عبد المجيد رحمهُ الله وتسمى دولما بغجه وقريب منهُ قصر آخر انشأهُ السلطان عبد العزيز يسمى تشارغان هو اشد رونقًا وزخرفة في داخلهِ من الاول لكن الاول ابهج منظرًا والجميع على

شاطيءِ الخليج تفتح اليهِ رواشينها المتكاثرة كما هو شان جميع الديار هناك فلا تجد بين الشباكين ازيد من نصف ذراع او ذراع وعلى نحو من هذين القصرين في قسم اسكودار قصر بناهُ السلطان محمود رحمهُ الله يسمى بكاربك وهو اصغر من الكل ثم قصر آخر بديع للغاية يسمى بيقوز حجارتهُ كلها داخلا وخارجًا من المرمر الاحمر والاخضر فنصفهُ الاعلى اخضر والاسفل احمر وهناك قصور أُخرى عديدة صغيرة دون هاتهِ الَّا القصر السلطاني الآن المسمى يلدز الذي هو في الاصل مثل هاتيك الصغيرة لكنهُ لما رجحهُ السلطان المعظم عبد الحميد للانفراد فيهِ والسكنى بهِ دائمًا تزايدت قصورهُ شيئًا فشيئًا حتى صار ابهى في الداخل من الكل وان كان من خارج لا يظهر منهُ الَّا القليل لوقوعهِ في وسط بستان متسع ملتف بالاشجار ومحيط بهِ اسوار ومساكن للعساكر على جميع محيطهِ

فصل

في مجمل تاريخ الدولة العثمانيَّة

اعلم ان الدولة العثمانيَّة كانت تأسست عند ما تفرقت الملوك الاسلاميَّة واستبد كل منهم بجهة مع الخروج عن العمل بالشرع بل اتبعوا الشهوات واسترقوا الرعيَّة وتصرفوا في الاموال بحسب الاغراض فضعفت شوكة الاسلام وصارت ممالكهم طعمة للاجانب فرحل من وراء النهر اي نهر سيحون ويعنون بما وراءهُ ما كان على عدوتهِ الشرقيَّة قبيلة من مسلمي الترك تحت رئاسة سليمان شاه جد عثمان خان ملتجئين الى السلطان السلجوقي لما شملهم من ظلم التتر فاظلهم بالامن واسكنهم ارضًا بالاناضول واذن لرئيسهم ارطغرل بعد وفاة ابيهِ سليمان شاه بالغزو حيث كانوا قومًا شدادا متمرنين على الحرب فافتتح بسيفهِ الباتر اراضي وبلدانًا وفوض امرها اليهِ السلطان السلجوقي والى ابنهِ عثمان من بعدهِ فتلقب بالسلطان عثمان وذلك في سنة ٦٩٩ وقد نظم الجد الشيخ محمد بيرم الثاني قصيدة تشتمل على انموذج من تاريخ هاتهِ الدولة مع اسماء سلاطينها ذكرناها هنا لا يفائها بالمقصود وسماها « عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان » وهي

اقدم قبل القصد شكرًا لمنعم ... علينا بما اربى على كل انعم
على عز هذا الدين والملة التي ... وان لحقت فازت بفضل التقدم
واتبعهُ ازكى الصلاة مسلمًا ... على اشرف المخلوق قدرا واعظم
نبي لهُ وصف النبوة ثابت ... وآدم بين الماء والطين فاعلم
محمد ﷺ من قد اظهر الله دينهُ ... بمكة ذي البيت العتيق المعظم
واعلاهُ بالانصار اذ حل طيبة ... فحيا بوجه مشرق ذي تبسم
وما زال محروس الجناب مؤيدًا ... بكل امام بالعلا ذي تهمم
محوطًا الى ان آل تدبير امرهِ ... وحفظ حماهِ بالخميس العرمرم
لحي حلال يعصم الناس امرهم ... اذا طرقت احدى الليالي بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبلهُ ... لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم
ملوك بني عثمان سلسلة العلا ... غصون نمت اذ فرعت عن غطمطم
فللهِ ما قد شيدوا من بنائهِ ... وما هدموا للكفر من كل معلم
لقد احكموا امر الجهاد بما اتوا ... باعظم صنع فيهِ من بعد اعظم
فكان لهم والله يكلأُ مجدهم ... بما فعلوا حق على كل مسلم
وقدرمت في ذا النظم جمع ملوكهم ... وبعض مزاياهم لتروى فتعلم
فأولهم (عثمان) باكورة العلا ... مذيق الردا من بأسهِ كل مجرم سنة ٦٩٩
لهُ فتحت برصا فاضحت سريرهم ... فكان لها في ذاك فضل التقدم
وثانيهم (ارخان) من قد اتت بهِ ... كريمة من صلب الولي المعظم سنة ٧٢٦
شجاعتهُ قد اظهرتها حروبهُ ... فعنهُ بما تختار فيها تكلم
وثالثهم من نال فضل شهادة ... (مراد) محلى القرن حمرة عندم سنة ٧٦١
فذاك الذي قد فض ختم ادرنة ... فذاقت بهِ برد الهنا والتنعم
ورابعهم شمس العلا (بايزيد) هم ... مواقفهُ في الحرب مرة مطعم سنة ٧٩١
لئن كان مع تيمور ما انفذ القضا ... فان ارتكاب الغدر منشا التثلم
ولا عجب للاسد ان ظفرت بها ... كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردا ... وحتف علي من حسام ابن ملجم
وخامسهم فخر الملوك (محمد) ... مجدد هذا الملك بعد التصرم سنة ٨١٦
وسادسهم ثاني (مراد) بمن رقى ... من العز مرقى لا ينال بسلم سنة ٨٢٤

تخلى عن الامر اختيارًا لشبله   وعاد لجبر الحال خوف تألم
وسابعهم فحل الفحول (محمد)   لهُ فتح اصطنبول اشرف مغنم سنة ٨٥٥
عقيلة عن صيد الملوك تمنعت   وكانهم سيف وصلها ذو تحم
لقد جاءها يختال في العز مودعًا   خبايا المنايا بين جيش عرمرم
لدى اسد شاكي السلاح مقذف   لهُ لبـد اظفاره لم تقلم
فدحرج عنها سيد الروم خاسئًا   لدى حيث القت رحلها ام قشعم
وحل بها لما تنادت جنوده   بتكبير منشي العالمين ومعدم
وقدوسم السيف المداني رؤوسهم   كأنهم قد خضبوها بعظلم
فما الحرب الاَّ ما رأوا من بلائهِ   وما هو عنها بالحديث المترجم
وثامنهم فرع لهُ (بايزيد) هم   ابو الجود ما ذا سد خلة معدم سنة ٨٨٦
وتاسعهم مفتاح فتح ممالك   غدت في جبين الدهر غرة ادهم
(سليم) الذي قدحل بالشاه بأسهُ   فادبر يطوي الارض من قرب جهضم سنة ٩١٨
ولاح بتبريز سناه فاصبحت   عروسًا تجلت في وشاح منمنم
ومذ برقت بالشام انوار برقهِ   دعتهُ دعاء البائس المتظلم
فسكن منها روعة بقدومهِ   وضمت عليهِ سورها ضم معصم
وواجه مصرًا بالاذى اذ تلكأت   فاجرى بها نيلاً تدفق بالدم
وقد غرها الغوري فغار بدابق   واقبل طومان كذيب لضيغم
فاصبح مصلوبًا بباب زويلة   يداس باقدام ويوطا بمنسم
ولم يبق من ابناء شركس ناعق   كانهم قد لامسوا عطر منشم
واضحى سليم للمقامين خادمًا   بذاك ينادي للسلاطين خدم
وعاشرهم ذو الرأي والبأس والندا   (سليمان) جراع العدا كاس علقم سنة ٩٢٦
قد انتظمت بغداد في سلك ملكه   فصار له امر العراقين ينتمي
وقد ظهرت آثاره لحديثها   حداة الورى تحدو بها كل موسم
فمنها ويا لله غزوة رودس   تغنى بها طير الفلا بترنم
وفي سكتوار بعد ان فتحت له   اجاب الى المولى بقلب مسلم
فلاحت بافق الملك طلعة شبله   (سليم) عظيم الملك فرع معظم سنة ٩٧٤
لهمتهِ العلياء قبرص اذعنت   تقابل مسعاهُ بوجهٍ مقسم

وفي يمن من بعد بدء فتوحهِ   لوالدهِ الارضي اتى بالمتمم
واحيا بهِ الرحمن تونس عند ما   غدت بعد عزٍ شامخ في تحطم
فشدَّ بضبعي سعدها فاقامهُ   وكان بقهر الاسر صاحب مجثم
ومن بعدهِ قد بايع الناس فرعهُ   (مرادًا) كريم النفس وابن مكرم سنة ٩٨٣
ويتلوهُ في دست الامامة شبلهُ   (محمد) مغضي الطرف عن فعل مأثم سنة ١٠٠٣
اقام على اغرى فابدى بافقها   سحائب حرب امطرت كل لهذم
وعفر للرحمن في الارض وجههُ   فآب بفتحٍ للطواغيت مرغم
وقام ابنهُ ذو الحسن (احمد) بعدهُ   يحيي ببدر تحت تاج منظم سنة ١٠١٢
ومن بعد هذا (مصطفى) بن محمد   اقيم ولكن عقدهُ غير مبرم سنة ١٠٢٦
فبويع (عثمان) بن احمد بعدهُ   وأنزل عن قربٍ لامر محتم سنة ١٠٢٨
وقد عاد بعد الخلع خاقان مصطفى   وأنزل بعد العود مثل المقدم سنة ١٠٣١
فجاء (مراد) نجل احمد بعدهُ   فكان كحلمٍ لاح اثر توهم سنة ١٠٣٢
اطل على دار السلام بجيشهِ   فأنقذها من رافضيٍ مذمم
وقد لبست ما زانها لمسرةٍ   والقت بما قد شان من ثوب مأتم
وعادت الى عاداتها دار سنة   تجرّرُ اذيال الهنا والتنعم
وقد قام (ابراهيم) وهو ابن احمد   فللّهِ من حزمٍ وحسن توسم سنة ١٠٤٩
بكندية منهُ وقد جاس ارضها   باسياف اجنادٍ لها نهشُ ارقم
اقاموهُ عن كرسيهِ وتقدموا   لمن هو في عهد الصبا والتعلم
(محمد) فرع منهُ فانصدع البنا   وهبَّ من الكفار كل تضرم سنة ١٠٥٨
ولكنهُ لما تكامل واستوى   بدا منهُ حزمٌ فاضح كل احزم
فتمم فتحًا سنهُ والدٌ لهُ   بكندية اعظم بهِ من متمم
وناهيك من فتحٍ يضيق بيانهُ   عن النظم فانظر في التواريخ تعلم
ومن بعد هذا تمَّ بالخلع امرهُ   فيالك من فعلٍ قبيحٍ مذمم
فقام (سليمان) اخوهُ مقامهُ   ولم يأل جهدًا في صلاح المحطم سنة ١٠٩٩
ومن بعدهِ قد قام (احمد) صنوهُ   فبانت جراحٌ لا تداوى بمرهم سنة ١١٠٢
واعقب هذا (مصطفى) بن محمد   واخر عما نالهُ من تقدم سنة ١١٠٦
فقام اخوهُ (احمد) بعد خلعهِ   وسلم لما شام برق التألم سنة ١١١٥

وقد فتحت تبريز قهرًا ومورة   بايامهِ وجه الزمان المطهم
فبويع للسلطان (محمود) بعدهُ   هو ابن اخيهِ مصطفى المتقدم سنة١١٤٣
سنه١١٦٨ ومن بعدهِ قدقام (عثمان) صنوه   ومن بعد هذا (مصطفى) ذوالتقدم سنة١١٧١
الى الموسقواذ وجه العزم نحوه   وجرد في حرب لهُ كل اصرم
ومن بعدهِ (عبد الحميد) امامنا   اخوهُ عظيم من عظيم مفخم سنة١١٨٧
ابان لهُ الله الهدى واناله   رشادًا وتسديدًا لدى كل مبهم
فهاك سلاطين الزمان جمعتهم   بنظمٍ كسمط باللآلي منظم
وعدتهم سبع وعشرون قد غدت   سماء العلا منهم تضيءُ بأنجم
ودولتهم خمس الهنيدات عمرت   وفي طول هذا العمر لم تك تهرم
وذا في ثمانٍ بعد تسعين ضمها   الى مائة من بعدها الالف تعلم
وناظمها العبد الفقير محمّد   اقل الورى المشهور فيهم ببيرم
يقول تادبني المعالي بقولها   اليك الذي قد قلت فيهم بهِ اختم
ايا دولةً اربت على كل سابق   عليها لعز الدين والملة اسلم
وقدسلمت حتى رأت في سريرها   هامًا بهِ الدين الحنيفي يحتمي
(سليم) ابن خاقان الخواقين مصطفى   لدينك يا مولاي صنهُ وسلم سنة ١٢٠٣
فلا زال منها قائمٌ اثر قائمٍ   الى زمن المهدي وعيسى بن مريم
يقول حفيد الشيخ قدس سرهُ   موافقهُ في الاسم لا في التعلم
لقد انجح الدعوى بفضل نوالهِ   كريم لهُ النعمى على كل مسلم
بتسليم هذا الامر لليث (مصطفى)   لعبد الحميد الفرد لقب بابنم سنة١٢٢٢
ولما قضى نحبًا قتيلاً من الاولى   اضاعوا التقى واستبدلوا الامن بالدم
تعالى الى دست الخلافة حازمًا   اخوهُ الرضى (محمود) خير ميمم سنة ١٢٢٣
لهُ صولة في الروسيا مع بغاتهِ   فارواهم ماء الردى والتقسم
ومن بعده قام ابنهُ من لمجدهم   غدى ينشر الاعلام فى كل معلم
ألا انهُ (عبد المجيد) وحيدهم   لهُ النصرة الغراء في كل معظم سنة١٢٥٥
بحرب القريم الخطب دام مصابرًا   فنال المنى من بعد طول تجهم
ونظم قانونًا الى الخير راشدًا   وتمم ما ابداهُ رأيه المقدم
فاصبح وجه للبسيطة مبهجًا   بما نالها من فرط عدل متمم

ومن بعد ذا وافى الى الدست ضيغم   لهُ مفخر اربى على كل ضيغم
فذاك الذي عم البسيطة عزه   وسلطانهُ فاق السوى بالتنظم
وان رمت عدًا للمآثر تكتفي   بذكر اسمهِ (عبدالعزيز) مترجم
لقد خضعت سود الجبال لعزمهِ   فاضحت لعز بالخلافة يأتمي
ومذ ارتقى فوق السرير تتوجت   بافعالهِ هام الزمان بانعم
لذاك تباشير الولاية ارخت   حسيبٌ بهِ الاسلام ما زال يحتمي سنة ١٢٧٧
ولكنما قد حل ما جلّ امرهُ   نخيف من الخطب العظيم المطهم
فتم باهل الحل والعقد خلعهُ   ونادوا بنجل للهام المقدم
(مراد) ولكن لم يطق عبء حملها   لاخلال شرط بالامامة مخرم سنة ١٢٩٣
فنادوا سراعًا مجمعين بامرهم   بمن يحسم الاهوال في كل معظم
الا انهُ ❁ عبد الحميد ❁ امامنا   عماد الورى والدين نجل المكرم
ماربى على كل الملوك مفاخرًا   تحلى بها الافاق في كل موسم
تلافى بحسن الرأي ماجل خطبهُ   بدس العدو الموسقو المذمم
فارجع قهرًا طاعة الصرب بوسنا   وهرسك بلغارا بنصر متمم
كذا الجبل المسودلان عربكة   بفتك وحلم ثم عاد لاعظم
فكان الى الروس الطغاة معاضدًا   وحل القضا اعظم به من محتم
وابقى اله العرش حوط الخلافة   بابقاء جيل للممالك محتمي
فاسدى لها سلطاننا فيض عدلهِ   باجرائهِ تأسيس عدل منظم
ولا زال يبدي كل يوم فضائلاً   تترجم عن شد النهى والتقدم
فنسأل من فيض الكريم لهُ حمى   بنصر لاعلام الخلافة مبرم
ودونك بشرى للولاية ارخت   مفتح ابواب الصفا والتقدم سنة١٢٩٣
وان رمت بشرى الحل تاريخها اذًا   لعبد الحميد العيد اسعد موسم سنة ١٢٩٧

فتضمنت قصيدة الجد المشار اليهِ عليهِ سحائب الرحمة تاريخ السلاطين الذين اولهم السلطان عثمان وآخرهم السلطان سليم ابن السلطان مصطفى كما تضمن تذيلنا تاريخهم من السلطان مصطفى الى سلطاننا الخاقان عبد الحميد ايدهُ الله وتبين مما سبق ان الدولة العليّة لم تزل منذ ستمائة سنة ولله الحمد قائمة معتبرة بين الامم غير انها منذ نحو مائتي سنة تناقصت سطوتها عما كانت عليهِ لا سيما في حروبها مع الروسيا لان الدولة

الروسيَّة منذ وليها بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ جعلت مطمح نظرها توهين شوكة الدولة العليَّة والاستيلاء على ما يسمح لها من ممالكها ثم الاستيلاء على بقيَّة المعمور اقتداء بدولة الرومان في استيلائها في عنفوانها على سائر المعروف من الكرة اذ ذاك ويبرهن لهذا صريح الوصيَّة المنسوبة الى ذلك القيصر واول من اشهرها في اوروبا هو فريدريك كياردي سنة ١٨٣٦ وهذا تعريبها

من بطرس الاول الخ — الى كل من يخلفني على تخت الروسيا التحيَّة . فان الله سبحانهُ لم يزل منذ بداية الابد في اعانتنا واسدل فضلهُ علينا بما حملني على الاعتقاد بان الامة المسكوبيَّة تتسلط ان شاء الله على الممالك الاورباويَّة (لا قدر الله) والدليل على ذلك ان الامم الاورباويَّة قد هرم اكثرهم واخذ البعض منهم في التلاشي فان ادركت الروسيا تمام قوتها لا شك انها تتغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الصغر وعندي ان هجوم الامم الشماليَّة على اوربا من احكام القدرة الالهيَّة التي لا بد من نفوذها كما وقع سابقاً عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وانا وجدت الروسيا جدولاصغيرًا فتركتها نهرًا وارجو انهُ باعتناء من يخلفني تصير بحرًا عظيمًا يغطي بمياههِ اوربا باسرها ولا يتعرض لسيلانهِ عرمرم فحملني هذا الاعتقاد على ان اقرر هنا الاصول التي لا بد من اتباعها نظرًا الى ادراك هذا المقصود المعتبر وهي

اولاً

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائمًا على حال الرياضة والاستعداد فلا يكفوا عن الحرب الاَّ لاصلاح شأن الماليَّة وجبر ما نقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيهِ الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

ثانياً

عليهم ان يجلبوا من سائر الاقطار الاورباويَّة العارفين بالفنون الحربيَّة مدة الحرب واما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنفيع الروسيا بما يلائم الاخرى من دون خسارة ما لها طبيعة

ثالثاً

عليهم التداخل في سائر احوال الممالك الاورباويَّة وخصوصاً المانيا لقربها الينا

رابعاً

التداخل في احوال بولونيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب الاَّ المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هولاء الملوك الى ان يتيسر التسلط على البلاد راساً فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى ان نقدر على استرجاع ما سلمناهُ

خامساً

نأخذ من مملكة السويد ما يمكن اخذه ونجعل بينهم وبين الدانمرك عدواناً دائمًا

سادساً

لا يتزوج اهل بيتنا الاَّ بنات ملوك المانيا لتاكد المحبة بين الروسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

سابعاً

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى اشجارنا لسفنها ولما نستفيدهُ منها نظرًا الى اصلاح شأن اسطولنا فضلاً عن تبديل فائدة تبديل ما لنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا وما ينشا منهُ من كثرة المواصلة بين تجارها وتجارنا

ثامناً

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطيء البالتيك كما يجب السعي بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطيء البحر الاسود

تاسعاً

نقرب من القسطنطينيَّة والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينيَّة فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانات بشواطيء البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه وينبغي ايضاً تعجيل مملكة الفرس من الاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التي هي مخازن الدنيا وان حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب انكلترا

عاشرًا

يجب السعي في تاكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهرًا على ما قصدتهُ من التسلط على المانيا مع اننا نحرض عليها ملوك المانيا سرًا

حادي عشر

نشارك النمسا فيما قصدناهُ من اخراج الترك من اوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينيَّة واظهرت دولة النمسا شيئًا من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول اوربا على محاربتها او نسلم لها جانبًا مما حصلنا عليهِ ونسترجعهُ في اول فرصة

ثاني عشر

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبممالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا احباء ما بين الاعداء

ثالث عشر

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانيَّة وجمع جيوشنا ودخول اساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع في المفاوضة السريَّة مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضهُ عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا

رابع عشر

ان امتنعت كلا الدولتين المذكورتين مما نعرضهُ عليها وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعي بتحريض احداها على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقيَّة ممالك اوربا . اه

وهاتهِ الوصيَّة وان انكرتها رجال الدولة الروسيَّة لكن السيرة السياسيَّة والعسكريَّة الموجودة في الخارج من ذلك التاريخ الى الآن تصدق وجودها اذ هي مطابقة لها مطابقة النعل للرجل فلا زالت تمد سطوتها في اسيا واوربا ولما كانت الدولة العليَّة هي الدولة ذات الشأن المجاورة لها في كل من القارتين مع مخالفة الديانة جعلتها مطمح نظرها ووجدت سبيلاً لمخادعة الدول الاوروباويَّة بالانتصار للمسيحيين الموافقين لهم في الديانة لما تدعيهِ من التعدي عليهم فتريد تحريرهم من استيلاء الدولة العليَّة عليهم على ما سيرد بسطهُ في الفصل الاول من الخاتمة فجعلت تثير ثورات في احد الاقسام ثم تنتصر لهُ بان يجعل لهُ ادارة مستقلة في داخليتهِ وبعد مدة تغريهِ بالاستقلال وتنتصر لهُ فاذا تمَّ

استقلالهُ لا تلبث ان تبتلعهُ ثم تنتقل الى قسم آخر يواليهِ وهكذا ولما تفطنت الدولة العليَّة الى هذا المقصد تداركت الامر باصلاح الادارة على حسب ما تقتضيهِ الاصول الشرعيَّة ويزيل تلك الاعتراضات حتى تتقوّى وتمنع نفسها وتستميل بقيَّة الدول الاوروباويَّة الى انصافها من مشاحنها فتعاطى المرحوم السلطان محمود مبادي الانتظام بعد ان لاقى متاعب شديدة مع العساكر الينكشاريَّة الذين كانوا اعظم اسباب التخضرم في الممالك العثمانيَّة العليَّة حيث عاثوا في الارض بظلم الرعيَّة والاستيلاء على الاحكام السياسيَّة في القاعدة وانحاء الممالك وخروجهم عن طاعة السلاطين وتلاعبهم بهم هذا بعد ان كانوا هم عدة الاسلام وناشري اعلام انتصارهِ عند ما نظمتهم الدولة الى خلال القرن الحادي عشر فابتدأوا بما سبق ذكرهُ وتمادوا عليهِ الى ان وهنت الشوكة وتداركها السلطان محمود فازال ذلك الصنف بالمرة بعد حرب ذريعة ونظم عوضهم العساكر النظاميَّة على نحو انتظام العساكر الاوروباويَّة في الممالك المتمدنة مع انهُ كان اذ ذاك في تعب عظيم من حرب الروسيا التي كانت خاتمتها معاهدة ادرنة الموهنة لتمام استقلال الدولة العليَّة والجاعلة للروسيا اليد في احوال الممالك العليَّة وكذلك كان السلطان في مهم من ثورة الاغريق في جزيرة مورا وأُضيف اليهِ غدر الاسطول الانكليزي باسطولهِ واساطيل الولايات التابعة للخلافة كمصر وتونس والجزائر اذ بينما تلك الاساطيل العظام راسية في بحر الجزر للاحتراس في شأن ثورة مورة واذا بالاسطول الانكليزي وارد عليها في صورة المعاضد لان السلم متأكد بين الدولتين ولم تكن بينهما شائبة حرب بالمرة واشارت الاساطيل الى بعضها بعلامات السلم فلم تلبث ان تخللت بين الاساطيل العثمانيَّة حتى اذا تم تمكنها منها اطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد مع شدة الالتحام والتداخل والمسلمون في حال الدعة اعتمادًا على السلم المحقق فهلكت جميع تلك الاساطيل وغرقت في لجة البحر دفعة واحدة بمن فيها فكانت حادثة لا تنسى ولا تمحي من صفحات التواريخ حتى ان اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب من الانكليز انفسهم هاجوا وماجوا على دولتهم من تلك الفعلة والزموا الوزراء بالمحاكمة والقصاص فانكر وزير البحريَّة اذنهُ بذلك وقال ان فعل رئيس الاسطول لما فعل هو افتيات منهُ ولا علم للدولة بهِ فألزموا احضارهُ والحكم عليهِ بالقتل وعند ما أُحضر وروفع في مجلس الحكم وصدر الحكم بقتلهِ وعلم انهُ لم يبقَ لهُ مفر اقبل على وزير البحريَّة وسارَّهُ في اذنهِ بقولهِ ايها الوزير ان تلك البطاقة التي بخطك قد نسيت ان احرقها وها هي الآن في جيبي فبهت وجههُ واطرق صامتًا ثم عقد جلسة

سريةً واطلق سبيل الرجل ويقال ان الحامل على ذلك ما هو مركوز في طباع الدول سيما اذا كان القصد هواركاس المسطوعليهِ لما يأتمر بهِ الساطي يد ان الدولة الانكليزيَّة لم تزل من ذلك الوقت الى الآن تعاضد الدولة العليَّة وتنصح لها وتظاهرها متى استطاعت كما ياتي ومع هاتهِ الشدائد التي تقدمت الاشارة الى بعضها فالسلطان محمود رحمهُ الله ونعمهُ لم يزل جالدًا مقدامًا حتى انهُ لما بلغهُ خبر الاسطول وهو يحادث احد كبراء دولتهِ لم يزد على سؤالهِ عن تحقق الامر من غير انزعاج ثم عاد لحديثهِ الذي كان فيهِ وشمر عن ساعد الجد في تجديد الاسطول واقرار الراحة بانتظام العساكر النظاميَّة والاحكام السياسيَّة والشرعيَّة فاخترمتهُ المنيَّة قبل الاستتباب وتسلطن ولدهُ السلطان عبد المجيد فاخذ في السعي في الانتظام وتغيير السيرة القديمة الى التهذيب الوقتي الذي هو موافق للشرع العزيز كما يأتي في الفصل الرابع من الخاتمة واصدر الفرمان العالي المحدث للتنظيمات وتعريبهُ هو

من المعلوم عند الجميع ان دولتنا العليَّة لم تزل من مبدإ ظهور امرها معتنيَّة بكمال الرعاية للاحكام القرآنيَّة الشريفة والقوانين الشرعيَّة المنيفة وان سلطنتنا السنيَّة قد وصلت بذلك الى الدرجة القصوى من القوة والمكانة ورفاهيَّة الرعايا وعمارة المدن والقرى الَّا انها منذ مائة وخمسين سنة تناقصت قوتها ومعموريَّة ممالكها واخذت في التاخر والضعف وذلك لغوائل متعاقبة واسباب متنوعة نشأ منها تجاوز الحدود الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة ولا يخفى ان الممالك التي لا تنسج ادارتها على منوال القوانين الشرعيَّة لا تدوم استقامتها فلذلك لم تزل افكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة الى تدبير وسائل عمارة الممالك ورفاهيَّة الاهالي مما يحصل بهِ المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرًا الى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العليَّة ذات الاراضي الخصبة والاهالي ذوي الاستعداد وتمام القابليَّة الى ان راينا من المهم وضع قوانين جديدة مؤسسة على القواعد الشرعيَّة المشيدة واعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانيَّة متوسلين بحرمة سيد البريَّة صلى الله عليهِ وسلم ومدار القوانين المشار اليها على وجوب حفظ النفس والعرض والمال وعلى بيان المرجع في تعيين الاداء وجلب العساكر اللازمة اما وجوب حفظ النفس والعرض فلكونهما اعز الامور الدنيويَّة فاذا خشي الانسان عليهما اضطر الى التشبث بمن يرجو بهِ وقايتهما كائنًا من كان وان لم يكن في اصل فطرتهِ مجبولا على الخيانة ولا يخفي ان ذلك مما يضر بالدولة والمملكة بخلاف ما اذا كان آمنًا

على نفسهِ وعرضهِ فانهُ لا يحيد عن طريق الصدق والاستقامة وصرف الهمة الى حسن الخدمة لدولتهِ وملتهِ. واما المال فان من نقد الامن عليهِ لا يتأتى لهُ القيام بحقوق دولتهِ اذ لا يخلو دائمًا من شغل بال واضطراب حال بخلاف ما اذا كان آمنًا على مالهِ فانهُ يشغل نفسهُ بما يعنيهِ في دينهِ ودنياهِ وينظر في توسيع دائرة معارفهِ وعيشهِ وبذلك يتمكن من قلبهِ حب الوطن وتشتد غيرتهُ عليهِ وعلى دولتهِ ويكون سعيهُ على حسب ذلك واما تعيين الاداء فالمرجع فيهِ ان كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها الى القوة العسكريَّة كما تحتاج في ضبط تصرفاتها الى مصاريف لازمة فلا بد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها وانما يتحصل ذلك بما يضرب على اتباع تلك الدولة فلزم ان يوضع للاداء المشار اليهِ طريقة مستحسنة وذلك ان الاستبداد وان بقيت معهُ ممالكنا سالمة والحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثارهُ من الاختلال والخراب وذلك لان جعل زمام مصالح المملكة السياسيَّة وامورها الماليَّة بيد شخص واحد موكولة الى اختيارهِ بل لا مانع ان يقال موكولة الى قهرهِ وجبرهِ يتسبب عنهُ ما ذكر خصوصًا اذا لم يكن ذلك الشخص من اهل الخير فانهُ يوثر منفعتهُ على منفعة الغير وتكون تصرفاتهُ مبنيَّة على الظلم والضير فوجب لذلك ان نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الاداء على الاهالي مراعى فيهِ قدر المكاسب واليسار بحيث لا يؤخذ من احد ما فوق مقدورهِ بعد ان يجعل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر وغيرها حد محدود بقوانين لا تتعداها واما جلب العساكر فهو من اهم ما يتوقف عليهِ حفظ الدين والوطن والذب عنهما فيلزم الاهالي ان يقدموا اشخاصًا منهم للخدمة العسكريَّة لكن الطريقة الجارية في ذلك الى الآن معا فيها من عدم الانتظام تؤدي الى اختلال اصول الزراعة والتجارة والى قلة التناسل (فيقع النقص في الاموال والانفس والثمرات) ومنشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة فيؤخذ من بعضها اكثر من المقدور ومن بعضها اقل من الميسور واستمرار الجندي في الخدمة العسكريَّة مدة حياتهِ وبذلك يقل النسل ويحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة فبناء على ذلك نرى من اللازم اذا مست الحاجة لاخذ العسكر من الممالك ان يوضع لذلك اصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة ثم يسلك في الاستخدام العسكري طريقة المناوبة بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة اكثر من خمسة اعوام مثلاً فبهذه الاصول التي عليها مدار القوانين والتنظيمات يحصل بمعونة الله نمو العمران والقوة والامن والراحة فلذلك نقول يلزم من الآن فصاعدًا ان لا يعامل احد

من ارباب الجرائم والجنايات بما يفضي الى اتلاف نفسهِ من سم ونحوهِ بدون مبالاة بل لا يحكم عليهم الاَّ بما تقتضيهِ القوانين الشرعيَّة وان لا يسلط احد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمتهِ وان يتصرف كل انسان في اموالهِ واملاكهِ بغاية الحريَّة وعدم المعارضة وان من جنى جناية لا يحرم ورثتهُ من حق وراثتهِ بالاستيلاء على اموالهِ للجناية التي هم براء منها وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من اهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء احد منهم ولاتمام الامان وتعميم الاطمئنان يزاد في اعضاء مجلس الاحكام العدليَّة قدر ما يلزم للنظر في سائر اللوازم وفصلها بما يتفق عليهِ الاكثر وعلى وكلاء دولتنا العليَّة ان يحضروا المجلس المذكور في بعض الايام ويبدي كل واحد ما يستصوبهُ دون تحاش ولا مداراة واما المفاوضة في شأن التنظيمات العسكريَّة فانها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السر عسكر وكل ما يستقر عليهِ الرأي من القوانين يعرض علينا لنوشحهُ بالخط الميمون ويكون دستور العمل الى ما شاء الله وحيث كان وضع القوانين الشرعيَّة المشار اليها انما هو لاحياء الدين والدولة والملك والملة اكدنا ذلك بالعهد والميثاق من طرفنا الملكي على ان لا يصدر منا شيء يخالفها واقسمنا على ذلك في بيت الخرقة الشريفة بمحضر جميع العلماء والوكلاء وسيحلف كل منهم على ذلك فاذا صدر بعد ذلك من احد الوزراء والعلماء ما يخالف تلك القوانين الشرعيَّة فانهُ يجازى بالتأديب المناسب لجريمتهِ الثابتة بدون التفات لرتبتهِ ولا مراعاة لذاتهِ وحيث ان مأموري الدولة لهم مرتبات كافية ومن ليس له ذلك الآن سيرتب لهُ ما يكفيهِ وجب ان نشدد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعاً وشرعاً بوضع قانون يخص عقوبتها ولاستبقاء التنظيمات المشار اليها والاصول المبنيَّة هي عليها المغيرة للعوائد الجورية القديمة وجب ان ننشر هذه الاوراق السلطانيَّة الى سفراء الدول المتحابة المقيمين بالاستانة العليَّة ليكونوا شاهدين على امضائها كما ننشرها الى اهالي الاستانة وسائر ممالكنا المحميَّة فمن سعى في حل عرى هاتهِ القوانين الموضوعة على اساس شرعي متين فعليهِ لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا ينال فلاحاً الى يوم الدين ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاجراء هذا الخير العميم آمين ".اه

ثم ان الجهلاء واصحاب الفوائد الشخصيَّة من المنتسبين للعلم او من اهل السياسة كادوا ان يحدثوا تحييراً في الممالك باشاعة ان التنظيمات تضادد الديانة الاسلاميَّة فاضطر المرحوم السلطان عبد المجيد الى ازالة هذا الوهم من الافكار بارسالهِ شيخ الاسلام احمد عارف الى الممالك فقام فيهم خطيباً يشرح ان الشرع المحمدي لا يخالف التنظيمات بل

يقتضيها ولما كان هذا العالم معروفاً بالرسوخ في العلم والورع انقادت العامة لمواعظهِ اما ذوو الغايات الخصوصيَّة من ذوي الرياسات فلم يألوا جهداً في تعطيل اجراء التنظيمات بالفعل الى ان وجدت الروسيا سبيلاً الى المداخلة سنة ١٢٧٠ فاضطرت الدولة العليَّة الى حربها المعروفة بحرب القريم وظاهرها كل من دولتي فرنسا وانكلترة وسردانيا حيث توجه نامق باشا الى فرنسا والقى على مسامع الامبراطور نابليون الثالث باعانة وزيرهِ دوروان دولويز ان غض النظر عن تطاول الروسيا لا تأمن بوائقهُ الدول الغربيَّة لان الروسيا لا سمح الله لو تسلطت على الاستانة اما حسًّا او معنًى لملكت التسلط على البحر المتوسط وحجرت التجارة عن سائر الممالك الشرقيَّة من الممالك الغربيَّة وايضاً تحصل على النفوذ السياسي الذي تخضرم بهِ الدول الغربيَّة اذا لم نقل انها تستولي عليها وحيث كانت فرنسا ناشرة راية الفخر في المعمور لا يسوغ لها اغضاء النظر عن هذا الحادث وترك الدولة العليَّة منفردة مع خصمها الالد وبسط هذا المعنى بحرارة نفس حركت النخوة الفرنسوية في الامبراطور فاجابهُ الى معاضدة الدولة العليَّة واشار عليهِ بان يستوثق من انكلترا محالفتها ومعاضدتها فما وصل الى لندرة حتى وجد القوم في قلق من انتظارهِ وكادوا ان يحملوهُ على الاعناق وفتحت دار الندوة لمطلبهِ وتلقاهُ اهلها بالرحب والقبول وحماية الذمار فلم تلبث الحرب بضع اشهر حتى اعلنت فرنسا وانكلترا حربهما للروسيا وانضمت اليهما دولة سردنيا اذ كان ذلك تسبباً منها لاتحاد ايطاليا ودخولها في زمرة الدول العظام وامتدت الحرب واستعرت نيرانها الى ان سلمت الروسيا للصلح على شروط معاهدة باريس ومضمونها هو ابقاء استقلال الدولة العليَّة في جميع اجزاء ممالكها واستقلالها في سائر تصرفاتها الداخليَّة التي يشترط فيها الحرية والامن التام لرعاياها على اختلاف اصنافهم واما الممالك التي لها استقلال في ادارتها وهم من النصارى كالصرب والجبل الاسود والافلاق والبغدان فتبقى ممتازة تؤدي الخراج للدولة تحت حمايتها واما البحر الاسود فيكون حائداً حتى لا يسوغ لاحدى الدولتين المالكتين لشطوطهِ جعل سفن حربيَّة فيهِ سوى عدد يسير لمجرد حفظ الراحة الداخليَّة وكذلك نهر الطونة يكون نهراً تجارياً فقط تحت مناظرة جمعيَّة اورباويَّة ومن ذلك الوقت تخلصت الدولة العليَّة من اثقال الروسيا السابقة ودخلت في سلك الدول الاورباويَّة العظام وتكفلت الدول باستقلالها ومن سوء البخت لم يزل اغلب المتوظفين في غفلاتهم مصرين على السيرة الاستبداديَّة والعدو منهم بالمرصاد فالف جمعيات سريَّة في قواعد مملكتهِ وارسل عمالها الى الولايات العثمانيَّة التي اغلب

سكانها نصارى والقوا دسائسهم بتعليم الثوران والقاء العداوة بين الراعي والرعيَّة هذا وسفير الروسيا في قاعدة الخلافة يحسن اوجه التودد الى الروسيا والاستماع الى نصائحها الملائمة لطباع من استمالهُ من الرجال من الاستمساك بالسيرة الاستبداديَّة التي هي سيرة الروسيا لكن على شرط التسليم في الولايات التي يسكنها الصقالبة وبذلك تعقد دولة الروسيا مع الدولة العليَّة معاهدة على الذب والاقدام وتعوضها بمعاضدتها ممالك اسلاميَّة عوضاً عمَّا يخرج من عندها وتساعدها ايضاً على الحط من ديونها الى المقدار الذي يظهر لها فاثرت هذه الوساوس واعلنت الدولة العليَّة بعدم اقتدارها على دفع فائدة ديونها حتى اغتاظت منها سكان اوربا واستعمل الاهمال في شأن تلك الجمعيات السريَّة حتى ثارت ولايتا بوسنه وهرسك ثم البلغار ثم الجبل الاسود ثم الصرب وتدارك رجال الدولة الصادقين الخطب بتفطنهم الى الدسائس الباطلة التي ليس القصد منها الاَّ اضعاف الدولة بيدها وجعلها في قبضة عدوها وافرادها عن الدول الناصحة لها مع انها استقرضت من رعاياهم منذ سنة ١٢٧٠ نحو خمسة الاف مليون فرنك ولم يحصل منها ومن مداخيل الدولة التي هي نحو عشرين مليونًا ليرة في السنة على ممر تلك السنين التي هي نيف وعشرون سنة ممَّا يصح ان يعد الاَّ ما تضمنهُ التقرير الذي قراهُ الصدر الاعظم بحضرة السلطان عبد العزيز في الباب العالي وهذا مضمونهُ « انهُ قد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لاصلاح شأن المجالس الحكميَّة واتقان تنظيمها وترتيب خدمتها على اعدل وجه ممكن حتى ينال جميع رعايا الدولة منها غاية مأمولهم من حسن المعاملة والانصاف من غير مراعاة الجنسيَّة ولا المذهب وانهُ بذل جهدهُ في اصلاح قوى الدولة وتنظيمها على ما يعادل تنظيمات الدول الاخرى وان جملة العساكر مع الرديف تبلغ الآن ثمانمائة الف نفر مجهزة الجهاز التام ومصحوبة بما يلزمها من المدافع المتقنة حسب الاختراعات الجديدة وان الاساطيل اعتنى باصلاحها غاية الاعتناء حتى اصبحت الدولة العثمانيَّة الآن عندها منها ما يجعلها بمنزلة الدول البحريَّة الكبار وانهُ متى نجزت السفن المشروع الآن في انشائها في الترسانة العليَّة يكون للدولة من الفرقاطات المدرعة والمونيتور (وهي سفن ذات ابراج) سبعة عشر فلكًا وانهُ أبرز الاوامر اللازمة لتحصين سائر حدود السلطنة بالابراج والحصون حسبما تقتضيهِ ضروريات الوقت وانهُ جهز ترسانات الدولة بالادوات والماكينات والمهمات اللازمة حتى صارت الآن تستطيع ان تجاري ترسانات اوربا في انشاء السفن الحربيَّة او اصلاحها وانهُ يفرغ عما قريب من انشاء المصنع الجديد الذي شرع في انشائهِ

منذ مدة في الطوبخانة وهو مصنع يستطيع ان يصب ثلاثمائة مدفع في كل عام من أحسن مدافع الشيشخان وان اهتمامهُ الآن بمساعدة وزير المعارف واقرانهِ الوزراء الاخر موجه الى تكثير عدد المكاتب والمدارس توفيرًا لاسباب التعليم وترتيبها على وجه يمكن سائر الناس من الانتفاع بها الانتفاع المطلوب وان الاعمال المتعلقة بالسكك الحديديَّة والطرق المعدة لسير العجلات واقع الاهتمام بها من غير انقطاع ولا توانٍ وان في اواخر اغسطس الآتي تكمل سكة الحديد المشروع في انشائها بين اسكودار وازميد وان الحراثة لا يزال موجهًا اليها كل ما تستحقهُ من عظيم اعتنائهِ واهتمامهِ وتنال يوميًّا من التسهيلات سائر ما تحتاج اليهِ منها دوام اعفاء الادوات والآلات اللازمة لها على اختلاف انواعها من اداء رسوم الكمرك على الاطلاق في سائر اقاليم السلطنة وهذا كلهُ لزيادة ترغيب الناس في الاشتغال بها حالة كونها هي اعظم ينابيع الثروة في الممالك وختم الصدر الاعظم تقريرهُ بقولهِ ان ماليَّة الدولة باقية على ما كانت عليهِ » . هذا وبعض التقرير لم يكن في الخارج طبق ما ذكر ولهذا تفاقم الامر فيما بعد الى ان استندت رجال السياسة والعساكر الى فتوى من شيخ الاسلام في اختلال فكر السلطان واولوا السلطان مرادًا وحيث كان ضعيف المزاج وانزعج بكيفيَّة ولايتهِ وبموت عمهِ وبالثورة على الوزراء من بعض المعينين لم يطق تحمل عبء الخلافة فاستند اهل الحل والعقد الى فتوى ايضاً واولوا سلطاننا عبد الحميد ايدهُ الله فتدارك امر الادارة باصدارهِ الخط الهمايوني عند تقلدهِ البيعة وهذا تعريبهُ " انهُ لما اعتزل اخي الاكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت اجدادنا العظام وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورياسة مجلس الوكلاء ابقاء وتجديدًا بناء على ما لذاتكم من الرويَّة المسلم بها والحمية المجربة وما لكم من الوقوف والاطلاع على مهم امور الدولة وكذلك اقررنا جميع الوكلاء على مناصبهم وانني شديد الاتكال في جميع الاحوال على تسهيلات جناب موفق الامور (هو الله سبحانهُ وتعالى) وتوفيقاتهِ الصمدانيَّة وقصارى آمالي ومقاصدي معطوفة بالحصر لتأييد اساس شوكة دولتنا ومكنتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحريَّة ويتنعمون جميعًا بنعمة العدالة والرفاهيَّة فاؤمل بثقة تامة ان جميع وكلاء دولتنا وعمالها يشاركوننا في هذا الاثر ويعاونوننا عليهِ وقد عرف الناس اجمع بان حال البحران والاغتشاش الملم بدولتنا لهُ جهات واسباب متنوعة وصور واشكال متعددة فاذا امعنا النظر في ذلك من اي جهة كانت تجتمع مباديهُ واسبابهُ في نقطة واحدة وهي عدم

جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الاحكام الجليلة الشرعيّة التي هي المسند
الاساسي في دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد اهواء نفسهِ في ادارة الامور اما
اتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على ادارة دولتنا ملكاً ومالاً وما حصلت عليهِ
امور ماليتنا من عدم الامنية في الافكار العموميّة وتعذر وصول الحاكم الى الدرجة
المتكفلة بتأمين حقوق الناس وتاخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لانواع وسائل
العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذي وقع
على كل ما شرع بهِ من الاجراآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نيَّة خالصة
لمقصد اعمار مملكتنا ورفاهيَّة حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء
الحريَّة الشخصيَّة وكون ذلك باجمعهِ صار عرضة لتغييرات متنوعة منعت انتاج المقصد
الاصلي فلا ريب في انهُ تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام ولذا كان من
اهم ما يلزم ان التدابير الواجب وضعها اولاً فاولاً في مطلب قوانين المملكة المقتضي
وضعها وتنظيمها في صورة تتكفل بامنية العموم وثقتهم ينبغي ان يبتدا بها من هذه النقطة
المهمة وهي ان يترتب مجلس عمومي تكون افعالهُ وآثارهُ مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم
ويكون موافقاً لقابليَّة مملكتنا واخلاق اهاليها كافلاً باتمام تامين اجراء القوانين حرفاً
بحرف سواء كانت القوانين الموجودة او التي تتأسس من الآن فصاعداً توفيقاً (موافقة)
لاحكام الشرع الشريف المقدسة ولما هو بالحقيقة ضروري ومشروع لمملكتنا وملتنا
وناظراً في موازنة واردات الدولة ومصاريفها فليبحث الوكلاء في هذا المطلب
ويتذاكروا فيهِ بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستأذنوا عنهُ ثم لما كانت مسئلة
توديع الماموريات الى غير اهلها من المامورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع
هي من جملة الامور الباعثة على ايقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغي في حيز
الاشكال وهذا مما ياتي بكبر المضرة ملكاً ومصلحة فينبغي ان يتعين من الآن فصاعداً
مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والماموريات وتتخذ قاعدة ثابتة يستخدم بمقتضاها
في كل عمل من يكون اهلاً لهُ ولا يعزل احد اويبدل من ماموريتهِ بلا موجب على وجه
ان تكون كافة الوكلاء وماموري الدولة كباراً وصغاراً مسئولين عن الوظائف الموكولة
لهم كل بحسب درجتهِ وكما هو معلوم لدى الخافقين ان ترقيات ملل اوربا الماديَّة والمعنويَّة
انما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا
عليهِ من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات واهم ما لدينا من الامور

الاسراع بتعميم المعارف فاخص ما نتمناهُ والحالة هذه ان يحصل الاجتهاد بابلاغ
تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية حسبما يساعد الامكان وان تستحصل الوسائل
الموصلة لتعميم نشر اصول المعارف على النور ويبادر عاجلاً لاصلاح الاصول الملكيَّة والماليَّة
والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي
تتخذ في المركز وحيث ان الحادثة التي ظهرت في العام الماضي في اطراف هرسك وبوسنة
باغراء ارباب الاغراض قد انضم لها ايضاً مسئلة عصيان الصرب والدم المهرق من
الطرفين انما هو دم اولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التي يرثى لها موجب لكدرنا
وتاثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المقتضية لاستئصالها وفيما نؤيد مجدداً كافة
احكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الحسن فينبغي المثابرة
بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول ونسئل حضرة
الرب المتعال ان يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاتهِ السبحانيَّة في كافة الاحوال آمين . يوم
الاحد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٣ »

ثم اعمل الحزم في الثورة وقهر جميع العصاة في سائر الانحاء وعند ما رأت الروسيا
تهلهل الوسائل التي اعدتها لم تطق صبراً حتى جيشت الجيوش ووقفت على قدم الحرب
بدعوى ان تعهدات الدولة العلية في حق النصارى لم تجرِ وانهم لا زالوا في الظلم من
الولاة والتعدي من المسلمين وان تعهداتها الجديدة الموافقة للائحة الكونت اندراسي
وزير النمسا التي قدمها على وجه المودة والنصح والمساعدة للدولة العليَّة للاصلاحات المطلوبة
للولايات الثائرة هي غير كافية ولم ترضهم فتريد اذاً الدولة الروسيَّة ان تطلب الاستقلال
في الادارة لتلك الولايات على ان تكون تحت حمايتها وانها تنفذ هذا بقوة السلاح لولا
ان انكلترا جاشت في حلقها وصرحت لها عند ما كانت تمد الثائرين حسّاً ومعنى انها ان
لم تكف عن هذا الحرب السري فانها تدخل معها في الحرب الجهري وكذلك دولة النمسا
اظهرت التحرش من جيتها خوفاً من كل منهما على مصالحها اذ دولة الانكليز تخاف من
تملك الروسيا لخليج فارس وخليج السويس وبذلك تسقط من يدها مستعمراتها في الهند
ودولة النمسا تخشى علو كعب الصقالبة بجوارها فيظهرون عليها وتتلاشى فيما بينهم مع سابقيّة
التآلف بين العثمانيين والهنكاريين الذين هم قسم مستقل من مملكة النمسا حتى ان رئيس
الدولة يلقب بامبراطور النمسا وملك هنكاريا وهذا التآلف جاء من مساعدة العثمانيين
لهم عند ما كان قسم النمسا قاهراً لهنكاريا ومستبداً عليها في التصرفات السياسيَّة غير

انهُ منع كل من الدولتين مانع من انفاذ قصدها بالفعل . فاما دولة انكلتره فانها لما كانت دولة حريَّة بحتة لم يكن في قدرتها التصرف الأَعلى طبق ارادة الامة وامتها منقسمة الى حزبين احدهما يسمى حزب المحافظين والثاني يسمى حزب الاحرار وتقدم بسط هذه التسمية في الكلام على انكلترا وكان الحزب الثاني مضادًّا لانتصار دولتهِ للدولة العليَّة حتى انهُ لما كان بيدهِ زمام التصرف في سنة ١٢٨٨ وانتهزت الروسيا الفرصة من حرب جرمانيا وفرنسا فطلبت تغيير معاهدة باريس فيما يتعلق بتقوية شأنها في البحر الاسود ساعدت اذ ذاك دولة انكلترا على ذلك المطلب وغير شرطهُ وفي هاتهِ النازلة المتكلم عليها كان التصرف بيد حزب المحافظين لكن الحزب الآخر مضاد لهم وكاد ان يجذب اليه الحزب الآخر فلم يكن في وسع زعماء هذا الحزب الذين بيدهم زمام تصرف الدولة ان يخالفوهم بالمرة سيما والباعث على انفاذ سياستهم مع المخالفة لم يحصل في هاتهِ المسأَلة كما يفقههُ البصير واضف الى ذلك عدم تحقق محالف ذي قوة بريَّة معتبرة يمكن لانكلترا ان تتعاضد معهُ للانتصار للدولة العليَّة لان فرنسا الوحيدة لمثل ذلك لم يكن في وسعها الارتباك في الحرب لما تقدم في الفصل الثالث من المقصد في الكلام على فرنسا وهذا السبب المتعلق بفرنسا ذاتهُ هو الذي نكص دولة النمسا عن انفاذ قصد المتكاربين في معاضدة الدولة العليَّة حيث ان الموازنة الاوروباوية تغيرت وتحالف الامبراطرة الثلاثة اي امبراطور المانيا والروسيا والنمسا امَّا حقيقة واما حكمًا على مساعدة بعضهم ونفعهم كما بينتهُ الحوادث فلاجل الجواذب المتباينة المشار اليها غاية ما استطاعتهُ كل من انكلترا والنمسا لكبح الروسيا ان عقدوا مؤتمرًا في الاستانة للاتفاق ما بين الدول الموقعين على معاهدة باريس على ما ينصلح بهِ الحال ويرجع السلم بين الدولتين المتنافرتين فأرسى امرهم فيهِ على ان طلبوا من الدولة العليَّة ما يأتي

اولاً. تغيير حدود الجبل الاسود باعطائهِ بعض اراضي من المملكة العثمانيَّة. ثانيًا تشكيل لجنة من مرخصي الدول الاوروباويَّة لتعيين تلك الحدود الجديدة. ثالثًا ابقاء حكومة الصرب على الحالة السالفة بان تكون لا لها ولا عليها وتتقرر حدودها من جهة بوسنة عملاً بمقتضى الخط السلطاني الصادر سنة ١٢٣٢ . رابعًا الولاة الذين يتعينون الى بوسنة وهرسك والبلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول اوربا في ذلك وابقائهم في مأمورياتهم مدة خمس سنين . خامسًا نظرًا الى الموقع الجغرافي تقسم تلك الولايات الى الوية ويتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد انتخاب اولئك الولاة لهم. سادسًا

انشاء مجلس مركب من ثلاثة اعضاء بكل من الولايات تنتخبهم مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية وخرجها وانتخاب اعضاء مجالس الادارة وتوزيع الضرائب السلطانيَّة على الاهالي ما عدا رسوم الكمرك والدخان الراجعة للدولة العليَّة . سابعًا ابطال طريقة التزام مداخيل الدولة واسقاط البقايا السابقة بكل من الولايات الثلاث . ثامنًا دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان والكمرك يعطى منهُ قسط لخزينة الدولة العليَّة والقسط الباقي يصرف في مصالح الولايات المذكورة وينظم لكل منها دستور للعمل بذلك . تاسعًا ترتيب المحاكم النظاميَّة . عاشرًا اعطاء حريَّة الاديان . حادي عشر تنظيم الحرس الاهلي . ثاني عشر العفو العمومي عما سبق من الجنايات السياسية . ثالث عشر اعطاء رخصة للاهالي في شراء الاراضي السلطانية . رابع عشر الشروع في تنفيذ تلك الشروط قبل مضي ثلاثة اشهر . خامس عشر تعيين لجنتان من طرف دول اوربا للاحتساب على اجراء تلك الشروط . غير ان الدولة العلية امتنعت من قبول الاقتراحات المذكورة محتجة بانها صارت دولة قانونية حريَّة لجميع اصناف رعاياها على السواء بالقانون الاساسي الذي أحاط بهِ المملكة السلطان الغازي عبد الحميد ايد الله ملكهُ وقد سبقت الاشارة اليهِ في الفرمان الذي اصدرهُ عند البيعة العامة وابرزهُ للعمل بالفعل عند ما كان المؤتمر في مفاوضاتهِ واصحبهُ بالخط الشريف الآتي نص تعريبهِ في موكب مشهود وكانت تلاوتهُ في يوم كأَنهُ يوم عيد وهو

" وزيري سمير المعالي مدحت باشا

" ان سطوة سلطنتنا كانت في حالة القهقرة في الايام السالفة واسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجية فقط بل انما وقعت لاجل الانحراف عن الطريقة المستقيمة في الادارة الداخلية حتى ضعفت اماني وثوق الرعايا بالدولة ولذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض اصول في تحسين الادارة معروفة بالتنظيمات الخيريَّة اشتملت على تأمين جميع الرعايا في انفسهم ومالهم وعرضهم وشرفهم طبقًا لقواعد الشريعة المطهرة والتنظيمات المذكورة هي التي كانت سببًا لابقاء السلطنة محافظة على لوازم الامنيَّة الى الآن ومن آثارها المشكورة انها سهلت لنا نجاح مساعينا في تأسيس هذا القانون الجديد الذي اقتضتهُ اراء رجال دولتنا التي نتجت عنهم بحريتهم حيث استندوا الى تلك الامنيَّة وقد تيسر لنا في هذا اليوم الاعلان بهِ. ولما كان هذا اليوم من الايام السعيدة فانهُ يلزمني ان نذكر الآن المقدس المرحوم والدنا ونصفهُ بعنوان محيي الدولة وان نذكر

مقاصدهُ الحسنة ولا شك انهُ كان سعى بنفسهِ في ادخال السلطنة في العهد القانوني الذي سنستظل بهِ الان ولو توفرت مدة تأسيس التنظيمات الخيريَّة الاسباب المتوفرة الان لكان والدنا المرحوم اسس اذ ذاك احكام هذا القانون الاساسي ولكن العزة الالهيَّة قدرت ان يكون هذا التبديل السعيد الذي هو الكفالة العظمى لخير رعايانا في مدة ولايتنا ولله المنة على ذلك. ومن المعلوم المقرر ان اصول ادارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التي وقعت شيئًا فشيئًا في تصرفاتنا الداخليَّة وفي زيادة خلطتنا مع الدول الاحباب وغاية مرغوبنا ازالة جميع الاسباب المانعة للامة وللبلاد من الانتفاع بالنتائج الطبيعيَّة التي لهم حق فيها كما يلزم وان نرى جميع رعايانا قد جاوزوا الحقوق التي من علائق الامم المهذبة بحيث يكون كلهم متعاضدين بنيَّة سالمة في التقدم والالفة والاتحاد فكان من الواجب اتخاذ طريقة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور ووقاية حقوق الدولة ومحو الخطيئات والغلطات الناتجة من الاعمال الغير المباحة الناشئة من وجود التصرف الاستبدادي بيد نفر واحد او بعض انفار وان نمنح حقوقًا متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الامة وان نجعلهم في حالة يمكنهم معها الانتفاع بخير الحرية والعدل والتسوية ولا فرق بينهم في ذلك وهذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح وضماناتها وهذه القواعد الكليَّة انتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية وهو وجوب تقييد اساس ادارتنا بصورة شوريَّة قانونيَّة ولذلك لما اصدرنا خطنا عند صعودنا على كرسي السلطنة قررنا لزوم احداث مجلس للامة (وفي الاصل برلمنتو) وقد اشتغلت جمعيَّة خاصة مشكلة من رجال دولتنا واهل العلم والمتوظفين الاعيان في تاسيس اصول هذا القانون بغاية التدقيق ثم وقع التامل منها بمجلس وزرائنا والموافقة عليها وهذا القانون اشتمل على اثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانيَّة وحريَّة جميع الرعايا العثمانيين السياسيَّة والعرفيَّة وتسويتهم لدى الاحكام السياسيَّة والعرفيَّة ايضًا وبيان مسئوليَّة الوزراء والمتوظفين ومتعلقات وظيفتهم وحق مجلس الامة في الاحتساب على اعمالهم واستقلال المجالس الحكميَّة في خدمتها والمعادلة بين دخل الدولة وخرجها معادلة حقيقيَّة وقسمة التصرفات الحكميَّة بالاوطان مع بقاء النظر الاعلى فيها للدولة وجميع هذه الاصول المطابقة لاحكام الشريعة المطهرة ولضروريات الوقت ولمرغوبنا قابلت النيَّة الحسنة التي شأنها تحقيق خير الجميع حيث ان ذلك غاية المراد وقد جعلت اتكالي على الله وعلى امداد رسولهِ في ذلك وانطت لعهدتهم هذا القانون بعد ان وافقت عليهِ بامضائي السلطاني ويقع العمل بهِ حالاً بحول الله في جميع جهات السلطنة

فالآن ارادتنا انكم تعلنوا بهذا القانون وتجروا العمل بمقتضاه من هذا اليوم كما يجب عليكم ايضًا اتخاذ جميع الوسائل اللازمة المتاكدة للاشتغال في تهيئة التراتيب التي تضمن ذكرها القانون المذكور والله تعالى المسئول ان يقارن بالنجاح سعي كل من اشتغل فيما يؤول الى نجاة السلطنة والامة وكتب في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٣ ".

غير ان اعضاء المؤتمر لم يقنعهم ذلك وسافروا جميعًا من الاستانة دفعة واحدة مظهرين الضديَّة للدولة العليَّة والدولة لم تكترث بذلك حيث ان ما فعلتهُ من الرفض لمطلبهم كان عن رأي الامة لانها عقدت مجلسًا عامًّا من جميع وجوه اصناف رعيتها حتى انهُ حضرهُ المعروف بالدراية والديانة امير الامراء (الفريق) رستم باشا وزير الحربيَّة اذ ذاك في المملكة التونسيَّة حيث كان رسولاً عن اميرنا في تهنئة حضرة السلطان بالولاية واجمع جميع اولئك الاعيان على اختلاف دياناتهم على رفض تلك المطالب بل ان النصارى واليهود منهم قالوا نؤثر اراقة آخر نقطة من دمنا وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الاهانة بالتجزئة وان كان هذا لم يبدِ فيما بعد حقيقة الأمن البعض دون البعض هذا بعد ان كان عرف جميعهم الرجل الوحيد مدحت باشا صاحب الصدارة اذ ذاك بعواقب الانفراد عن الدول واحتمال تعصبهم جميعًا لكي يتبصروا وليعلم حقيقة ضميرهم فلم يتزحزحوا شيئًا فانفذ السلطان ووزيرهُ هذا الرفض ولله درهم من رجال اذ لم يسع سائر الامم الاَّ انصافهم والاذعان بان لهم الحق في رفض ذلك الاقتراح بل ان اللورد صالسبوري اشد المخاصمين في المؤتمر قال عند ما استقرَّ بمجلس الوزراء في انكلترا لقد انصف القوم في رفضهم للمطالب نعم ان الخصم زاد تألبًا وأعلن بان الدولة العليَّة اهانت اوربا لكي يموه احقاقهُ في اشهار الحرب بيد ان انكلترا مع ذلك لم تسمح لهُ بما اراد وألحت على التعال للدولة العليَّة واجتمع سفراء الدول في انكلترا واستقرَّ امرهم على لائحة هذا نص تعريبها

« ان الدول التي تعاطت عمومًا اسباب سلم المشرق واشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الاستانة قد رأت ان الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذي اعتمدت عليهِ هي المحافظة على التوافق الذي وقع من حسن البخت بينهم ومع ذلك يجددون تقرير امر يهمهم وهو من مصالح العموم اعني تحسين حالة امم النصارى بالممالك العثمانيَّة واجراء الاصلاحات في بوسنه وهرسك والبلغار حسبما قبلهُ الباب العالي على ان يجريها من عند نفسهِ ولذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة اما ما يتعلق بالجبل الاسود فان الدول تعتبر عقد الصلح معهُ امرًا مرغوبًا فيهِ ولا بد لهُ من توطيد بهِ يقع تعديل الحدود وتعطى حريَّة الجولان في

نهر البويانة لان الدول تعتبر التأويلات التي تقع او ستقع بين الباب العالي وهاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة الى السكون الذي هو الداعي لرغبتهم العمومية ولهذا يستدعون الباب العالي لتوكيده بترجيع العساكر على قدم السلم ولا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة ويبادر الى اجراء الاصلاحات اللازمة للراحة وخير الولايات في اقرب وقت حتى يقع ما اشتغل به المؤتمر وقرروا بمقتضاه ان الباب العالي حاضر الى اجراء القسم المهم من تلك المطالب واتخذوا منشوره المؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٦ وما قررته الدولة العثمانية في المؤتمر حجة سيما وذلك كان على يد وكلائها وقد كان ظهر للدول بالنظر الى استعدادات الباب العالي الحسنة ومصالحه الحقيقية في اجرائها انها متيقنة بما أملته من ان الباب العالي حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فانه يقوم بحزم لاجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة وهذا المطلوب من الامور الضرورية لراحة اوربا وحيث سلك هذه الطريقة علم يقيناً ان من شرفه ومصلحته ان يجتهد في ذلك بعزم على وجه مستقيم فتطلبت الدول اذ ذاك ان تلاحظ كيفية اجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلائهم في الاستانة ونوابهم واذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة اخرى بان لم تحسن حال النصارى رعايا حضرة السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التي تضطرب بها دائماً راحة المشرق فامله سيظهر لهم من الواجب ان يقرروا ان مثل هذا الحادث لا يوافق مصالحهم ومصالح اوربا عموماً وفي هذا الحال تحتفظ الدول باعلان ما يرونه عموماً من الطرق التي ستظهر لهم التزاماً لتقرير خير الامم النصارى ومصالح السلم العمومي. وكتب في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ »

وارسلوها للدولة العلية كالبلاغ الاخير فرفضتها ويا ليتها قبلتها اذ هي مطابقة لما كان اصدرته من الفرمان المطابق للائحة الكونت اندراسي والمراقبة من الدول اذا كان اجراء الاصلاح حقيقة مقصوداً لا ضير فيها سيما ونفس معاهدة باريس المصرحة بكمال استقلال الدولة العلية في ادارة ممالكها هي ايضاً مصرحة باشتراط اصلاح الادارة المتضمن لمراقبة الدول لها اذ لا معنى لجعلها شرطاً في معاهدتهم الا ان يكون لهم حق في طلب اجرائها كما يطلبون اجراء سائر شروط المعاهدة نعم في ذلك ما ينافي النخوة لكن باب ارتكاب اخف الضررين لا ينسى ولا يخفى ان دولة الروسيا تشمل ما ينيف عن الثمانين مليوناً واذا اضيف لها مظاهروها من اتباع الدولة العلية كانت نحو تسعين مليوناً من النفوس وهي مرتاحة من الحرب وتهيأت لها منذ عشرين سنة واوصلت سكك الحديد الى اطراف

ممالكها التي يعتنى بها ولا ينسى انه منذ ثلاثة وعشرين سنة فقط قد حاربتها اربع دول معاً وكانت الحرب بينهم سجالاً والدولة العلية لا تشمل اكثر من اربعين مليوناً منهم خمسة عشر مليوناً اكثرهم معاضد لعدوها بالمال والرجال واقلهم لا يعينون بالمال الا عن مضض فضلاً عن الانفس وقد كانت اذ ذاك في حرب اهلية دامت نحو السنتين ولم تتهيأ بكمال الاستعداد لتوهم انتصار الدول لها فاذا هم قد انفردوا عنها وتركوها وخصمها فقامت الحرب على ساق وظهر من صناديد العثمانيين ما هو معروف حتى اقر سائر الاجناس لهم بانهم امة لم تزل حية سيما ما بدا من عسكر البطل الغازي عثمان باشا المشير فانه قاتل في بليفنا التي صيرها حصناً عظيماً في مدة حربه بجيش لا يبلغ الاربعين الفاً جيشاً عرمرماً من الروس والرومانيا يتجاوز المائة والعشرين الفاً وقتل منهم ما ينيف على عدد جيشه ولولا سبقية القدر بعدم انجاده لما تيسر للروس مجرد حصار جيشه حتى اضطر الى الهجوم لخرق الحصار بمن بقي سليماً من جيشه الذي قدره سبعة وعشرون الفاً فتراكمت عليه مائة الف او يزيدون الى ان خرج واضطر للتسليم فاقبل عليه القيصر نفسه ولما سلم له سيفه قال له " ان مثلك ايها البطل يحق له الفخر الدائم " ورد اليه السيف وكفى بذلك شهادة له فصحى الجو للروسيا وتقدمت الى ان بلغت جوار القسطنطينية وامتنعت من توسط الدول في الصلح حتى طلبته الدولة العلية منها رأساً وعقد على شروط تضمنتها معاهدة صان استيفانوس وهذا نص تعريبها

« الشرط الاول — انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتي ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذي عينه المؤتمر الذي كان حصل في الاستانة الى غوريتو وبيلكه والحد الجديد يستطيل الى غاجقة وعلى هذا متوتركيا غاجقو تبقى في تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود ايضاً من مجمع انهر بيوه وتارة وتمر من نهر درين الى جهة الشمال وتنتهي الى مجمع هذا النهر مع النهر المعبر عنه ليم واما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدئ من نهر ليم الى بريرة بولوة ومن روستراق الى سوق بلاتينا وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تحديد الخطوط هكذا اعني من الجبال المسلسلة الجامعة لروغوة وبلاو وكوزنره الى شلب باقليني ومن رؤوس جبال قوبريونيق وباباور وبورور حذاء حدود بلاد الارناوط الى اعلى ذروة جبل بروقليتي ومن هذه النقطة الى

كثيب يسقاشيق وينتهي الحد على الخط المستقيم الى عين الماء في جيسني هوتي ويفصل فيما بين جيسيني هوتي وجيسيني قاستراني ويتجاوز ماء اشقودرة الى ان ينتهي لنهر بويانة وهكذا مع النهر الى مصبهِ في البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاشقه واشبوزي وبودغوريجة وزابلياق وبارضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود امارة الجبل قطعيًا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأموري دول اوربا بشرط ان تكون وكلاء الباب العالي والجبل معهم ايضًا فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وامنية البلاد الكائنة في الجهتين ثم تشير في الخريطة الى التعديلات التي ترى لها لزومًا وتعلم انها هي الحق وتوضح في ذلك ما راتهُ من صالح الجهتين ثم لا يخفى ان امر سير السفن في نهر بويانة لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالي والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع يصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

الشرط الثاني. ان الباب العالي يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعي ثم فيما ياتي تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العليَّة والامارة المذكورة كيفية المناسبات التي ستكون بين الباب العالي والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة في الاستانة وفيما يقتضيه الحال من ممالكها ويتقرر ايضًا امر اعادة ارباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة وامر اطاعة اهل الجبل المقيمين او المارين في بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأموري الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التي كانت تجري بحقهم في بلاد الدولة وستنعقد ايضًا مقاولة فيما بين الباب العالي والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشآت العسكرية في قرب الحدود واحوال ومناسبات الاهالي المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالي مع الجبل في بعض مسائل ولم يكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيا واوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحثة او مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل ما عدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغي ان يفوضا امرها الى دولتي الروسيا واوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة ايام يجب على عساكر الجبل الاسود ان تخرج من البلاد الغير الداخلة ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الثالث. ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر « درين » وتبقى « كوجك ازورنيق » و « سقار » في

ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر « ره زه وه » الكائن جوار « استايلاق » على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا اعني مع مجرى نهر رزوه الى نهر راسقة ومنهُ الى « بكي بازار » ومن بكي بازار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتي « مهتره » و « ارغويج » الى اعلى النهر المذكور حتى ينتهي الى منبعهِ ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة في وادي ايبار وينزل مع الماء الجاري الذي يصب في النهر المذكور ومنهُ يسير مع انهر ايبار وسيديج ولاب الى منبع نهر ياتسه الكائن في جبل غرابا شينجة بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربوه وتربنجة ومن اقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميو واجقة حتى ينتهي ايضًا الى نهر ويرنجة ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقة وبلاتينا ويصل الى جهة مورواة في قرب قرية قاليانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوجي ويجتمع هناك مع نهر بلوسينة وهكذا مع النهر الى مورواة ويمتد مع النهر الى اعلى حتى يصل الى « قونقاويجة » ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية قرونجاج ومنها يمر من اقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق « قرة ول بور » وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر اخلاء « اطه قلعة » وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العليَّة والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة اشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة تفصل ايضًا المسائل المتعلقة بجزائر نهر « درين » وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والبلغار ينبغي ان يكون وكيل واحد من طرف البلغاريين يشترك معهم في هذا الامر

الشرط الرابع. ان المسلمين الذين لهم املاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان احبوا اجروا املاكهم وان احبوا اقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيا في ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل ايضًا في برهة ثلاث سنين امر فراغ املاك الدولة والاوقاف والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العليَّة والصرب والاناس المقيمون او الذين يجولون في بلاد الدولة العليَّة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكليَّة بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يومًا

يجب على عساكر الصرب ان تخرج من البلاد التي ليست داخلة في ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الخامس . ان الباب العالي قد اثبت استقلال رومانيا اعني المملكتين ولها ان تطلب من الدولة العليّة غرامة الحرب وتجري المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العليّة ورومانيا تنال تبعة رومانيا الامن والامتياز طبق تبعة دول اوربا

الشرط السادس . تقرر ان تكون البلغار امارة مختارة في ادارتها تدفع مبلغًا معلومًا الى الدولة العليّة ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الاهليّة من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العليّة والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروم ايلي وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي اجراؤها وتلاحظ مليّة اكثر الاهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقًا لفن تخطيط الاراضي وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة وجعلها اساسًا في قطع الحدود وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب « ورانجه » الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من غرب « قومانوه » و « قوجاني » و « قلقان دلن » الى جبل « قوارب » ومن هناك يمر من نهر « وبوجيجه » الى درينه ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء اخرى حتى ينتهي الى جبل ايناس ومنهُ يمر من غربي كوريجه واستاوره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء « قاستريا » ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر الى « يكيجه » ويمر من نهر وارديكيجه ومن مصب نهر « واردار » وقرية « غاليقو » الى قراء « بارغه » و « صاري كوي » ومناك يمر من وسط عين الماء المعبرعنهُ « بشيك كل » الى مصب نهري « استروما » و « قره صو » ومن السواحل الى « بوروكل » ويمتد الى الشمال الغربي ويمر من سلسلة جبل « رودوب » الى جبلي « جالتبه » و « اشوه » ويمر من جبال « اشك قولاج » و « جبيليون » و « قره قولاس » و « جيقلر » الى « نهر ارده » ويلتفت لجهة الجنوب ويمر من قراء سوكوتلين وقره حمزة وارناود كوي واقارجي واينجه الى « تكه دره سي » في قرب « ادرنه » ومن تكه دره سي و « جورلي دره سي » الى « لوله برغوسي » ومن هنا وعن نهر « صوجق دره » الى قرية « سور كن » ومنها من التلال ويقطع « حكيم طابيه سي » حتى يتصل في ساحل البحر الاسود ويبتدئ ايضًا من « منقاليه » ويترك السواحل ويمر من شمال حدود لوا طولجي ومن فرق راسوه الى نهر الطونه

الشرط السابع . ان امير البلغار يصير انتخابهُ من طرف الاهالي بالحرية التامة والباب العالي يثبتهُ بانضمام اراء الدول ولا يجوز انتخاب احد من اقارب ملوك دول اوربا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر انهُ ينبغي من قبل انتخاب الامير ان يجتمع مجلس معتبري البلغار اما في « فلبه » واما في « طرنوفا » تحت نظارة مامورين من طرف الروسيا وفي حضور مامورين من طرف الدولة العليّة وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقًا لامثالها اعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة « ادرنه » وعند تاسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالي من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع البلغاريين وتقرر ايضًا احالة تاسيس هذه الادارة الجديدة في البلغار مع ما يلزم من النظر في صور اجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفي انقضاء السنة الاولى من تاسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيا والباب العالي ودول اوربا يكون للدول المشار اليهم حق ان يوظفوا مأمورين يرافقون المأمورين الروسيين

الشرط الثامن . ليس لعساكر الدولة العثمانيّة حق بعد هذا للاقامة في البلغار وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحليّة وان الباب العالي لهُ حق ان يتصرف بالادوات الحربيّة الموجودة في قلاع الطونة التي صار اخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ يناير و لالآلات الحربية الكائنة في مدينتي شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانيّة كيفما شاء وتبقى عساكر الروسيا في البلغار مقيمة الى ان ينتهي ترتيب العساكر الاهليّة الكافلة لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلاً باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الاهليّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليّة ودولة الروسيا وان مدة اقامة عساكر الروسيا في البلغار تكون سنتين والعساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العليّة تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون الفًا ومصروف هولاء العساكر يكون على البلغار ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنة وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

الشرط التاسع . ان المرتب السنوي الذي يلزم على البلغار ايفاؤُهُ للدولة العليَّة يتسلم الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي وهذا البنك يصير تعيينهُ بمعرفة دولة الروسيا والدولة العليَّة وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء اصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضي التي تكون في ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغار تتعهد بالقيام في التعهد الذي على الدولة العليَّة الى شركة سكة الحديد في طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة مع الباب العالي وادارة الشركة المذكورة ومسألة سكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العليَّة وحكومة البلغار وادارة الشركة

الشرط العاشر . ان الباب العالي لهُ حق في مرور العساكر ونقل المهمات والذخائر من الطريق المعينة في داخل البلغار الى الايالات العثمانيَّة التي وراء البلغار ولاجل عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكريَّة العثمانيَّة سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالي والامارة من ابتداء تعاطي هذه المعاهدة الى ثلاثة اشهر في ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظاميَّة فقط دون الباشبوزق والجراكس والعساكر المعاونة والباب العالي كذلك لهُ ان يتعاطى البوسطة عن طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراتهِ فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة اعلاه

الشرط الحادي عشر . ان المسلمين وغيرهم من اصحاب الاملاك اذا ارادوا الاقامة في خارج الامارة لهم ان يحفظوا املاكهم ويؤجروها او يفوضوا امر ادارتها الى من يريدونهُ ثم ان مأمور الدولة العليَّة ومأمور البلغاريين يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمي البلغار وذلك يكون في ظرف سنتين واملاك الدولة والاوقاف يصير تعيين امرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيهِ النفع الزائد لجهة الباب العالي ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والاراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين تباع بالمناداة والمزايدة ويؤخذ ثمنها ويدفع الى ايتام وارامل المصابين في الاحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

الشرط الثاني عشر . ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل نهر الطونة قلعة ما مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربيَّة في مياه

رومانيا والصرب والبلغار سوى السفن الصغيرة والزوارق المختصة والمستعملة في الامور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على اصلها

الشرط الثالث عشر . ان الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق «سنه» وارجاعهِ الى حالهِ السابق ليصلح لمرور السفن منهُ ويتعهد ان يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير فصل ٥٠٠٠٠٠ فرنك من اصل دين لجنة الطونة الى الباب العالي لاجل هذا الامر

الشرط الرابع عشر . ان الاصلاحات التي قدمت الى مرخصي الباب العالي في اول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالاً اجراؤُها بالفعل في بوسنة وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيا واوستريا ويجب ان لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الخراج وان لا يؤخذ شيءٌ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحليَّة ويسد بها عوز الاهالي والعيال الذين اصيبوا في الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الاهالي دفعهُ في كل سنة الى الحكومة المركزيَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولتي الروسيا واوستريا

الشرط الخامس عشر . يتعهد الباب العالي باجراء احكام النظام الاساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالي الذي بينوه مقدماً ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في «ترحاله» و«يانيه» وفي سائر جهات الروم ايلي التي ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالي المحلية في كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالي ليتذاكر مع دولة الروسيا في ذلك

الشرط السادس عشر . ان خروج عساكر الروسيا من ارمينيَّة وارجاع تلك البلاد الى الدولة العليَّة يمكن ان يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالي حالاً باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحليَّة في الولايات التي سكانها ارمن وتأمين المسيحيين من تعدي الاكراد والجراكسة

الشرط السابع عشر . ان الباب العالي سيعلن العفو العمومي عن المتهمين في الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

الشرط الثامن عشر . ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينهُ وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي

الشرط التاسع عشر. ان مبالغ الغرامة الحربية التي طلبها حضرة قيصر الروسيا هي في مقابلة الاضرار والخسائر التي تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ (اولاً) ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التي بليت. (ثانياً) ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجاريَّة وفي طرق الحديد (ثالثاً) ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل بمقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس (رابعاً) ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسيا المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١ر٤١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل يعني ٣٩١ر٢١٧ر٢٤٥ ليرة عثمانية وريال مجيدي ابيض ونصف هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتامل في مقاصدها التي نوهت عنها في هذا الشان ووافق بالقبول على ان تترك الدولة العلية الاراضي المحررة اسماؤها ادناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة. (اولاً). لواء طولجي يعني قضاء كيليا وسنه ومحمودية وايسافجي وطولجي وماجين وباباطاغي وخرسوه وكوستنجة ومجيديه والجزائر الكائنة في نهر الطونة قد تركتها الدولة العلية جميعاً الاَّ ان الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي اخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضي كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مامورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتبارًا من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة. (ثانياً). اردهان وقارص وباطوم وبايزيد مع الاراضي الحاوية عليها الى جبل صوغانلي سيصير تسليمها الى دولة روسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا اعني يبتدىء الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنصبة في نهري «هوبا» و«جورق» ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء «وارتوين» ومن جوار قريتي «والات» و«بشاكت» ومن فوق «درونيك» و«كتي» و«هوجه زار» و«بجقين طاغ» ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهري «تورتم» و«جورف» ومن فوق قراء «يالي» و«هين» و«لم كليسا» الى ان ينتهي الى نهر تورتم ومن هنا يمر من سيوري طاغ ومن مضيق سيوري طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى جهة الجنوب حتى يصل الى «زوين» ومن زوين يمر

من غربي طريق اردوست وخراسان الى جنوب جبل صوغانلي ويتصل بقرية «كيلجان» ومنها يمر من جبل «تريا» ومن قرية خميرومن اون رست مسافة ومن تلال «طاندور» ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبيَّة من «قازلي كول» وهذا المحل هو الحد الفاصل قديماً في ما بين حدود اراضي الدولة العليَّة واراضي دولة ايران وان الاراضي التي صار الحاقها بمالك الروسيَّة ومذكورة في الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفة مأمور من طرف الروسيَّة ومأمور من طرف الدولة العليَّة وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضي وقضيَّة تأمين حسن ادارة القضوات. (ثالثاً). ان الاراضي التي صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر اعلاه قد اعتبرت بمبلغ ١ر١١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل (مليار ومائة وعشرة ملايين روبل) واما الباقي من الغرامة وهو ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل (يعني ثلاثمائة مليون روبل) ماعدا ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسيَّة وتأسيساتها ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العليَّة على قضيَّة دفعها وتأمين ايفائها. (رابعاً) ان العشرة ملايين روبل التي تخصصت لتبعة الروسيَّة ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا اعني ان سفارة الروسيَّة في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشان على مستدعيات ارباب العلاقة وتعرض الكيفيَّة الى الباب العالي والباب العالي يجري التسوية على مقتضى عرض السفارة

الشرط العشرون. ان الباب العالي يتعهد بان يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً في فصل الدعاوي المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيَّة وانهُ اذا اقتضى الامر يدفع غرامة وينفذ احكام الاعلامات

الشرط الحادي والعشرون. ان اهالي البلاد التي تسلمت الى الروسيَّة ان ارادوا الهجرة منها لهم ان يبيعوا املاكهم واراضيهم ويهاجروا وقد اعطي لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هاته المعاهدة فالذين لا يبيعون املاكهم في هاته المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة واملاك الدولة والاوقاف يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مامور الروسيَّة ومامور الدولة العليَّة في مدة السنين المذكورة وهما يتمان ايضاً كيفيَّة نقل الادوات الحربيَّة الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي تسلمت الى دولة الروسيا او غيرها

الشرط الثاني والعشرون. ان القسيسين والزوار الذين يسكنون او يسيحون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والاناطولي من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات

التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سويَّة وسفارة الروسيا الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودين في الاماكن المقدسة وبالخصوص في « اينوروز » فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة في اينوروز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سويَّة

الشرط الثالث والعشرون . ان المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين الدولة العليَّة والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروس المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت احكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجري احكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد اعادوا المناسبات التي كانت قبل هذه الحرب في الامور التجاريَّة وغيرها بمقتضى احكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاتهِ المعاهدة

الشرط الرابع والعشرون. ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان في زمن الحرب او زمن الصلح يكون مفتوحًا للسفن التجاريَّة التي تريد المرور منهُ الى بلاد الروسيا من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس لهُ من بعد هذا ان يضع الحصر الغير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الاسود وبحر الازاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في ٤ ابريل سنة ١٨٥٦

الشرط الخامس والعشرون. ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العليَّة الكائنة في اوربا (الروم ايلي) ما عدا البلغار وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة اشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم ان يأتوا الاساكل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها او تستأجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على اطالة مدة الاقامة في الممالك العثمانيَّة وفي رومانيا واما خروج عساكر الروسيا من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة اشهر ولهم ان يأتوا الى طرابزون لاجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم او القوقاس

الشرط السادس والعشرون . ان اصول الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العليَّة بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانيَّة الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا

ان امير العساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينهُ الباب العالي عن سفر عساكر الروسيَّة وليس للباب العالي ان يجري الاحكام من قبل ان تسلم لهُ القلاع والايالات

الشرط السابع والعشرون. ان الباب العالي لا يجازي احدًا بسوء من تبعتهِ الذين دخلوا في المناسبات مع دولة الروسيا في زمن الحرب وليس لمأموري الدولة العليَّة ان تمنع او توقف احدًا من الاهالي الذين يرغبون ان يسافروا مع العساكر

الشرط الثامن والعشرون . ان اسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت نظارة مامورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقيب تعاطي مقدمات الصلح وهولاء المأمورون يسافرون الى اودسا وسباستبول واما مصروف اسراء العساكر العثمانيَّة تدفعها الدولة العليَّة في ظرف ست سنوات تحت ثمانية عشر قسطًا بموجب الدفتر الذي يحررهُ المأمورون المذكورون واما قضيَّة مبادلة الاسرى فيما بين حكومتي رومانيا والصرب وامارة الجبل الاسود فيصير اجراؤها على هذا الاساس لكن يطرح مقدار الاسرى الذي عند الدولة العليَّة من مقدار اسرى عساكرها ولا تلزمها فيهِ تلك المصاريف

الشرط التاسع والعشرون. ان حضرة امبراطور الروسيا والحضرة الملوكانيَّة سيثبتون هذه المعاهدة وامضاء تثبيتها يكون في بطرسبرغ في ظرف خمسة عشر يومًا او بوجه اسرع من ذلك ان امكن وكذلك يجري التصديق رسميًا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الاصول الجارية في المعاهدات الصلحيَّة وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدون انفسهم رسميًا بانهم متعهدون بان مرخصي الطرفين قد امضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقًا لمضمونها.— حرر في ايا ستفانوس في ١٩ شباط الرومي (فبراير) و٣ ايار (مارس) الافرنجي سنة ١٨٧٨ الامضاء

الكونت اغناتيف صفوت نليدوف سعدالله

لكن انكلترا لم تسمح بالاقرار بذلك حتى ادخلت اسطولها بحر مرمرا وعاضدتها بقيَّة الدول في طلب تعديل تلك المعاهدة وعقدوا لذلك مؤتمرًا في برلين وارسى الامر فيهِ على معاهدة نص تعريبها

بسم الله القادر على كل شيء

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندة وامبراطورة الهند وحضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة

امبراطور جميع الروسيا يريدون لاجل اقرار الراحة العامة في اوربا انهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الاحوال فيها في هذه السنين الثلاث وبسبب الحرب التي عاقبتها معاهدة ايا سطفانوس استقرّ رأيهم جميعاً على عقد مؤتمر يكون احسن الوسائل لاجل الاتفاق بحسب ما تقرر في معاهدة اياسطفانوس وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكيَّة المشار اليهم وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا مرخصين وهم

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطورة الهند عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء انكلترا والاونورابل روبرت ارثر تالبت عاسكون سيسل مركيز صالسبري الذي هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اود وليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الاولى لانكلترا لدى حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا وبرنارد ارنست دوبولوى مستشار الخارجية والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفير المانيا لدى رئيس جمهوريَّة فرنسا

وعين حضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسي وزيرهُ الخاص ووزيرهُ في الامور الخارجية والكونت لويس كارولِيني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا والبارون هنري دوهايل سفيرهُ لدى ملك ايطاليا

وعين حضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا موسيو وليم هنري وادنطون احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وشارل رايموند كونت دوصان فاليه من اعضاء مجلس الاعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وفيلكس ديسبرز المكلف بادارة الامور السياسية في دائرة الخارجيَّة

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتي احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وادورد كونت دولوني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا

وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورچيقوف وزيرهُ في الامور الخارجيَّة والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطوريَّة ومن اعضاء المجلس الخاص وسفيرهِ لدى دولة بريطانيا وپول دوبريل سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيه

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الامور النافعة ومُحمّد علي باشا المشير في عساكرهِ وسعد الله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك

بروسيا فاجتمعوا في برلين بحسب اشارة دولة اوستريا هنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد ان وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية

(المادة الاولى) صارت الآن البلغار امارة مستقلة في امورها الداخليَّة (ادارة مختارة) تدفع خراجاً في كل سنة الى الباب العالي وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة ويكون لها حكومة مسيحيَّة وعساكر وطنيَّة

(المادة الثانية) تكون امارة البلغار عبارة عن الاراضي الآتي ذكرها وهي ان حدود تلك الاراضي من جهة الشمال تبتدئ من حدود الصرب القديمة وتمر عن يمين ساحل نهر الطونة وتنتهي الى محل في شرقي سيلستريا وهذا المحل سيصير تعيينهُ من طرف المؤتمر الذي يشكل من ماموري دول اوربا ومن هنا ايضاً يتصل الحد في البحر الاسود ويمر من جنوب منقاليا التي صار الحاقها برومانيا اما من جهة الجنوب فانهُ يبتدئ من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة « هوجه كوي » و « سلامكوي » و « ابواجق » و « قولبة » و « صوجيلق » على شاطئ النهر الى جهة فوق المحاذية « اوادي قامجق » ومن جنوب « بليبة » و « كمحالق » على بعد من « جنكة » مقدار متر ٢ ونصف ويتجاوز « دلي قامجي » ويمر من شمال « حاجي محله » ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين « تيكنلك » و « ايدوس بروسا » ومنهُ الى بلقان « قرين اباد » وبلقان « ويره زويقه » ومن بلقان « قرغان » الواقع في شمال المحل المسمى « قوتل » الى ان يتصل بجبل « تيمورقبو » وعلى هذا يكون مرورهُ من سلسلة البلقان الكبير الاصليَّة ويمتد على جميع مساحتهِ الى ان ينتهي الى ذروة « قوزيقه » ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتي « پيرتوب » و « دوزنجي » ويغادر قرية بيرتوب المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجي الى شرق الروم ايلي ويتصل بنهر « طوزلي دره » ويسير مع مجرى النهر الى مصبهِ في نهر « طوبولينجه » ثم الى نهر « اسموسكيو » الذي يصب في نهر طوبولينجه المذكور بجوار قرية « پتريجوه » ويترك من الاراضي الكائنة فوق نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر ٢ الى شرقي الروم ايلي ويمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر قامنيقه ويلتفت الى الجنوب الغربي من التل المسمى وونجاق وينتهي رأساً الى النقطة المذكورة في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهمان ويمر من بين بوغدينه وقره ولي ويتصل بالخط في مقسم انهر

المريج فيما بين اسقر وقرلي وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال « ولنيا » و « موغيلا » الى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة « ازمايليقا » و « ره وسومناتيقه » ويدخل من بين « ميوري طاش » و « قادرتبه » ويتصل بحدود لواء صوفية ومن هنا يبتدىء من « قادرتبه » الى جهة الجنوب الغربي ويمر من بين نهر قره صو ونهر « استروما قره صو » ويسير مع خط مقسم المياه ومن تلال الجبال المسماة « تپورقبو » و « اسقوفنيه » و « قاضيمسار بلقان » و « حاجي كدك » تجاه بلقان قابتنيق ويتصل بحدود لواء صوفية القديمة وكذلك يمر من بلقان قابتنيق المذكور ومن بين وادي « ريلسقارقا » ووادي « بسقرارقا » ويسير مع خط مقسم المياه ويدور تل « ودينجه بلانينا » وينزل الى وادي استروما في المحل الذي يختلط به نهر استروما مع نهر ريلسقارقا ويدع قرية « براقلي » للدولة العليَّة ويصعد من جنوب قرية « بلشينقة » الى فوق ويمر من اقصر خط الى سلسلة « غولما بلانيانا » وتل « غينقة » ويتصل بحدود لواء صوفية ويترك كامل منشا صوهارقا للدولة العليَّة ويلتفت الى جهة الغرب من جبل « رجينقا » ويدور جبال قارونا يابوقه وحدود لواء صوفية القديمة من جبل « قرني وره » ويمر من فوق مياه « آكريصو » ولبنيقه ويطلع الى تلال « بابنابولانا » حتى ينتهي ايضاً الى جبل قرني وره المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال « استرزر » و « ويله غوصو » و « مسيدبلانينا » ومن بين « استروما » و « موراوه » مع خط مقسم المياه الى غاسينا وقرنه طراوه ودار فوسقة ودرانيقة بلان وبعدها من فوق دوشا قلادانق ومن مقسم انهر صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو « استول » ومن هنا ينزل الى الطريق الموصلة الى صوفية وبيروته ويقطع في هذه الطريق الف متر ومنهُ عن طريق ويدليا بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل « رادوجينا » الكائن في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية دويقنجي الى صربستان وقرية سناقوس الى البلغار ثم يلتفت الى جهة الغرب ويدور تلال البلقان المسمى سبروق من صوب استاره بلانيا ويتصل بشرقي حدود امارة الصرب القديمة بجوار « تولا اسميلوه قوقة » ويسير على هاته الحدود حتى ينتهي الى نهر الطونة عند « راقويچه » ثم ان هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من وكلاء الدول الممضية على المعاهدة وحصل الاتفاق اولاً على ان هاته اللجنة تنظر بالاعتناء في خصوص محافظة حدود بلقان شرقي الروم ايلي الكائن تحت سلطة الدولة العليَّة وثانياً ان لا يصير انشاء استحكام في اطراف « صماقو » بمسافة ١٠ كيلو متر

(المادة الثالثة) يكون انتخاب امير البلغار من اهلها بحريَّة تامة واقرارهُ من الباب العالي برضى دول اوربا العظام ولا يصح انتخاب امير عليها من بيوت الدول المذكورة فاذا توفي عن غير ولد يكون انتخاب امير بعدهُ على الشروط والاصول المقررة

(المادة الرابعة) بعد انتخاب الامير تجتمع اعيان البلغاريين في طرنوفا لترتيب احكام ونظامات تخص الامارة وفي الجهات التي تكون سكانها من الترك واهل رومانيا والروم وغيرهم يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهم فيما يتعلق بقضيَّة الانتخاب وترتيب الاحكام الاساسيَّة

(المادة الخامسة) المواد الآتية تكون اساساً للحقوق العموميَّة في البلغار وهي « ان الاختلاف في المذاهب والاعتقادات لا يخرج احدًا من الاهليَّة والجدارة من تمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميرية او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فان الحريَّة ومباشرة جميع الاعمال الدينيَّة ينبغي تأمينها لجميع الناس القاطنين في البلغار من اهلها ومن الاجانب ايضاً ولا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة السادسة) تكون ادارة « البلغار الموقتة » تحت ادارة مأمورين من دولة الروسية الامبراطوريَّة الى ان تنتظم فيها القوانين الاساسيَّة ويستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانيَّة والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة اعمال « الادارة الموقتة » المذكورة فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب اكثرية الاراء كما انهُ اذا حصل خلاف بين اكثرية اراء المذكورين والمامورين من طرف امبراطورية الروسية او المامورين من طرف الحضرة السلطانيَّة تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر (كنفرانس) ليقرروا رأيهم على انهاء الخلاف المذكور

(المادة السابعة) تشكيل « الادارة الموقتة » المذكورة لا يبقى اكثر من تسعة اشهر اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة وبمجرد انتخاب الامير تصير مباشرة اجراء الاحكام الجديدة فتصير تلك الاحكام دستورًا للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الاداريَّة (ادارتها المختارة) حوزًا تامًّا

(المادة الثامنة) جميع المعاهدات التجاريَّة والسفريَّة والاتفاقات التي جرت بين الدول الاجنبية وبين الباب العالي والتي لم يزل عملها جاريًا تبقى مرعيَّة الاجراء مع امارة

البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل الى احدى الجهات في مرورها على البلغار وتكون معاملة جميع الاهالي ورعايا الدول وتجارتهم في الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقررة في المعاهدات (التي امضيت بين الدول والباب العالي) مرعيَّة الاجراء في الامارة ما دام لم يحصل تعديلها برضى الدول

(المادة التاسعة) الويركو السنوي الذي يجب على امارة البلغار ان تدفعهُ في كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانيَّة يكون دفعهُ الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي ويكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الاولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعين على هذه المعاهدة وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث انها ستحمل جانبًا من ديون السلطنة العموميَّة يلزم للدول ايضًا ان يتذاكروا على مقدار الدين الذي يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم في امر الويركو

(المادة العاشرة) جميع التعهدات والاتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانيَّة باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسجق تدخل في عهدة امارة البلغار اعتبارًا من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة اما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة وبين الباب العالي فامرها يكون بين الباب العالي وحكومة البلغار والشركة المذكورة وكذلك دخل في عهدة البلغار سائر تعهدات الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد في الروم ايلي فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها في الاراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح

(المادة الحادية عشرة) بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانيَّة في البلغار وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة في ظرف سنة واحدة او اقل من ذلك ان امكن وينبغي لتلك الحكومة ان تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها ان تبني بدلها حصونًا جديدة ويكون للباب العالي حق في ان يتصرف في المهمات الحربيَّة وغيرها من الاشياء التي هي ملك لهُ الباقية في حصون الطونة التي اخلتها العساكر العثمانيَّة بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ جنيواري (كانون الثاني) وكذلك التي في شمله (شمنى) ووارنه

(المادة الثانية عشرة) المسلمون وغيرهم الذين لهم املاك في البلغار ويريدون السكنى

خارجًا عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفيَّة نقل وتشغيل املاك الوقف لحساب الباب العالي والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون في ظرف سنتين ثم ان البلغاريين الذين يسافرون يسكنون في باقي اطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الاحكام والقوانين العثمانية

(المادة الثالثة عشرة) تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة تابعية سياسيَّة وعسكريَّة بشرط ان تكون مشمولة باستقلاليَّة ادارتها ويكون واليها نصرانيًا

(المادة الرابعة عشرة) حدود «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال والشمال الغربي والولاية المذكورة تكون عبارة عن الاراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتي ذكرها «فحد هذه الولاية يبتدىء من البحر الاسود ويسير على النهر الواقع في جوار القرى المسماة هوجه كوى وسلام كوى وايواجق وقوليه وصوجيلق» الى جهة فوق محاذيًا لوادي «دلي قامجق» ويمر من فوق «چكنه» مقدار مسافة كيلومتر ٢ ونصف تقريبًا ويتصل بجنوب قراء «بلبيه» و «قمحالق» ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين «تبكناك» و «ايدوس بره سا» ويمر من بلقان «قرين اباد» و «بره زوبجه» و «قزغان» حتى يصل الى «تيمورقبو» بالجهة الشماليَّة من «قوتل» وبعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهي الى تل «قوزيقه» وفي هذه النقطة اعني من ذروة البلقان الكائن على غربي حدود الروم ايلي ينزل الى جهة الجنوب مارًا من بين قرية بيتروب التي تركت للبلغاريين قرية دوزانس الباقية في الروم ايلي ويصل الى نهر «طوزلي دره» ويسير مع النهر الى مجمعهِ مع نهر طوبوليتقا وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعهِ مع نهر «سموسقيور» في جوار قرية «بتريسووا» وعلى هذا يترك لروم ايلي الشرقيَّة في شطوط مجاري هاتهِ الانهر محلاً مقدار كيلو مترو ٢ ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة ويسير الى جهة فوق على طول انهر «سمو سقبور» و «قامنيقا» ويلتفت الى الجنوب الغربي في تل «ووانجاق» ويصل الى المحل المبين في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودي مجرى نهر «ايجان دره» من الاعلى ويمر من بين «بوغدينا» و «قارولا» حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري «اسقر» و «ماريقا» ويسير على طول الخط الموضح في الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠

من تلال « وولينا موجيلا » و « جمابليقا » و « روه سومناتيقا » ويجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين « سيوري طاش » و « قادر تبه » فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلي والبلغار من جبل « قادر تبه » ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين انهر ماريقا وتوابعه وبين انهر « مستاقره صو » واتباعه تابعًا استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه ويتوجه الى جهتي الجنوب الشرقي والجنوب مارًّا من تلال جبل « دسبوط » الى صوب جبل « كروشووا » وهذا الجبل كان مبدأ الحدد ٱلَّتي عينتها معاهدة اياسطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين في المعاهدة المذكورة اعني انهُ يبتدئ من هذا الجبل ويمر على سلسلة « قره بلقان » من تلال « قولا قلي طاغ واشك جبلي وقره قولاس » وايشيقلر ويسير جهة الجنوب الشرقي حتى ينتهي الى نهر « واردا » ويسير مع هذا النهر على طولهِ حتى يصل الى قرية « اطه قلعه » وتبقى هذه القرية في سلطة الدولة العليَّة ومن هنا يصعد ذروة جبل « بش تبه » ثم ينزل ويمر من جسر « مصطفى باشا » ويتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الانهر الصغار ٱلَّتي تصب في نهري « خانلي دره » و « مريج » ويسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى « كودلربايري » ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق ويمتد الى « صقار بايري» ومنهُ الى وادي « طونجه » والى « بيوك دربند » ويترك « بيوك دربند » «و صوجاق» الى جهة الشمال ثم يسير من بين الانهر التي تصب في نهر طونجه من جهة الشمال وفي نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه ويصعد الى تل « قبيلر » وتبقى قبيلر في الروم ايلي الشرقيَّة ثم يلتفت الى جهة الجنوب ويمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب وبين قريتي « بلورن » و « التلى » ٱلَّتي تصب في البحر الاسود ويصل الى جنوب قرية « المالي » ويدور تلال « ووسنه » و « زواق » من شمال المحل المسمى « قراكلق » ويسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري « دوكه» و « قره اغاج » حتى يتصل بالبحر الاسود

(المادة الخامسة عشرة) يكون للحضرة السلطانيَّة حق في ان تباشر محافظة الحدود البريَّة والبحريَّة وذلك بان تبني في تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر ولتأمين الراحة العموميَّة في ولاية « الروم ايلي » الشرقيَّة يشكل فيها ضبطيَّة وعساكر داخليَّة ومذاهب الاهالي الذين تؤلف منهم هذه العساكر والضبطيَّة تكون مرعيَّة ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانيَّة وقد تعهدت الحضرة السلطانيَّة بان لا توظف في

حصون الحدود عساكر غير نظاميَّة كالباشي بوزق والجراكسة وفي جميع الاحوال لا يسوغ للعساكر النظاميَّة المذكورة ان تتعدى على الاهالي وعند مرورهم في الولاية (لاستقرارهم في الاستحكامات) لا يسوغ لهم الاقامة فيها

(المادة السادسة عشرة) يكون للوالي حق في ان يستدعي العساكر العثمانيَّة اذا حصل ما يخل بالراحة الداخليَّة والخارجيَّة فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالي نواب الدول بالاستانة عن قرارهِ وعن السبب الذي احوجهُ اليهِ

(المادة السابعة عشرة) يكون تعيين والي « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » مدة خمس سنين من طرف الباب العالي باتفاق الدول

(المادة الثامنة عشرة) بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة اورباويَّة للنظر في تراتيب ادارة « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » بالاتفاق مع الباب العالي ومن خصائصها ان تبين في ظرف ثلاثة اشهر وظيفة مأموريَّة الوالي وما لهُ من الاستطاعة وترتيب الولاية الاداريَّة والنظاميَّة والماليَّة ويكون ابتداء اشغالها تنظيم اختلاف احكام الولايات وما حصل عليهِ المذاكرة في الجلسة الثامنة من المؤتمر الذي عقد في الاستانة وبعد ان يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانيَّة فيبلغهُ الباب العالي الى الدول

(المادة التاسعة عشرة) يناط بعهدة اللجنة الاورباويَّة المذكورة بالاتفاق مع الباب العالي ادارة الماليَّة في الولاية الى ان تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها

(المادة العشرون) جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التي جرى تداولها بين الباب العالي والدول الاجنبيَّة او التي ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها في « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » كما هو جارٍ في سائر السلطنة العثمانيَّة وجميع الامتيازات والخصائص التي حازتها الاجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة في الولاية المذكورة وقد تعهد الباب العالي بان جميع احكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الحادية والعشرون) تبقى حقوق الباب العالي وتعهداتهِ فيما يتعلق بسكك الحديد في الروم ايلي الشرقيَّة معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الثانية والعشرون) تكون قوة الروسيَّة في البلغار وفي « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على

٥٠٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التي يتبوأونها وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذي يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلاً عن ذلك تكون بواسطة مراسي البحر الاسود مثل وارنه وبورغاس حتى يمكن لهم ان يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدة اقامتهم وتقرر ايضاً ان اقامة العساكر الامبراطورية في « ولاية الروم ايلي الشرقيّة » والبلغار تكون مدة تسعة اشهر اعتباراً من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسيَّة الامبراطوريَّة انهُ قبل انقضاء هذه المدة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم امارة البلغار

(المادة الثالثة والعشرون) قد تعهد الباب العالي بان يجري في جزيرة كريد النظامات الَّتي تقررت فيها في سنة ١٨٦٨ والتعديلات الَّتي يرى من العدل اجراؤها وكذلك يجري في بقية الولايات نظامات وقوانين على ما تقتضيهِ المصالح الداخليَّة كما في كريد مما لم ينص عليهِ في هذه المعاهدة نصّاً خصوصيّاً الاَّ فيما يتعلق بالغاء الضرائب كما هو جارٍ الآن في كريد ويشكل من طرف الباب العالي لجان مخصوصة يكون اكثر اعضائها من الاهالي للنظر في متعلقات النظامات اللازم اجراؤها في كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالي للتروي فيها وقبل ان يعمل بها وتجعل دستوراً للعمل يلزم الباب العالي ان يستشير اللجنة الاوروباويَّة المنعقدة للنظر في احوال الروم ايلي الشرقيَّة

(المادة الرابعة والعشرون) اذا فرض انهُ لم يقع اتفاق بين الباب العالي ودولة اليونان فيما يتعلق بتعديل الحدود كما تقرر في المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا واوستريا هنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيَّة تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلاً للمذاكرات

(المادة الخامسة والعشرون) تتبوأ عساكر اوستريا وهنكاريا ولايتي بوسنه وهرسك ويناط بها ايضاً امر ادارتهما وحيث انها لا تريد ان تتولى ادارة سنجيقة يكي بازار الممتدة بين الصرب والجبل الاسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميتروونسه فالادارة العثمانيَّة تبقى معمولاً بها هناك وحيث ان المراد اقرار الاحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتأمينها فدولة اوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها قشل وطرق تجاريَّة وعسكريَّة في جميع الجهات المذكورة ولهذهِ الغاية تحفظ لنفسها هي والدولة العثمانية ان تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة

(المادة السادسة والعشرون) قد اعترف الباب العالي استقلال الجبل الاسود

وكذلك اعترفتهُ بقيَّة الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوهُ سابقاً

(المادة السابعة والعشرون) اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على ان استقلال الجبل الاسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية وهي « لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في الجبل فلا يخرج احدٌ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميرية او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للجبل الاسود وللاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة الثامنة والعشرون) قد صار تعيين حدود الجبل الاسود كما سيأتي وهي انها تبتدئ من « ايلينو برودو » وتسير الى شمال « فلوبوق » وتمر من فوق « تره بنيجه » وتصل بمحل « غرانقارو » وتبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك ومنها يصعد الخط الفاصل الى جهة فوق من نهر غرانقارو ويصل الى محل يبعد عن النهر الذي يصب في « سيلمقه » مقدار كيلومتر فقط ومن هنا يسير على اقصر طريق ويصعد الى التلال الَّتي في جوار « ترد بنيجه » ثم يذهب الى « بيلاتوه » ويترك هذه القرية للجبل يسير من التلال الى جهة الشمال وعلى قدر الامكان يمر بعيداً عن طريق « بيلكه » و « قوريتو » و « غاجقه » مقدار ٦ كيلومتر ويصل الى الطريق الكائنة فيما بين « سوبنا بلانينا » وجبل قوريله ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل اورلين ويترك قرية « وارنقوبجي » لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي ويدع « روانه » داخل الجبل ويمر من تلال « لبرسليك » و « ولجاق » ويسير من اقصر طريق وينزل الى نهر « بيوه » ويتجاوز هذا النهر ويصل الى « تاره » الكائنة بين « قرقويقه » وبين « وندوينه » ومن تارة يصعد الى « موجقواق » ويتصل بمحل « سقوبج زرو » ومن هنا الى قرية « صوقولار » ويجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرا بلانينا وتبقى قرية مقرا داخل الجبل ويمر ايضاً من السلسلة الاصليَّة الى الطريق المذكور في خريطة اركان حرب اوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين « ليم » و « درين » وبين « سيونه زم » ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة « قاجي دره قانوبجي وبين قوسقار جنه » و « فلامنتي » و « غرودي » وبعد ذلك ينزل الى صحراء پودغوريجه ويترك قبائل قوسقارجنه وقلامنتي وغرودي وهوتي لبلاد الارناووط ويتصل « بيلاونيقه » ومن هنا يمر من جوار جزيرة « غوريقه طوبال »

ويتجاوز ماء اشقودره ويسير رأساً من « غوريقه » طوبول الى التلال ويمر من مقسم
المياه الكائن فيما بين « مغورد » و « قالجد » مع خط المقسم المذكور ويترك « ميرقويق »
داخل الجبل وينتهي الى بحر ونديك (فينيسيا) عند قرية « فروجي » ثم يلتفت الى
الشمال الغربي ويمر في الساحل من بين قرى « سوسانه » و « زويسى » ويتصل بمنتهى
الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق « ورسوته بلانينا »

(المادة التاسعة والعشرون) انضمام انتواري (باري) وشطوط البحرالتي تخصها الى
الجبل الاسود مشروط على الصورة الآتية وهي ان يعاد على الدولة العثمانيَّة الاراضي
الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بويانا من ضمنها دولسنيجو ويضم الى دلماتيا مرسى سبزا
والاراضي المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبيَّة كما هي مبينة بالتفصيل في الخريطة ويكون
للجبل الحريَّة المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه ولكن لا يسوغ لهُ ان يبني على النهر حصوناً
او استحكامات الأ ما لزم للمحافظة على اشقودرة خاصةً فتكون تلك الحصون والحالة هذه
غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٦٠٠٠ متر او نحو
عشرة اميال) ولا يكون لهُ بواخر حربيَّة ولا راية ولا يسوغ لاي دولة كانت ان
تدخل بواخرها الحربيَّة الى مرسى انتواري اما الحصون الكائنة في ارض الجبل بين
النهر وشط البحرفتهدم بالكليَّة ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوض لعهدة اوستريا وهنكاريا
ادارة البحريَّة والصحيَّة في انتواري وفي شطوط الجبل وعلى الجبل ان يستعمل القوانين
والاصطلاحات البحريَّة على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية في دلماتيا (باوستريا)
وقد تعهدت اوستريا وهنكاريا بان تحمي بواخر الجبل الاسود التجاريَّة ويلزم للجبل ان
يتفق مع اوستريا وهنكاريا على مد سكك الحديد وانشاء طرق عادية في الاراضي التي
دخلت حديثاً في حوزتهِ وعلى تأمين حريَّة المواصلة عليها

(المادة الثلاثون) المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الاراضي التي انضمت
الى الجبل الاسود ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بان يبقوا مالكين
عقاراتهم بايجارها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من
العثمانيين واهل الجبل الاسود لتسوية المسائل التي تتعلق بكيفية نقل الاملاك او حرثها
او ادارتها سواءٌ هي من املاك الوقف او الاملاك الميرية التي للباب العالي فتجري تسوية
جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الحادية والثلاثون) على امارة الجبل الاسود ان تتفق مع الباب العالي على

ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها في الاستانة او في جهات اخرى من السلطنة العثمانية
مما يرى لازماً اما اهل الجبل المقيمون في السلطنة العثمانية او المسافرون فيها فيكونون
تحت احكام الدولة العثمانية على حسب الاصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد
المقررة مع الجبل

(المادة الثانية والثلاثون) يلزم ان عساكر الجبل الاسود تخلي الاراضي ألَّتي هم
الآن مستولون عليها مما لم يدخل في حدود امارة الجبل الجديدة وذلك في ظرف عشرين
يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة او اقل من هذه المدة اذا امكن كذلك
يلزم للعساكر السلطانيَّة ان تخلي في المدة المذكورة الاراضي التي دخلت الان في
حوزة الجبل

(المادة الثالثة والثلاثون) حيث انهُ يلزم الجبل الاسود ان يتحمل جانباً من
الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة ألَّتي دخلت في حوزتهِ بموجب
شروط الصلح تعين نواب الدول الاجنبيَّة في الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب
العالي على اصول عادلة

(المادة الرابعة والثلاثون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية
امارة الصرب ربطتها بالشروط المحررة في المادة الآتية

(المادة الخامسة والثلاثون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في الصرب ضد
احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة
او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع
والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للصرب والاجانب ايضاً الحرية
التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب
المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

المادة السادسة والثلاثون) امارة الصرب تكون مالكة للاراضي الموجودة في ضمن
الحدود الآتي ذكرها وهي ان الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالي ومن مصب نهر
« درينا » في نهرصاوا ويذهب مع المجرى ويترك « ازرونيق وزخار » للامارة ولا يترك
الخط المذكور اعني الحدود القديمة الى « قابونيق » ثم يفترق في ذروة جبل قابونيق
عن الخط المذكور ويسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقيَّة ويمر من
تلال « ماريقا وماردار بلانينا » وهذه التلال هي الخط الفاصل بين انهر « ابلباروسينيقا

وطوبليقا » وعلى هذا تبقى « بره بولاد » للدولة العليَّة وبعدهُ يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين « برونيقا » ومدودجا ويترك وادي مدودجا كلهُ للصرب ويصعد الى تل « قوجاق بلانينا » ويكون هو الخط الفاصل فيما بين الانهر المسماة « بولجنيقا وترنيقا وموروا » ويصل الى تل « بولجنيقا » ثم يذهب من تجاه « قاينابلانينا » الى مجمع انهر « قوانسقا ومورواه » ويتجاوزهُ ويسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهر مورواه في جوار « قوانسقا ونرهدوس » ويتصل « بلانينا ايليجه » فوق « ترغويست » ومن هنا اعني من ذروة جبل ايليجه يمتد الى ذروة جبل « قلتروق » ويمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و١٠٤٧ ومن « باينا غورا » وينتهي الى جبل « قرني وره » ثم يبتدئ من هذا الجبل ويجتمع بحدود البلغار يعني يمر من تلال « استره سرو ويلوغلو ومسيد بلانينا » ويسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و « مورواه » وينتهي الى المحلات المدعوة « غاسينا وقرنه تراوه ودارقوسقوه ودرابنيقه بلان » وبعدها يمر من فوق « دشاني قلادنق » ومن اعلى مقسم مياه « صوقوه ومورواه » ويذهب رأساً الى « استول » ومن هنا ينزل الى قرية « سفوزه » من جهة شمالها الغربي ويقطع طريق « بيروت » بمسافة مقدار الف كيلومتر عن صوفية ويصعد على خط مستقيم الى « ويدليق بلانينا » ويمر من جبل « رادوچينا » الواقع في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية « دوقنجي » لامارة الصرب وقرية « سناقوس » الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربي ويمر من بلقان « سيروق » ومن « استارا بلانينا » ويصعد الى تلال البلقان وفي جوار « قولا اسميلجوه قوقا » يتصل بحدود الصرب الشرقيَّة القديمة ويسير على هذه الحدود الى نهر الطونة وينتهي عند النهر في « راقويجه »

(المادة السابعة والثلاثون) لا يغير شيءٌ في الصرب من الشروط الحاليَّة فيما يخص العلاقات التجاريَّة الكائنة بين الممالك الاجنبيَّة وبين امارة الصرب الى ان يجري بدلها اتفاقات جديدة ولا يسوغ ان يؤخذ على البضائع الَّتي تمر في الصرب مرسلة الى جهة أُخرى شيءٌ من العوائد او الرسومات اما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبيَّة في الصرب وحقوق الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الاصول المعمول بها الآن فتبقى مرعيَّة الاجراء الى ان يحصل اتفاق بين امارة الصرب والدول الاجنبية على تعديلها

(المادة الثامنة والثلاثون) التعهدات الَّتي تعهد بها الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا او مع شركة سكة الحديد في الروم ايلي او فيما يتعلق باتمام السكك الحديديَّة وتشغيلها في الاراضي الَّتي دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عند امارة الصرب وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجري اتفاق بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل

(المادة التاسعة والثلاثون) المسلمون الذين يملكون عقارات في الاراضي الَّتي انضمت الى الصرب ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم الحريَّة بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بتأجيرها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وستتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين والصربيين لاجل تسوية جميع المسائل الَّتي تتعلق بكيفية نقل وادارة الاملاك المتعلقة بالوقف او الاملاك الميريَّة الَّتي للباب العالي وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الاربعون) تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية او المسافرين فيها بحسب اصول الاحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى ان تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب

(المادة الحادية والاربعون) يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الاماكن الَّتي لم تدخل في حوزة امارتهم في ظرف خمسة عشر يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم العساكر السلطانية ان تخلي في المدة المذكورة الاماكن التي دخلت في حوزة الامارة

(المادة الثانية والاربعون) حيث انهُ يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة الَّتي حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الاجنبيَّة في الاستانة يعينون مبلغ قيمة الاراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي

(المادة الثالثة والاربعون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية رومانيا ربطتها بالشرطين الآتيين

(المادة الرابعة والاربعون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في رومانيا ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة بجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنية والسياسية بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العمومية او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف

المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين لرومانيا والاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواء كانوا من التجار او غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة

(المادة الخامسة والاربعون) امارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسية اراضي بيسارابيا أَلَّتِي كانت انفصلت من الروسية بموجب معاهدة باريس أَلَّتِي امضيت في سنة ١٨٥٦ وحدودها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث وفي الجنوب من نهر « كيليا » وفم « ستارى استانبول »

(المادة السادسة والاربعون) يضم الى رومانيا الجزر الثلاثة أَلَّتِي على الطونة وجزر «يلان طاغ» وسنجقية طولجي وهي تشمل قضاآت كيليا وسولينا ومحمودية وزانجه وطولجي وماجين وبابا طاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيديَّة وما عدا ذلك يعطى لها ايضاً الاراضي الكائنة على جنوب الدبروجه الى ان تصل الى خط يبتدىء من شرق سيليستريا ويمتد الى البحر الاسود على جنوب منغاليه ويكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الاوروباوية المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار

(المادة السابعة والاربعون) مسألة تقسيم المياه والصيادة تعرض على لجنة الطونة الاوروباويَّة فتكون حكماً عليها

(المادة الثامنة والاربعون) لا يجوز وضع رسومات او عوائد في رومانيا على السلع أَلَّتِي ترد اليها بقصد ارسالها الى جهة اخرى

(المادة التاسعة والاربعون) يسوغ لرومانيا ان تعقد مع الدول الاجنبيَّة اتفاقاً لتسوية مسألة امتيازات ووظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الامارة الآ ان الحقوق الحاليَّة تبقى مرعيَّة الاجراء ما دام لم يحصل اتفاق عمومي بين الامارة والدول

(المادة الخمسون) تبقى رعيَّة رومانيا القاطنون في الممالك العثمانيَّة او المسافرون فيها او رعايا العثمانيين المسافرون في رومانيا او القاطنون فيها متمتعين بالحقوق أَلَّتِي تشمل رعايا بقية الدول الاوروباوية الى ان تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا

(المادة الحادية والخمسون) تعهدات الباب العالي ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما اشبهها في الاراضي أَلَّتِي دخلت في حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا

(المادة الثانية والخمسون) لاجل زيادة تأمين حريَّة السفر في نهر الطونه أَلَّتِي اعترف انها من المصالح الاوروباويَّة قرّ رأي الموقعين على هذه المعاهدة بان جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذي يقال لهُ « ابواب الحديد » الى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونة منحدر « ابواب الحديد » الاَّ البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر وخدمة الكمارك ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لاجل الحراسة ان تسافر في النهر الى غاية « غلاتس »

(المادة الثالثة والخمسون) تبقى لجنة الطونة الاوروباويَّة مقررة في وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجري اعمال وظائفها الى «غلاتس» بحريَّة تامة مستقلة عن مداخلة مأموري تلك الاراضي وتبقى ايضاً سائر معاهداتها واتفاقاتها واشغالها واعمالها وقراراتها فيما يتعلق بامتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء

(المادة الرابعة والخمسون) قبل نهاية الاجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الاوروباويَّة بسنة واحدة يلزم للدول ان يتفقوا على تطويل سلطتهم او على التعديلات أَلَّتِي يرون اجرائها من اللازم

(المادة الخامسة والخمسون) جميع النظامات المتعلقة بالسفر في النهر وبوظائف الضبطية فيهِ من « ابواب الحديد » الى « غلاتس » يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاوروباويَّة بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة او أَلَّتِي ستحدث في امور النهر اسفل من غلاتس

(المادة السادسة والخمسون) يلزم للجنة الطونة الاوروباويَّة ان تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر « يلان طاغ »

(المادة السابعة والخمسون) قد فوض لاوستريا وهنكاريا الاشغال اللازم اجراؤها لازالة موانع السفر التي تحدث من « ابواب الحديد » والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة ان تجري جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الاشغال اما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندرا أَلَّتِي امضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فيما يتعلق باخذ ضرائب موقتة لسد مصاريف تلك الاعمال والاشغال فتبقى منوطة بدولة اوستريا وهنكاريا

(المادة الثامنة والخمسون) الباب العالي يسلم الى امبراطوريَّة الروسية في اسيا

(الاناطول) اراضي اردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الاراضي الكائنة بين تخوم الروسية والتركية القديمة والتخوم الآتي بيانها وهي « الحدود الجديدة » تبتدىء من البحر الاسود على حسب الخط المقرر في معاهدة اياستفانوس الى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من « خورده » وعلى جنوب « ارتوين » وتمتد على خط مستقيم الى نهر « جوروك » وبعد عبورهِ هذا النهر يسير شرقي « اشمشين » ويستمر على خط مستقيم في الجنوب وهناك يلاقي حدود الروسية المشروحة في المعاهدة المذكورة وذلك في نقطة على جنوب «ناريمان» مع بقاء مدينة «اولتي» في حوزة الروسية ثم يبتدىء الخط بالقرب من « ناريمان » الى الجهة الشرقية ويكون مرورهُ من « تربنيق » وبعد دخول مدينة تربنيق في حوزة الروس يسير الى « بنك شاي » مجاريًا نهرهُ الى ان يصل الى « باردوز » وبعد دخول مدينة باردوز ويكي كوى في عهدة الروسية يؤخذ نقطة من غرب قرية « قره اوغان » تجعل الحدود عليها على خط الى ان يصل الى « مجنجرت » ومنها على خط مستقيم الى ان يصل الى تلال « تباداغ » فيستمر على خط مصب نهر « الاركس » في الشمال ومصب نهر « مرادصوى » في الجنوب الى ان يصل الى حدود الروسيا القديمة

(المادة التاسعة والخمسون) امبراطور الروسية يصرح هنا بان غاية مقصده ان يجعل باطوم مرسىً حرًّا (معنى حر ان تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول او الخروج)

(المادة الستون) تعيد الروسية على تركية اودية الشغراد ومدينة « بايزيد » ٱلَّتِي سلمت للروسية بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس وقد سلم الباب العالي الى مملكة ايران مدينة « قطور » واراضيها كما قرَّ عليهِ رأي اللجنة الانكليزيَّة والروسيَّة ٱلَّتِي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركية وايران

(المادة الحادية والستون) الباب العالي يتعهد بان يجري بدون تأخير في الولايات ٱلَّتِي سكانها من الارمن سائر الاصلاحات والتحسينات ٱلَّتِي تحتاج اليها امورها الداخليَّة وان يتعهد بتأمينهم من تعدي الجراكسة والاكراد عليهم ويفيد الدول الاجنبية المرة بعد المرة التشبثات ٱلَّتِي اتخذها لهذه الغاية وهي تراقب كيفية اجرائها

(المادة الثانية والستون) حيث ان الباب العالي اظهر رغبتهُ في ابقاء اصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعًا مطلقًا فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل فلا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في جميع اطراف السلطنة العثمانية

حتى يخرج احدًا عن الاهليَّة والجدارة بجميع مايتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ ويؤذن لجميع الناس بان يؤدوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز احد في الدين واستعمال سائر الامور الدينيَّة يكون بحريَّة فلا يكون مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس (اصحاب الرتب الكنائسيَّة) والزوار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون في الممالك العثمانيَّة في الروم ايلي والاناطول حائزين حقوقًا واحدة وامتيازات وخصائص واحدة وفوض الى القناصل ونواب الدول الاجنبيَّة في تلك الممالك حق في حماية اولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينيَّة والخيريَّة حماية رسميَّة في الاماكن المقدسة او غيرها اما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الاجراء وصار من المعلوم المقرر هنا انهُ لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة في الاماكن المقدسة اما زوار جبل اثوس من اي جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة ويبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق والمزايا

(المادة الثالثة والستون) تبقى معاهدة باريس ٱلَّتِي امضيت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ ومعاهدة لندرة ٱلَّتِي امضيت في ١٣ مارس ١٨٧١ مرعية الاجراء وذلك فيما يتعلق بالمواد ٱلَّتِي لم تنسخها ولم تعد لها هذه المعاهدة

(المادة الرابعة والستون) يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة اسابيع او اقل ان امكن وللشهادة بذلك اثبت الموقعون اسماءهم على هذه المعاهدة بعد ان وضعوا عليها اختامهم

تحريرًا في برلين في اليوم الثالث عشر من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٧٨

الامضـــــــــــــاء

فون بسمارك	صالسبري	هايمول	شوفالوف
فون بولوى	اودروسل	وادنطون	دوبريل
هوهنلوه	كورتي	صان فاليه	قره تيودوري
اندرامي	لاوني	ديبريس	مُحَمَّد علي
كارولي	غورجيقوف	بكنسفيلد	سعد الله

وعند الاخذ في العمل بمقتضى هذه المعاهدة طلبت الروسيا عقد معاهدة نهائية لتصحيح ما سلم من معاهدة صان استيفانوس لتخرج عساكرها من الاراضي العثمانيّة فاستقر الامر على معاهدة تعريبها

(المادة ١) يقع بعد هذا صلح ووداد بين السلطنتين

(المادة ٢) قد وقع الاتفاق بين الدولتين على ان تصرحا بان المواد ألّتي تضمنتها معاهدة برلين ألّتي صار اجراؤها بموجب توسط الدول السبع جرى العمل بها عوضاً عن شروط صلح معاهدة اياسطفانوس ألّتي صار تعديلها او تبديلها في مؤتمر برلين

(المادة ٣) جميع مواد معاهدة اياسطفانوس ألّتي لم يحصل تبديلها او تعديلها او الغاؤها في معاهدة برلين جرت تسويتها في المواد الآتية من هذه المعاهدة تسوية قطعيّة

(المادة ٤) بعد اسقاط قيمة الاراضي التي سلّمتها تركية الى الروسية بموجب معاهدة برلين يبقى مبلغ الغرامة الحربيّة المتعين على الباب العالي اداؤهُ ٨٠٢ر٥٠٠ر٠٠٠ فرنك وكيفيّة اعطاء هذا المبلغ والضمان عليهِ تكون بالاتفاق بين دولة الحضرة العليّة السلطانيّة ودولة قيصر الروسية ما عدا ما صرح بهِ في المضبطة الحادية عشرة من معاهدة برلين فيما يتعلق بالغرامة الارضيّة والحقوق الاولوية المختصة بالذين لهم مطالب على الدولة العليّة

(المادة ٥) مطالب رعيّة الروسيّة القاطنين في تركية بصفة تعويض عن الضرر الذي حصل لهم في مدة الحرب الاخيرة تعطى عند رؤيتها وتسويتها بمعرفة سفارة الروسية بالاستانة واطلاع الباب العالي عليها وعلى كل حال لا يمكن ان تزيد على ٢٦ر٧٥٠ر٠٠٠ فرنك ويلزم تقديمها الى الباب العالي في ظرف سنة واحدة اعتبارًا من يوم مبادلة هذه المعاهدة المصدق عليها وبعد مضي سنتين لا يقبل الباب العالي شيئًا منها

(المادة ٦) يعين من طرف الباب العالي ومن طرف دولة الروسية مأموران مخصوصان لتسديد حساب تموين العساكر العثمانيّة الذين كانوا اسرى في الحرب الاخيرة وهذه المصاريف تعين الى يوم التوقيع على معاهدة برلين ويسقط منها المبلغ الذي صرفتهُ الدولة العثمانية على مؤونة الروس الذين كانوا اسرى عندها وبعد تسوية هذا الحساب يدفع الباب العالي المبلغ الى الروسية في احد وعشرين قسطًا متساوية يكون دفع آخر قسط منها في ظرف سبع سنين

(المادة ٧) سكان الاماكن التي الحقت بالروسية الذين يريدون الاقامة في غيرها يسوغ لهم الخروج منها بحريّة تامة كما انهُ يسوغ لهم ايضاً بيع املاكهم وعقاراتهم «الغير المنقولة» ولاجل هذه الغاية تعطى لهم مهلة ثلاث سنين اعتبارًا من يوم التصديق على هذه المعاهدة فاذا انقضت هذه المدة ولم يخرجوا من الاماكن ولم يبيعوا عقاراتهم يصيرون رعية للروسية

(المادة ٨) قد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بان لا يعاقبوا او يسببوا معاقبة رعيّة الدولتين الذين كان لهم علاقة او مشاركة مع عساكرها في الحرب الاخيرة واذا اراد احد من العثمانيين ان يتبع عساكر الروس عند خروجهم من ارض الدولة العلية فلا يسوغ لمأموري هذه الدولة ان يمنعوهم

(المادة ٩) منحت رعيّة الدولة العثمانية الذين اشتركوا في الانقلاب الاخير الذي وقع في ولاياتها بالروم ايلي الامان والعفو التام بحيث ان كل من حبس منهم لهذا السبب او نفي او ابعد من بلادهِ يعفى عنهُ ويخول الحريّة التامة

(المادة ١٠) جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي كانت حاصلة بين الموقعين على هذه المعاهدة فيما يتعلق بالاحكام وحال رعيّة الروسية القاطنين في تركية ثم الغيت بسبب الحرب الاخيرة تصير معمولاً بها كما كانت سابقاً فتبقى علاقة كل من الدولتين من جهة تعهداتها وعلاقتها التجاريّة وغيرها على الحالة ألّتي كانت عليها قبل الاعلان بالحرب ماعدا ما صرح بهِ في هذه المعاهدة او في معاهدة برلين

(المادة ١١) يتشبث الباب العالي بالوسائط الفعالة لتسوية جميع الدعاوي والمنازعات المختصة برعية الروسية الموقوفة منذ بعض سنين ويعطى لهم تعويض اذا اقتضتها الحال مع المبادرة الى انهاء جميع الدعاوي التي صدر بها لهم اعلامات وقرار من المجالس

(المادة ١٢) بعد التصديق على هذه المعاهدة يقع تبادلها في صان بطرسبرج في ظرف اسبوعين او اقل اذا امكن

تحريرًا بالاستانة العلية في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩

فتلخص مما تقدم ان سائر الممالك العثمانيّة هي آمنة للوارد عليها واحكام الدولة المعلنة بها لكل من حوتهُ ممالكها شرعيّة سياسيّة منظمة ولها مجلس شورى ومجلس اعيان

ومجلس مبعوثان (نواب) وان اعترض الآن من القلاقل الخارجيّة ما اوجب تأخير اجتماع المجلسين الاخيرين لاتمام اجراء الاصلاحات حقيقة واما تعيين قواها البريّة والبحريّة والدخل والخرج فقد تقدم ذكرهُ مع بقيّة الدول

الى هنا وقف بالمؤلف رحمهُ الله القلم * وبذلك اختتم هذا الكتاب وتم

تقاريظ

كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

مكتوب

وارد من فخر العلماء والاشراف السيد علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة سابقا حرسها الله

الحمد لله تعالى

حضرة العالم العلامة والحبر الفهامة الملاذ الافخم والماجد الهام الاكرم مولانا الشيخ مُحَمَّد بيرم ادام الله النفع بهِ امين

بعد اداء تحيات عاطرة . واشواق متكاثرة. هو اني بعد ان تشرف ناظري بالمرور على جملة صالحة من تحريراتكم البديعة العالية المنار . وجدتها جديرة بما سميت بهِ من صفوة الاعتبار . بمستودع الاقطار والامصار . اضاء بسياحتي فيها ناظري . وتنزه من الغموم بجولاني بها خاطري . كيف وهي خريدة غراء عربيّة الّا انها غريبة في بلاد الروم . وعروس تجلت في منصتها الّا انها لا يكافئها كل خاطب لها يروم . اشرقت فيها كواكب التدقيق . واضاءت في آفاقها شموس التحقيق . ابدعتم معانيها واحسنتم . واحكمتم مبانيها واتقنتم . فنشكر الله تعالى لكم حسن هذا الصنيع . واسالهُ تعالى دوام النفع بكم لكل وضيع ورفيع . وها هي بيد الخادم عائدة اليكم . بمعية عريضتنا هذه النائبة عنا في لثم اياديكم . ودمتم . في عز كما رمتم

في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٠٠

مستمد دعواتكم الصالحة

علوي بن احمد السقاف

ترجمة مكتوب

وارد عن لسان صاحب الحشمة ملك السويد والنوروج اوسكار الثاني من مدينة اوبسالا
بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩

حضرة السيد

بأمر من جلالة الملك الشرف بأن اخبركم بورود تأليفكم الموسوم بصفوة الاعتبار الذي تفضلتم بتقديمهِ الى مقامهِ السامي بصفة كونهِ حامياً ورئيس شرف للمؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين وقد كلفني جلالتهُ بان ابلغ سيادتكم جزيل شكره على هذه المديَّة النفيسة وتفضل يا حضرة السيد بقبول فائق اجلالي واحترامي رئيس الكتّاب

دوسيلسنغ

واسم الكتاب مذكور في الصحيفة ٦٣ من فهرسة الكتب التي قدمت الى جلالة الملك المشار اليهِ بتلك المناسبة

ترجمة مكتوب وارد باللغة التركيَّة

من اكمب كتاب عصرهِ الوزير المرحوم سعدالله باشا سفير الدولة العلية في ويانه سابقاً
من مدينة ويانه بتاريخ ٤ مايس ١٨٨٨

فضيلتلو افندم حضرتلري

وصلت ليد الاعزاز نميقتكم الكريمة واني لفي غاية الابتهاج ممَّا تفضلتم باظهارهِ في حق هذا العاجز من آثار توجهاتكم الوداديَّة وارجوكم قبول عذري لتأخري عن المبادرة بالاجابة. هذا واني اتباهى بوقوفي بالخبر على ما كنت اسمعهُ بالخبر عن فضائل ذاتكم العالية وكمالاتكم المشهورة وانكم تحرير صاحب قلم اوقفتموهُ لخدمة الملة والمدنيَّة الاسلاميَّة واقبالها وترقيها وقد حفظت ذكرى ملاقاتنا التي تشرفت بها عند ما حضرتم الى اوربا لتبديل الهواء واهنيكم على توفيقكم لتحرير رحلتكم المسماة بصفوة الاعتبار المشحونة بالفوائد العميمة التي اتحفتموني بنسخة منها لطفاً منكم وتكرُّماً « فخير الناس من ينفع الناس » واني ارجو ان لا تنسوني من دوام توجهاتكم والامر لسيدي في كل حال سعد الله

فهرست

الجزء الخامس من صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

صحيفة

ترجمة

المرحوم السيد محمد بيرم الخامس

هو السيد محمّد بن مصطفى بن محمّد الثالث بن محمّد الثاني بن محمّد الاول بن حسين بن احمد بن محمّد بن حسين بن بيرام حضر الى تونس قائدًا على احدى فرق الجيش العثماني عند فتحها من يد الاسبانيول على يد الصدر الاعظم سنان باشا سنة ٩٨١ هجريّة وقد تزوج بيرام بنتًا من آل ابي عبد الله بن الابار القضاعي صاحب كتاب التكملة وإعتاب الكتاب وهو الذي ارسلهُ صاحب بلنسية زيان بن ابي الحملات الى صاحب افريقيّة (تونس) ابي زكريا يحيى بن ابي حفص يستغيث بهِ لما حاصرهُ ملك برشلونة الاسبانيولي فانشدهُ قصيدتهُ المشهورة التي اولها

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا   ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد قدر الله ان الاسطول الذي ارسلهُ صاحب تونس لم يصل في الوقت المناسب لانجاد الاندلسيين فرجع ابن الابار لتونس حيث استوطن بها سنة ٦٣٥ وقد امهرها بيرام اربعة آلاف ريال هذا هو المنشأ الاصلي لهذه العائلة

وقد ولد السيد محمّد بيرم بمدينة تونس في المحرم سنة ١٢٥٦ هجريّة الموافق لمارس سنة ١٨٤٠ ميلاديّة وامهُ بنت الفريق محمود خوجه وزير البحريّة بالايالة التونسيّة وامها بنت الغماد ذي الشرف المعروف ويتصل نسب آل بيرم

بالسادة الاشراف من جهات اخرى ايضًا اهمها جهة محمد بيرم الاول فان والدتهُ بنت السيدة الشريفة حسينة بنت محمّد بن ابي القاسم بن محمّد بن علي بن حسن الهندي الشريف وهذا السيد قدم الى تونس واجمعت عامتها وخاصتها على الاعتقاد بنسبهِ الطاهر والتبرك بهِ ونسلهُ فيها بركة اهل تونس الى الآن اما نسبهُ فيتصل الى الحسين السبط عليهِ السلام وقد تولى محمّد بيرم الثاني نقابة الاشراف في حياة ابيهِ مضافة الى خطة القضاء التي كانت بيدهِ سنة ١٢٠٦ واستمرت النقابة في يد ولدهِ محمّد بيرم الثالث وحفيدهِ محمّد بيرم الرابع الى حين وفاتهِ سنة ١٢٧٨ كما ان رئاسة المفتيين الحنفيّة المعبر عنها في تونس بمشيخة الاسلام استمرت في يدهم ويد ابيهم محمّد بيرم الاول من ذي القعدة سنة ١١٨٦ الى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ اي احدى وتسعون سنة وستة اشهر ولم تنقطع الاَّ مدة قليلة بين وفاة بيرم الاول وولاية بيرم الثاني . وكان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم الاَّ القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكريّة فاجتمع لهذه العائلة خدمة الدين من الطريقين طريق العلم وطريق الجهاد حتى ان احمد بيرم توفي بجراحة اصابتهُ في محاربة الجزايريين لمراد باي امير تونس اذ ذاك سنة ١١١٢ وكان هذه الخدمة السياسيّة اثرت في صاحب الترجمة مع قرابتهِ لوزير البحريّة حينئذٍ فصار لهُ ميل كلي للتداخل في الامور الملكيّة ومعرفة احوال الحكومة وقد كان جدهُ محمود خوجه رام ادخالهُ في الخدمة العسكريّة لولا ممانعة عمهِ شيخ الاسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة الى جامع الزيتونة وقرأ على مشائخ الوقت المعدودين ولم يمنعهُ ذلك عن اشتغال فكرهِ بما يهواه من

امور الادارة مع تباعد اهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم وقد جرت عادة الكثير من العلماء والادباء بتونس ان يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونهُ "كناشا" يجمعون فيهِ ما يحلو لديهم اجمعهُ من انشاآتهم او انشاآت غيرهم علميَّة وادبيَّة نظماً ونثرًا متضمنة الفوائد المختلفة في فنون ومعانٍ شتى وقد خطى صاحب الترجمة على خطاهم وعمرهُ سبعة عشر سنة واول ما افتتح بهِ كتابهُ ما تجمع لديهِ من اوامر وقوانين وانظامات في شؤون الحكومة اصدرها اذ ذاك صهرهُ الامير محمَّد باشا وهذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة وتعلقهِ باحوال السياسة وقد كان في حال صباهُ يرى العربان يفدون على والدهِ وهو مشغول بالزراعة يتضجرون ويتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام وتشديدهم في نهب الاموال بسائر الطرق الَّتي اخترعوها في ذلك الوقت مما هو مبسوط في الكلام عن سياسة تونس الداخليَّة في صفوة الاعتبار فاثر فيهِ نحيبهم وبكاؤهم فاوقف حياتهُ من ذلك العهد على الانتصار للرعايا وتخفيف الاستبداد عليهم والسعي وراء نشر القوانين وتأسيس المجالس النيابيَّة والميل بكل جوارحهِ للحريَّة مع ما جرت بهِ العادة من تباعد ذوي البيوتات عن مثل ذلك حتى لقد بلغ به الولع بالحرية وحب المجالس الشوروية ان تخالف رأيًا يومًا وهو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع ابيهِ وابن عمهِ عندما افتتح الامير الصادق باشا المجلس الاكبر واسس قوانين عهد الامان (كونستيتسيون) فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستحدثات ويتوسم فيها خيرًا للبلاد وذانك يخالفانهِ مع ان احدهما كان من جملة اعضاء المجلس لما غرس في اذهان اصحاب

البيوتات من التنحي عن مثل هذه المستحدثات الَّتي لا تروق في اعين حكامهم وبعد وفاة عمهِ الشيخ بيرم الرابع ولاهُ الامير مشيخة المدرسة العنقيَّة في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ فباشر التدريس فيها ومن عادة علماء تونس من مشايخ المدارس ان يقرأوا فيها صحيح البخاري خصوصاً في الاشهر الثلاثة المكرمة واعتبارًا من ١٥ رمضان يبتدئ كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأهُ وذلك بان يتلو الحديث الشريف الذي وقف عليه ويكتب عنهُ ما يعن لهُ من الشروح والتعليقات ويكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر الى قريب الغروب وتتوالى الاحتفالات المذكورة الى الليلة السابعة والعشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة ودور المدرسة العنقيَّة في اليوم الخامس والعشرين منهُ وقد حضر الامير بنفسهِ ذلك الختم في تلك السنة تشجيعاً للشيخ الجديد وكان حديث الختم قوله عليهِ الصلاة والسلام "ان امتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين فمن استطاع منكم ان يطيل غرتهُ فليفعل" وفي ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ صار مدرساً في جامع الزيتونة من الطبقة الثانية وفي ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ رقي مدرساً من الطبقة الاولى فاستمر مباشرًا للتدريس مشغولاً بادارة املاكهِ وعقاراتهِ واموره الخصوصية وتوفي والده الى رحمة ربهِ في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ وترك لهُ ثروة عظيمة وفي تلك الاثناء ظهرت الفتنة العموميَّة في الايالة التونسية متسببة عما كان يتوقعهُ ويخشاهُ من عاقبة ظلم الرعيَّة واستبداد الحكام وقبيل ذلك اقفلت المجالس الشورويَّة الَّتي كان صاحب الترجمة يتولع بها ويهواها ولا يتوسم لخير المملكة سواها وكأن ذلك اثر عليهِ تأثيرًا شديدًا حتى انهُ كاتب احد

اصدقائهِ من امراء المسلمين المقيمين باوربا بما نص محل الحاجة منهُ " فيا لها مِنْ حال . يرثي لها من رام النزال . وتخر لشدتها شامخات الجبال . الى ان قال فقد فاز من نهض بنفسهِ . واستراح من فتنة باطنهِ وحسهِ . اذ الآيات وردت على ذلك ناصة . فقال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . ففاز المخففون . وابتلى المتأهلون . ووالله العظيم . ونبيهِ الكريم . طالما نهضت عزائمي الى الترحال . فاثقلتني قيود العيال . مع ما انا عليهِ من الوحدة عن اخ شقيق . اوقريب يخلفني فيهم عند الضيق . ولم استطع التخلص بكلي . الا لا يخفى مما يثقل كلي . واقسم بالقرآن . وصفات الرحمن . انني عرضت للبيع املاكي . لاتخلص بها من اشراكي . واستعين منها بالاثمان . فلم اجد من يصرف لهذا الوجه اي عنان . ولو من اعيان الاعيان . الخ " (والمكتوب كلهُ منشور في الصحيفة ٣٦ من الجزء الثاني من صفوة الاعتبار) ومن ذلك الحين اشتد اتصالهُ بالوزير خير الدين باشا اذ كان هو رئيس المجلس الاكبر الذي الغي وكانت مناسبة الوصلة بينهما حبهما للحرية وتعميم الشورى في المملكة وهما كما لا يخفى القوّتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشي ولذلك فانهُ لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى في تونس في رمضان سنة ١٢٩٠ كان صاحب الترجمة من اكبر انصارهِ ومحازبيهِ وتظاهر بذلك تظاهرًا كليًا حتى نشر في الرائد التونسي الذي هو جريدة الحكومة الرسميَّة مكتوبين اظهر فيهما انبساط الاهالي من تغيير الوزارة وبين غلط المنتصرين للحاكم السابق وانهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد وكان بذلك اول تونسي جاهر بآرائهِ السياسيَّة في الجرائد تحت امضائهِ على ما اظن وزاد

على هذا التظاهر الادبي بان سعى في اعمال تظاهر ماديّ وذلك بان اتفق مع علماء جامع الزيتونة على اقامة احتفالات في الجامع شكرًا لله على انقاذ البلاد من عهد الجور وادخالها في عصر الاطمئنان والرجوع لعهد الامان وحصل بالفعل ذلك الاحتفال واعقبهُ كثير مثلهُ في جهات الحاضرة وبقيَّة بلدان المملكة فكانت نهضة حقيقيَّة وطنيَّة صادرة عن اخلاص نيَّة حبًّا في الحريَّة واستقامة الاحكام ولما استقرَّ الوزير المشار اليهِ في المنصب ووجه عزيمتهُ لاصلاح الادارة رأى ان الاوقاف مشتتة قد استولت عليها ايدي الخراب والاطماع فرأى ان جمعها في ادارة واحدة يكفل حفظها ويجمع ريعها فيصرف في اوجههِ المشروعة وذلك على النحو الجاري في دار الخلافة السعيدة وقد رأى الوزير ان يعهد الى صاحب الترجمة امر هذه الادارة الجديدة لما يعهده فيهِ من معرفتهِ بالاحكام الشرعيَّة واطلاعهِ على المقتضيَّات الوقتيَّة فامتنع المرحوم اولاً من قبول اي وظيفة كانت لانهُ لم يكن يميل الى التقيد بشيءٍ ما يمنعهُ عن السعي وراء ضالتهِ المنشودة وهي الحريَّة للرعيَّة ودخولهُ في الوظائف يجعلهُ بلا ريب مقيدًا مع الوزير بالآداب الَّتي تقتضيها الوظيفة اما بقاؤه خارجًا عن دائرة الحكومة فيبقيهِ على حريتهِ الَّتي تمكّنهُ من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تتميمهِ لما كان تعهد باجرائهِ هذا فضلاً عما كانت عليهِ سجيَّة صاحب الترجمة من الهمة واباءة النفس حتى كأَن جدّهُ حسين بيرم المتوفي سنة ١١٥٥ قد نظر اليهِ بظهر الغيب لمَّا ذيل البيتين الشهيرين

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتَّى تؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الاحباب

بقوله

واشدّ من هذين ان يلقى الفتي   ذل السؤال ووقفة الابواب

ومع ذلك فقد تغلب اصحابهُ عليهِ وقبل ادارة الاوقاف في ١٧ صفر سنة ١٢٩١ ولم ينفرد مع ذلك بامرها بل شارك معهُ مجلساً مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم من رجال الادارة والاثنان الآخران من اعيان الاهالي والتجار وجعل نظرهم في الاوقاف على قسمين الاول الاوقاف الاهليّة اي الّتي هي موقوفة على ذريّة الواقف او قرابتهِ والثاني الاوقاف الّتي على اعمال البر مثل الجوامع وقراءة القرآن وغير ذلك فاما نظرهم في الاول فهو مجرد نظر ارشاد واما القسم الثاني فنظرهم عليهِ نظر تصرف مطلق والمباشر للاعمال هو الرئيس بعد اخذ رأي الاعضاء عنها وقد جمع الاوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بان ضم مثلاً جوامع الخطب كلها لجهة والمدارس كلها لجهة واوقاف القرآن لجهة وهكذا الى آخر انواع الموقوف عليهِ وجعل لكل قسم وكيلاً خاصاً يباشر العمل في ذلك تحت النظر الاصلي فيقبض الوكيل ويصرف في اقامة الشعائر وفي اصلاح الموقوف والموقوف عليهِ ولكنهُ لا يعمل شيئاً الاّ بعد الاستئذان من رئيس المجلس وجميع حساباتهِ ترسم في دفترين مخصوصين بشهادة عدلين احد الدفترين للحسابات اليوميّة والثاني للحسابات العموميّة وانما جمع كل نوع من الاوقاف تحت نظر وكيل واحد لان الموقوف عليهِ مختلف الريع بعضهُ غني وبعضهُ فقير فاذا كانت ادارتها جميعاً متحدة فيصرف من دخل الغني على الفقير لانهما من نوع واحد وبذلك تيسرت سهولة الاصلاح ثم انهُ في آخر كل اسبوع يقدّم الوكلاء حساباتهم ويوردون

للخزينة العموميّة كل ما زاد عندهم من الايراد على المصروفات الضروريّة وهذه الخزينة لها ثلاثة مفاتيح اثنان منها يبقيان بطرف امين المال والثالث يحفظ عند الرئيس ولا تفتح الاّ بحضور الجميع ثم ان جميع اماكن الاوقاف لا يحصل تأجيرها الاّ بعد الاعلان والمزايدة علناً بمحضر القاضي ثم ان اموال الاوقاف اول ما يقام منها الوقف والموقوف عليهِ حسب نص الواقف ويقدّم الاهم على المهم وجميع مداولات المجلس ودفاتر الايراد والصرف في الخزينة العموميّة يمضيها جميع الاعضاء مع الرئيس يومياً وكان يصرف من فواضل الاوقاف على الاوقاف الّتي لم يحضرها دخلها وذلك على وجه القرض ولمّا يحضر مالها تعيد ما استقرضتهُ للخزينة العموميّة ثم يدفع منها جميع مرتبات الحكام الشرعيين من قضاة ومفتيين في جميع المملكة والسادة الاشراف ويدفع منها مصروفات نظارة المعارف من موظفيها ومرتبات مدرسي جامع الزيتونة ومصروفات دواوين الشريعة المطهرة ومصروفات المجلس البلدي بحاضرة تونس واصلاح الطرقات وتنظيفها واقامة الجسور والقناطر ومصروفات المستشفى والمكتبة العموميّة وغير ذلك من مصاريف بعض المهمات الّتي تحدث احياناً وترجع الى مصلحة عموميّة ان كان في الفواضل ما يوفي بها وبسبب اجراء قوانين الاوقاف حقيقة بدون محاباة تحسن حالها وزادت ايراداتها حتّى بلغت في السنة الخامسة من وجود هذه الادارة مليونين ومائة وخمسين الف ريالاً ونيفاً وكانت في السنة الاولى مليوناً واحداً ومائتي الف ريال ونيفاً زيادة على ما ظهر من الاوقاف الّتي كانت تلاشتها ايدي العدوان حتّى بلغت الى مئات من قطع الاراضي والدكاكين والبيوت وآلاف من شجر

الزيتون كما هو مبسوط في العدد ١٨ من الرائد التونسي سنة ١٢٩٧ وظهرت اوجه من الموقوف عليه لم تكن في الحسبان كالوقف على تنوير الاماكن المظلمة في الليل والوقف على التقاط العقارب الى غير ذلك من اوجه البر. وقد التزم الرئيس ان يفرغ جهده لاصلاح هذه الادارة المستجدة وتدريب عمالها على العمل حسب المرغوب حتى التزم في اول الامر ان يباشر جميع الاعمال بنفسه جزئية وكلية ليلاً ونهاراً واستمر على ذلك مدة طرأ عليه في اثنائها مرض عصبي لم يفارقه الى ان قضى عليه وكان ابتداء المرض في صيف سنة ١٢٩٢ وبسبب هذا المرض عزم على السفر للتداوي في اوروبا فسافر اليها في شوال سنة ١٢٩٢ وكان ذلك سبباً لكتابته صفوة الاعتبار ولم تكن هذه الرحلة اول تأليف له بل قد سبق له كتابة رسالة سماها "تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص" ومضمونها احتواه عنوانها وسبب تأليفها الخلاف الحاصل بين بعض العلماء في حل اكل الصيد المذكور من عدمه والف ايضاً في اول نشأته مجموعاً مختصراً مفيداً في فن العروض وذلك عند بداية تعاطيه لنظم القريض وحرر مسئلة فقهية في جواز اسدال شعر الرأس وسببها ان الامير امر رجال حكومته باسدال شعرهم وكانوا يحلقونه فاستفتى في جواز ذلك من عدمه واختلفت فتاوى العلماء خشية القول بالتشبه بالافرنج فكتب المرحوم رسالته بالجواز مستنداً على عمل النبي صلى الله عليه وسلم . وفي تلك السنة اي سنة ١٢٩٢ افتتحت في تونس اول مدرسة على حسب النظام الجديد المتبع في اوروبا سميت المدرسة الصادقية نسبة للامير فكان المرحوم من اعضاء اللجنة التي رتبت نظاماتها واهتم كثيراً باقناع

الناس على ادخال ابنائهم فيها وكان هو من اول العاملين بقوله فجعل ابنه كاتب هذه الاسطر من جملة تلامذتها وقد حصل في بداية الامر نفور الناس منها اذ ان العادة جرت بنفرة غير المألوف ولم تزل تلك المدرسة ناشرة فوائدها بين التونسيين واكثر المتولين مناصب الحكومة بتونس الآن هم من الشبان الذين تغذوا بلبان معارفها

وفي ١٠ جمادي الثانية سنة ١٢٩٢ عهدت اليه نظارة مطبعة الحكومة فنظمها واصلح شأنها واصدر الرائد التونسي (الجريدة الرسمية) في مواعيده المعينة كل اسبوع مرة وكان لا يصدر الا بحسب التيسير ولما كان الرائد التونسي هو الجريدة الوحيدة التي تصدر في تونس بذل كل ما في وسعه لجعله مفيداً لبني وطنه واستعان على تحريره بجهابذة اعلام كالشيخ حمزة فتح الله المصري والشيخ محمد السنوسي التونسي ونشرت فيه مقالات رنانة حاثة على الجامعة والوحدة والعدل والائتلاف لا سيما زمن الحرب بين الدولة العلية والروسيا وقد قسم المرحوم وقته فكان يتوجه لادارة الاوقاف صباح كل يوم ويتوجه للمطبعة بعد الظهر وفي تلك الاثناء نظم المكتبة الصادقية بازاء جامع الزيتونة وهي مكتبة جمعت آلافاً من الكتب النفيسة في كل فن تبرع بجانب عظيم منها الوزير خير الدين باشا واكثرها كتب استولت عليها الحكومة من مملوكات الوزير القديم مصطفى خزندار وجعلها مفتوحة للمطالعة واستفادة العموم في جميع اوقات النهار بشرط ان لا يخرج منها كتاب وجميع مصاريف هذه المكتبة تحملت بها ادارة الاوقاف على ما مر بيانه

وفي سنة ١٢٩٣ لما ظهرت الحرب بين الدولة العلية والصرب بذل

صاحب الترجمة غاية مجهوده لمساعدة الدولة بالمال والخيل والبغال حيث لم تتيسر مساعدتها بالرجال لاسباب سياسية وموانع محلية وقد نشر صاحب جريدة الجوائب الصادرة بالاستانة قصيدة لصاحب الترجمة في الحث على التعاون والائتلاف عند تلك المناسبة قال فيها

يا امة الاسلام صونوا عزكم بتعاضد وتمدن وتنافس
يا امة الاسلام احيوا ذكركم بتآلف وتودّد وتآنس
يا امة الاسلام نمّوا صيتكم بمعارف وصنائع ومجالس
يا امة الاسلام حوطوا امركم بتشاور وتدبر وحوارس
يا امة الاسلام اجلوا فخركم بديانة قد سترت بحنادس
يا امة الاسلام هبوا للفلا ح ولا تضيعوا نجحكم بتقاعس
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا ان الهلاك مسارع للناعس
يا امة الاسلام زيدوا ثروة بتعاون ومصانع ومغارس
يا امة الاسلام شيدوا مجدكم بتناصر وتناصح وتجانس
يا امة الاسلام شدّوا عزمكم فثباتكم بين البرايا ما نسي

ولما خلت وظيفة شيخ الاسلام بتونس عند وفاة صاحبها توجهت الانظار لتولية صاحب الترجمة عليها حتى ان المنصب المذكور بقي خالياً مدة شهرين لذلك فاعتذر بان الوقت غير مناسب لاعادة جاه هذا المنصب ورجوع عزه اليه كما كان عليه زمن عمه .

ولما استعفى خير الدين باشا من الوزارة التونسية في رجب سنة ١٢٩٤ رام صاحب الترجمة التخلي عن وظائفه ايضاً غير ان مداخلة الامير الشخصية

منعتهُ من تنفيذ هذا العزم وقد رأى من الوزير محمّد خزنه دار جميل العناية كما يستدل عليهِ من المكتوب الآتي .

" الهمام الأوحد التحرير الشيخ السيد محمّد بيرم رئيس جمعيّة الاوقاف دام مجده اما بعد السلام عليكم وبركاتهُ فالواصل اليكم ترجمة مكتوب ورد من المكلف بامور دولة اسبانيا للاطلاع عليها وتعرفونا بما يجاب الرجل في النازلة وفي امن الله دمتم والسلام من كاتبهِ محمّد في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ " ومن ذلك الحين ايضاً صار الوزير مصطفى بن اسماعيل يظهر له كمال التودّد والتلطف وفي مصيف سنة ١٢٩٥ اثناء وجود المعرض الباريسي سنة ١٨٧٨ توجه المرحوم ثانياً الى باريس للمعالجة من مرضهِ الذي لم يفارقهُ وفي هذه السنة زار لندره من بلاد الانكليز وعند عودتهِ عرج على الجزائر وفي مدة اقامتهِ بباريس اكرمهُ المارشال مكماهون رئيس الجمهوريّة الفرنسويّة اذ ذاك باحضاره في الاوبره وهو التياترو الكبير في نفس لوجتهِ (حجرتهِ) وحضر بعض الاحتفالات التي اقامها الوزراء اثناء المعرض وبالجملة فان القوم اكرموه اكراماً فائقاً وفي تلك السفرة احتفل ولي عهد الامارة بتونس وهو الامير الحالي بختن نجليهِ فكاتبهُ المرحوم بالتهنئة وكانت بينهما علاقة ودّية قديمة فاجابهُ الامير بهذا المكتوب ونصهُ بعد الحمدلة والتصلية

تبدّت في حلا الحسن الجلي خريدة ذات ثغر ألعسي
تجرّ مطارفاً وتميس تيهاً ويسطو لحظها في كل حي
فيا لله ما احلى دلالاً واعذب لفظها شهد الشهي

فما للبحر لم يصبح فراتاً   وقد امست بهِ زمن الملي

فقلت لها انتم يا خود فخر .   فقالت بنت فكر البيرمي

لقد حاز المعارف والمعالي   وحيد الدهر ذو الحسب النقي

اتت من نحوكم درر التهاني   منظمة بسلك جوهري

وكيف يفوت حظك بابتعاد   وفي الاحشاء ذو ودّ خفي

وها ولدي الزكي يروم وصلاً   لجانبكم بباريس . السمي

واني ارتجي بشرى الشفاء   وعودكما مع اللطف الخفي

الماجد الزكي العالم ابو عبد الله الشيخ السيد محمّد بيرم حرسهُ الله تعالى . اما بعد اتم السلام فقد ورد نظمكم الرائق . وما تضمنهُ من التاريخ الفائق . في التهنئة بالختان واني اهنيك بذلك كما ارتجي هناءك . بتمام شفائك . وانت ان ترحلت عن حمانا جسماً . فلم يزل ودُك مرتسماً . بدفاتر الاحشاء رسماً . والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء علي باي امير الأمحال عفى عنهُ
في ٢ رجب الاصب من سنة ١٢٩٥

ولما رجع من هذه السفرة واستقرَّ مدة احب ان ينظم المستشفى التونسي على النحو الذي رآه في اوروبا من اتقان المستشفيات والاعتناء بالمرضى وتقسيمهم كل قسم على حدة وكذلك تحسين حال المجانين اذ ان المستشفى التونسي واحد يقبل جميع المرضى واستعان على ذلك بحكماء ماهرين اهمهم الدكتور ماسكرو حكيم الامير الخصوصي وقد حسن للوزير مصطفى بن اسماعيل هذا العمل وتخصيص احدى القشلاقات العسكريَّة القديمة الواسعة لهذا الغرض وكانت معطلة خاوية تنعي بفراغها واقفال ابوابها ما كانت عليه

البلاد التونسيَّة في العصر السالف من القوَّة والاستعداد والتأهب للمكافحة والجلاد والمدافعة عن استقلال البلاد والقشلة واقعة في حي مرتفع نقي الهواء وفي تلك الاثناء حصلت منازعة بين الحكومة التونسيَّة واحد الفرنساويين المدعو الكونت ذو صانسي على ارض فسيحة تعرف بهنشير سيدي ثابت كانت تنازلت لهُ عنها الحكومة لتحسين حالة الزرع وانتاج الخيل ولما اخلَّ بالشروط التي اعطيت له بمقتضاها وانتهت مدة التنازل رامت الحكومة استرجاعها وبينما هي تنازعهُ فيها اذا بالوزير وبعض اعوانهِ دخلوها عنوة فوقع لذلك هرج ومرج وانتهزها قنصل الفرنسيس الموسيو روستان فرصة لارهاب الامير والاستيلاء على الوزير وزيادة شوكة دولته في تونس فقطع العلاقات السياسيَّة وطلب عدة مطالب للترضية اهمها عزل الوزير والتعويض على الكونت . وكل مطلع على تاريخ تونس الحديث ملم بما كتب عن مصطفى بن اسماعيل في صفوة الاعتبار وغيرها يعلم انهُ لم يكن اهلاً لتقليد الوزارة ولا لمباشرة شؤون المملكة باي وجه من الوجوه وهكذا جرت سنة الخلق كلما اخذت امة في الانحلال والاضمحلال تسلط عليها الوضيع . ونبذ الرفيع . وتقدّم الغافل . وتأخر العاقل . وتملك الغبيّ . واحتقر الذكيّ . وانتصر الجهل . وخذل الفضل . وقامت دولة الاوغاد والسفل . ليقضي الله امراً كان مفعولا ولولا سيطرة الظلم والاستبداد من الحكام والجامهم الاهالي بلجام من الجور والاعتساف . لما رفع مصطفى بن اسماعيل من حضيض الارض الى عنان السماء . ومن دائرة السوقة الى منصب الوزراء ولله الامر من قبل ومن بعد ولما كان الوزير المذكور يحس من نفسهِ بعدم

اللياقة لمركزه كان دائماً متوقعاً الشر من كل مقتدر على تفهيم الباي بحقيقة حاله وسوء اعماله ولذلك فان رستان علم ان لا شيء يقوده غير الارهاب فطلب عزله ارهاباً له فسهل عليه قياده من ذلك الحين فصار في يده كالميت في يد غاسله وقد اسرع الوزير بترضية القنصل ترضية رسمية على الاعتداء الذي حصل منه فداء لمركزه واستقر الرأي على تشكيل لجنة للتحكيم تحت رئاسة قاض فرنساوي يكون فيها عضوان تونسيان وعضوان فرنساويان تنظر في جميع مدعيات الطرفين وتصدر حكمها فيها فكان صاحب الترجمة احد ذينك العضوين التونسيين وقد ناضل عن حقوق حكومته بجميع قواه وبلغ به تعب الفكر والبدن منتهاه حتى عاد اليه المرض بعد ان كاد يشفى منه وقد اوصاه الحكماء الذين باشروا معالجته في باريس وفي مقدمتهم شاركو الشهير بان يقلل ما امكن من الاشتغال بالفكر ويتباعد عن الانفعالات النفسانية اذ ان مرضه عصبي واقع في الاعصاب الواصلة بين المعدة والقلب مع ضعف شديد في الدم تطرأ عليه ادوار غريبة في الوجع والالم التزم لتسكينها بتعاطي المرفين وهو روح الافيون وقد رجع من باريس آخر مرة وكاد يبطل استعماله بالمرة بل بقي عدة اشهر لا يستعمله اصلاً غير ان مسألة صانسي وما رآه فيها من حيف الاجنبي لاهتضام حقوق البلاد والتلاعب باستقلالها اعاد اليه المرض كله باشد مما كان عليه وقد صدر الحكم بحقوقية الحكومة التونسية كما هي العادة في جميع المسائل التي تقع من هذا القبيل في البلاد الشرقية في مثل هذه الاوقات

وفي تلك الاثناء انهى تنظيم المستشفى الجديد المسمى بالصادقي وهو على

قسمين احدهما مجاني للفقراء يسع مائة مريض والآخر للموسرين باجرة معينة زهيدة وافتتحه الامير بنفسه في موكب حافل حضره في يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٨ صفر سنة ١٢٩٦) واعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعي صاحب الترجمة في تنظيم هذا المستشفى بقوله في خطاب القاه على مسامع الامير في ذلك الاحتفال وهو "بمقتضى الاذن العلي وعناية سيدنا ادام الله تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التي هي احدى مآثر الحضرة العلية وهي هذا المستشفى الصادقي الذي شرفه سيدنا ايده الله تعالى بالحضور فيه هذا اليوم وقد اعتنى الشيخ السيد محمد بيرم ببذل الجهد في انجازه وترتيبه على الكيفية المشاهدة بما نرجو من الله تعالى ان يحل ذلك من سيدنا محل الاستحسان" فاجاب الامير بالشكر والثناء واهدى الى صاحب الترجمة في ذلك اليوم علبة مرصعة ذات قيمة وافرة مكتوب عليها اسمه بالاحجار الكريمة. وفي اواسط تلك السنة تطاول احد اعوان الوزير على القاضي المالكي الشرعي بديوان الحكم وهو امر لم يعهد له مثيل في تونس حيث لم تزل الاحكام الشرعية وحكامها مرموقين بعين التبجيل والاحترام اللائقين فهاجت البلاد لذلك وماجت واتفق الحكام الشرعيون على تعطيل الاحكام الى ان يسترضيهم الامير بعزل الوزير وعقاب تابعه العقاب الصارم واجراء القوانين والمجالس الشوروية في البلاد لتكون ضمانة كافية على عدم العود لمثل هذا الحادث المكدر وعدم تسليم الادارة لمن لا يكون كفوءاً لها وبعد ان اتفقت كلمتهم على هذه المطالب وكادوا ان يحصلوا عليها دخل بين بعضهم داخل الغرور والتفرقة فتشتت آراؤهم وانحلت جامعتهم ورضوا

بتبعيد التابع المتطاول لاحدى معاقل المملكة في قابس الواقعة على حدود طرابلس وبتشكيل الامير لمجلس سماه مجلس الشورى للنظر في مهمات امور الدولة وجعله تحت رئاسة الوزير نفسهِ واعضاؤُه بقيَّة وزراء المملكة ومستشاروها وليس فيهم الاَّ اثنان من الاهالي والباقي كلهم من مماليك الجراكسة وزاد عليهم اثنين هما السيد محمَّد بيرم والعربي باشا زروق رئيس المجلس البلدي وكانا من اشد المعضدين لعزائم الحكام الشرعيين في مطالبهم الَّتي طلبوها وكان ذلك في ١١ رجب سنة ١٢٩٦ ولا يخفى ما في رضاء المشائخ بمثل هذا المجلس خصوصاً بعد تعيين صاحبيهم فيهِ من الايقاع بهما والتغاضي عن صالح البلاد الحقيقي ولم تطل الايام حتى اختلق الوزير مأموريَّة لصاحب الترجمة وارسلهُ بها الى فرنسا وحاصلها السعي لدي كبراء القوم وخصوصاً غامبيتا رئيس مجلس النواب اذ ذاك وصاحب القول الفصل في بلاده لتغيير قنصلهم في تونس لانهُ اشتد على الحكومة اشتداداً لم يبق لها حريَّة للعمل في شؤونها الداخليَّة قط ولم يقف عند حدّ في القاء الدسائس والفتن وتوغير الصدور بين الراعي والرعيَّة حتى انهُ لما طلب اعيان الاهالي التونسيين ما طلبوه من تأسيس الحريَّة والشورى في بلادهم كان الموسيو رستان نائب الجمهوريَّة الفرنسويَّة ينصح الامير بعدم الاصغاء الى هذا الطلب وان العساكر الفرنسويَّة بالجزائر مستعدة لمعاضدتهِ وكسر شوكة الاهالي واذلالهم عند اللزوم وهي سياسة قديمة اتبعتها فرنسا في تونس نفسها فان قوانين عهد الامان السابق ذكرها المؤسسة في تونس سنة ١٢٧٤ كانت بمساعي فرنسا وانكلترا ظاهرًا وتهديدهما للامير باسطوليهما اللذين حضرا لذلك الغرض

وكان ذلك لمجرد قتل يهودي في اقامة حدٍّ اقتضتهُ الشريعة ولما اجريت تلك القوانين بالفعل سنة ١٢٧٧ وتوجه الامير لمقابلة الامبراطور نابليون الثالث في الجزائر واهدى اليهِ نسخة من تلك القوانين اقتبلها منهُ بالشكر ظاهرًا ولما اختلى الامبراطور بقنصلهِ ليون روش وبخهُ توبيخاً شديداً على ما رواه المرحوم الجنرال حسين وافهمهُ غلطه من المعاضدة على اجراء القوانين الشورويَّةِ في تونس حقيقة وقال له ان العرب اذا تأنسوا بالعدالة والحريَّةِ فلا راحة لنا معهم في الجزائر مطلقاً ومنْ ذلك الحين وجه القنصل همتهُ لاقناع الوزير مصطفى خزنه دار بالغاء تلك القوانين ووجد منهُ اذناً صاغية فالغاها وبقيت كذلك الى هذا الوقت . وقد قبل السيد محمَّد بيرم مأموريتهُ كما قبل المرحوم حسين باشا وزير المعارف اذ ذاك بتونس مثلها لدي البرنس بسمارك ولما توجه صاحب الترجمة للسلام على الامير سلام الوداع واجههُ بكلام اللوم والعتاب على ما جرى منهُ من تعضيد المطالب الاهليَّة فاجابهُ الشيخ بيرم بكلام اثر في نفسهِ تأثيرًا لم يزل يكرّره بتوجع الى آخر مدتهِ وهو انهُ قال له اننا نطلب الحريَّة الَّتي قال سيدنا انهُ لا يعطيها لنا غيره فاجابهُ الامير لمن اعطي الحريَّة أللنجار والحداد ام لك او لهذا (واشار الى احد كبار الحاضرين)فان النجار والحداد اذا اعطيا الحريَّة اساءا التصرف بها ولم تبقَ لنا معهما راحة فقال له السيد بيرم ان الحريَّة الَّتي يعطيها سيدنا للحداد والنجار تصيرهما مثلي انا ومثل هذا واشار الى ذلك الوجيه وسبب انزعاج الامير من هذا الجواب هو تكرار لفظة الحريَّةِ فيهِ ولم يعهد انهُ سمعهُ من قبل حتى ان امراء تونس قديماً كانوا يعتقدون انهم يمتلكون البلاد بمن فيها من

الارزاق والانعام والسكان امتلاكاً شرعياً لا ينازعهم فيهِ منازع واورد المؤرخ اللبيب الشيخ احمد بن ابي الضياف في تاريخهِ نادرة جرت له مع امير تونس حسين باشا الثاني في هذا الموضوع كادت ان توردهُ حتفهُ رحمهُ الله . ولما وصل صاحب الترجمة هذه المرّة الى باريس وكان ظاهر امره انهُ توجه للتداوي اجتمع بالموسيو غاميتا وفاوضهُ في المسألة الّتي كلفهُ بها الوزير وسلمهُ تقريرًا فيها هذه صورتهُ

" اني اقدم على وجه خصوصي غير رسمي الى حضرتكم العليّة تقرير ما هو واقع في المملكة التونسيّة مما عساه ان يكدر صفاءَ القلوب حيث كنت أنا واهل بلادي على علم من ان الدولة العظيمة الحرّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبها في تونس الذي اتخذ طريقة التشديد والتخويف ديدنًا في كل شيءٍ حتى صير حكومتنا متحذرة من اصدقائها عوضاً عن زيادة الالفة والركون الذي هو الواجب مع الامة الفرنسويّة الّتي كل اهالينا يعلم انها وحدها هي الّتي تفيدنا ولهذا عند ما امتلأ وطابنا من الكدر لم نقصد الاَّ ابلاغ الحال الى رجالها المنصفين من غير ان نطرق باباً غير بابها وذلك ان موسيو رستان النائب المذكور بعد ان اوقع دولتنا في ارتباك وكاد يغير علينا الدولة الفرنساويّة في نازلة موسيو دو صانسي الّتي لا تستحق تلك الاهميّة حسبما يوضح ذلك التقرير الذي حررهُ مجلس التحقيق المعين من فرنسا وبعد ان اضطر حكومتنا الفقيرة الّتي لم تستطع دفع كبونها (فوائد ديونها) ولا مرتبات متوظفيها الى دفع مبالغ مجاناً من المال والاملاك الى اناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لاسباب نتحاشى عن ذكرها امام فخامتكم حتى انهُ خسرنا

في مدة الستة اشهر الاخيرة فقط نحو مائة الف وسبعة واربعين الفاً فبعد هذا كلهِ اذا هو الآن يتعرض رسمياً لتحسين ادارة البلاد الّتي بها تتمدن الاهالي ويدخلون في الحضارة وكانت الدولة الفرنساويّة انالتنا اياها على يد نائبها سنة ١٢٧٤ (١٨٥٨) انتصارًا للانسانيّة والحق فعوضاً عن زيادة التقدم مع تقدم العالم اذا هو الآن مضادٌ لذلك وقال الى سيادة سيدنا الباي لا تفعل مجلس الشورى الذي طلبتهُ منك الاهالي وابق على حالتك العتيقة بل اوعز اليهِ مع بعض اعوانهِ المنكشف حالهم بان يقتل نحو ثلاثة اشخاص وينفي نحو سبعة ويلتجي الى حمايتهِ ولا عليهِ في شيءٍ فلولا مكارم سيادة سيدنا الباي لاوقع البلاد بل فرنسا ذاتها في ارتباكات مضادة للانسانيّة والعدالة المجبولة عليها الدولة الجمهوريّة الفرنساويّة . فيا ايتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الامة والدولة الّتي ترسل ابناءها الى اقصى المشرق والمغرب لحفظ الانسانيّة ان يكون نائبها مضادًا لذلك في بلاد هي جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج اهل الجزائر من الحكم العسكري الى الحكم البلدي متسترًا في دعواهُ بعدم التعرف بالمجلس بانهُ سمع ان المقصد منهُ هو التعرض لمصالح فرنسا مع انهُ على علم بان مصلحة الامة الفرنساويّة يعتبرها ويراعيها كل من الآمر والمأمور في بلادنا لعلمنا بمقامها بيد انهُ اذا كانت المصلحة ليست لفرنسا وانما هي مجرد فوائد شخصيّة فان مصلحة البلاد نقدم عليها وهو الذي نؤمل المعاضدة عليهِ من الرجال المشهورين في العالم من الدولة الفرنساويّة وتبقى بمآثرهم مزينة صحف التاريخ فهذا انا انهي الى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل ولحضرتكم ان تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين "

وقد بادر صاحب الترجمة بارسال تفصيل المقابلة وما حصل فيها من الكلام الى الوزير بمكتوب مؤرخ في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ من جملة ما قالهُ لهُ فيهِ عن لسان غامبيتا " ان كنتم تريدون الارتياح من الرجل (اي رستان) فيجب ان تكتموا هذا الامر بل ولا اجتماعكم بي في شأنهِ والاَّ كان ذلك ينقض قصدكم " وما كاد يصل هذا المكتوب الى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة ولم يعلم ان كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير او من المترجم الذي كان الواسطة في الكلام بين غامبيتا وصاحب الترجمة الذي لم يكن يتكلم اللسان الفرنساوي والحاصل ان القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة وارعد وابرق على الامير والوزير وزاد في ايغار صدورهما على صاحب الترجمة وساعده البخت او الصدفة بأنهُ في الوقت الذي كان الاهالي في تونس يطلبون تأسيس الشورى في بلادهم كانت الدول مشغولة في مصر بخلع اسماعيل باشا وحصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذٍ وارتباطات الباشا المذكور بتونس وخصوصاً بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع فاستنتجوا من ذلك ان طلب الشورى في تونس لم يكن القصد منهُ الاَّ احداث ارتباكات في المملكة تفتح الباب لمداخلة الباب العالي خصوصاً وكان صاحب الترجمة معارضاً شديد المعارضة في وصل سكة الحديد بين الجزائر وتونس وتعيين الحد الفاصل بينهما الاَّ بعد العرض للدولة العليَّة وزادوا في اقناع الباي بالتلغراف الذي ارسلهُ خير الدين باشا يعلمهُ فيهِ بفصل اسماعيل باشا عن خديويَّة مصر وقد استعمل الصدر الاعظم في تلغرافهِ عبارات اشتم منها رائحة التهديد والوعيد للباي حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالي

بواسطة السفارة الفرنساويَّة عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع انهُ في ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصيَّة بين المرحوم وخير الدين باشا معكرة مكدرة من حين خروج الباشا المذكور مِنْ وزارة تونس ولم يصف ماؤُها الاَّ بعد ذلك التاريخ كما يدل عليهِ المكتوب الآتي

"الفاضل الزكي الثقة المعتمد الشيخ سيدي محمَّد بيرم حرس الله تعالى كمالهُ وبعد قد وصلنا مكتوبكم في ٢٢ من الشهر وعلمنا ما احتوى عليهِ من لذيذ الخطاب ونحن لله الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة في امورنا الحسيَّة والمعنويَّة واما ما اشرتم اليهِ مِن الاحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابهُ عفى الله عما سلف والسلام من خير الدين في ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦ "

ومن راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور اعلاه وجواب المرحوم خير الدين باشا عنهُ وقارن بينهما وبين تاريخ انفصال الباشا المشار اليهِ عن الصدارة العظمى الواقع في ٩ شعبان سنة ١٢٩٦ يعلم علم اليقين انهُ في مدة صدارة الباشا المشار اليهِ لم تكن بينهُ وبين الشيخ بيرم ادنى علاقة وان كل ما بناه اذ ذاك المرجفون بناءً على علاقاتهما الوداديَّة القديمة هو محض اختلاق وكأَنَّ الوزير التونسي غفل او تغافل عن حقيقة المأموريَّة التي اناطها بعهدة صاحب الترجمة فارسل اليهِ تلغرافاً رسميًّا الى باريس نص ترجمتهِ

مِن باردو في ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٦)

" من الوزير الاكبر الى الشيخ سيدي محمَّد بيرم . شاعت الاخبار بانك متداخل في امور سياسيَّة خصوصاً وانهُ لم يصدر لكم ادنى امر فيها ولذلك

فان سيدنا المعظَّم يأمركم صريحاً بان لا تتداخلوا مطلقاً في هذه المسائل حيث انكم سافرتم لمعالجة صحتكم واذا انتهت مدّة التداوي فارجعوا الى تونس"

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ٢٥ شعبان جواباً عن مكتوبهِ المؤرخ في ١٢ شعبان وفيهِ يقول " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصي وعلمنا ما ذكرتم وما وقع مع موسيو غامبيتا فمثلك من يعتمد عليهِ وعلى صداقتهِ واما كتمان السر فيكون مهماً لان نفعهُ لنا وانما الله يحقق الامل من اتمام الوعد لان القنصل في غاية القوّة الخ"

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب في اقوال الوزير الاَّ ان يستعفى من وظائفهِ فاجابهُ الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب ونصهُ " الفاضل الزكي المدرس الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف حرسهُ الله اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فان ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعيَّة الاوقاف علمناه ومن معلوماتكم انكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك والذي نعرفكم بهِ انني لم نزل على رأيي في عدم اسعافكم لما ذكر ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء مصطفى الوزير الاكبر عفا عنهُ في ٣ رمضان سنة ١٢٩٦"

وفي اليوم نفسهِ ارسل لهُ مكتوباً آخر نصهُ " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فانهُ بلغنا كتابكم المؤرخ في ٢٥ الشهر القارط متضمناً ما نحن

على ثقة منهُ من سلوككم الطريق المستقيم في اقوالكم واعمالكم وتحرزكم في الاجتماع من ان ينسب اليكم غير ما قصدتموه ولا يستغرب ذلك من مثلكم ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام"

وقد رجع صاحب الترجمة الى تونس بعد الالحاح الشديد عليهِ من اصدقائهِ فوجد الحال متغيراً وملامح الوزير تظهر الشر ومع ذلك فقد ابلغهُ صاحب الترجمة ما رآهُ وسمعهُ في باريس بخصوص المسئلة التونسيَّة وآراء رجال السياسة فيها ومن جملة ما بلَّغهُ ان الاخبار رائجة هناك بان القنصل اقنعهُ بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس اليها وفي مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد علَى الامارة واستيلائهِ عليها بعد سيده ونصحهُ بان لا يغتر بهذه الترهات فان القنصل اذا حصل على مرغوبهِ لا يوفي وعدهُ للوزير ولا تعود الخسارة الاَّ على البلاد واهلها وقد حقق الزمن حدس السيد بيرم فانهُ لما دخلت فرنسا في تونس سنة ١٢٩٨ لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى ابن اسماعيل عن الوزارة واخرجتهُ من البلاد بالمرة ولم توفِ له بما وعدتهُ بهِ بل نظرت اليهِ نظر الخائن وكثيراً ما تكلمت جرائدها وارباب الوجاهة فيها لتجريده عن نشان اللجيون دونور الفرنساوي وهو حامل اول درجة منهُ وبقي يتقلب متغرباً في البلدان تقذفهُ امواج الذل والسؤال بعد ان صرف ما ادَّخرهُ ايام عزه من الاموال الطائلة واصبح

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبا   لعذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

الى ان جاءت بهِ المقادير الى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانيَّة عن ذنوبهِ وابقتهُ يتنعم بلذيذ الحياة ويتحسر على ماضي عزه وغبن

صفقتهِ . اما صاحب الترجمة فانهُ بعد عودتهِ الى تونس من مأموريتهِ توجه الى (المرسي) للسلام على ولي عهد الامارة الامير الحالي السابق ذكره فوجد الامير المشار اليهِ في مركبته امام محطة السكة الحديد فاركبهُ معهُ وسارا الى بستان الامير فكبر هذا الامر على مصطفى بن اسماعيل وامر صاحب الترجمة بالكف عن التردد على ولي العهد وكثرت الدلائل على سوء نيَّة الوزير نحو السيد بيرم وتغلب دسائس موسيو رستان ضدهُ حتى نصحهُ بعض الاصدقاء من خواص حاشية الباي بالسفر خارج المملكة لان بقاءه في البلاد فيهِ خطر عليهِ فطلب بعد عيد الفطر التوجه لاداء فريضة الحج خصوصاً وقد تهدَّدهُ الوزير بانهُ اذا شاع الخبر الذي كان اعلمهُ بهِ بخصوص مساعيهِ لولاية الامارة يلقيهِ تحت اعباء المسئوليَّة الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر وقد توسط حينئذٍ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق في تونس للحصول على تلك الرخصة وبين للوزير عدم جواز منع المسلمين من اداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليهِ وسلم وللسادة الاشراف في تونس النفوذ الكبير والكلمة المسموعة فالتزم الوزير بالاجابة وقد سافر صاحب الترجمة من تونس في ٢٦ شوال سنة ١٢٩٦ ولم يعد اليها بعد وقصد مالطه ومنها للاسكندريَّة ومصر القاهرة وفيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا وكان ذلك في ابتداء ولايتهِ فقدَّم له قصيدة في التهنئة بالولاية وتاريخها

وقد دار الحديث بينهما عن كيفيَّة نظام اللجنة الماليَّة الدوليَّة المؤلفة في تونس لادارة اشغال الدين وعن النتايج التي انتجتها وهل البلاد متضررة منها ام لا وكان ذلك بسبب ما اقترحتهُ انكلترا وفرنسا اذ ذاك على الحكومة

المصريَّة من اقامة لجنة المراقبة الماليَّة ثم ان المرحوم سار الى الحجاز وقد تقابل في مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الامير الاسبق واكرم وفادتهُ ثم بعد اداء فريضة الحج والمناسك توجه للزيارة في المدينة المنورة حيث اقام ثلاثة ايام وكان مرضهُ العصبي مشتدًّا عليهِ في الطريق وهناك توسل للحضرة النبويَّة بقصيدة طويلة طالباً من الله الشفاء للبدن واللطف بالوطن ومطلع القصيدة

الى السدَّة العظمى شددت عزائمي   الى سدَّة الاجلال شمس المكارم
الى باب خير الخلق خصصت وجهتي   ومن فضل باب الله املت راحمي
اليك رسول الله قد جئت ضارعاً   وفضلك ممدود على كل قادم
فياخير خلق الله جدلي بالرضا   وامِن مخافي من عقاب المآثم
ويا أكرم الامجاد هب لي توبة   واسس على التقوى قيام دعائمي
وانت ملاذي في اموري كلها   فعجل شفائي من سقامي الملازم
ألا يا رسول الله طهر بلادنا   فقد جار في الانحاء ظلماً مخاصمي
يريد خلاف الحق في الخلق جائراً   فننصحهُ رشداً لذا كان ظالمي
فعجل بانقاذ البلاد من الذي   تأبط شرًّا وارتدى بالمظالم
وفرج همومي والكروب وعلتي   وليس سواك يرتجى للعظائم
والعدل ان ينقاد كل ملوكنا   لكيما يحل الدين اعلى العواصم

ومن المدينة المنورة توجه الى ينبع وسافر منها الى بيروت مارًّا على خليج السويس وقد ذكر هذه الرحلة في اول هذا الجزء الخامس وما لاقاه في سفره من كرم واكرام صاحب السماحة السيد السند السيد سلمان افندي القادري نقيب اشراف بغداد

ولما وصل الى بيروت لاقاه والي سوريَّة اذ ذاك المنعم المقام الجليل الذكر مدحت باشا بمزيد العناية الرعاية واحتفل بهِ اعيان المدينة من مسلمين ومسيحيين بما ابقى لهم في نفسهِ الذكر الحسن والثناء المستطاب وكان المرحوم من جملة المشتركين المساعدين في جمعيَّة المقاصد الخيريَّة التي تأسست في بيروت لانشاء مدارس خيريَّة وقد زار تلك المدارس ولاقى من احتفال الاساتذة والتلامذة وانشادهم القصائد والمقالات الرائقة بين يديهِ ما زاد ابتهاجهُ وقد هنأه الشاعر الدراكة البليغ المرحوم الشيخ ابراهيم الاحدب بقصيدة شائقة ذات اربعة واربعين بيتاً مطلعها

بدر العلى تاريخهُ (من غربهِ) ... في الشرق اشرق نوره لمحبهِ

ومنها

من اين هذا الطيب هل ريم النقا ... ليلاً سرى ليدير راحة صبّهِ
او جاء بيروتاً محمَّد بيرمٍ ... من طيبة فذكت نوافح قربهِ
حيث الزمان على تلوّن طبعهِ ... ادّى بهِ كفارة عن ذنبهِ

وقد مدحهُ ايضاً الاديب الفاضل واللوذعي الكامل الشيخ ابو حسن قاسم افندي الكستي البيروتي بقصيدة غراء منها

بهِ تونس الغرب استعزت واحرزت ... بصحبتهِ الفضل الذي ليس يجحد
يغار على الدين الحنيف لانهُ ... خبير بهِ لا يعتريهِ التردّد
عليهِ من العلم الشريف جلالة ... يقوم لها الدهر الحسود ويقعد
وسيرتهُ الحسناء في كل موطن ... بألسنة الايام تتلى وتنشد

وبعد ان اقام هناك اسبوعاً رام فيهِ التوجه لدمشق الشام لرؤية

معالمها العظام وملاقاة السيد الامير عبد القادر الجزائري غير ان الوقت لم يسعف بذلك لتراكم الثلج في الطريق وتعطيلهِ للسكة فتوجه توًّا الى القسطنطينيَّة وهناك ورد عليهِ مكتوب من الامير المشار اليهِ نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله حمد المتوسلين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وصحبهِ آمين . من خادم اهل الله عبد القادر بن محيي الدين الحسني الى جناب العالم الفاضل . والهمام الكامل . صاحب المقام السني . الشيخ السيد محمَّد بيرم افندي المحترم . ادام الله عليهِ سوابغ النعم . اما بعد اهداء تحيَّة مقرونة بالاخلاص والتكريم . وادعية متوالية بدوام نفعكم العميم . فالموجب لتحريرهِ اولاً السؤال عن راحة وجودكم السعيد . والابتهاج بسماع حديثكم المجيد . وثانياً قد بلغنا من ولدنا عبد القادر افندي الدنا سلامكم . ومزيد محبتكم ووادكم . وحصل لنا بذلك تمام السرور . زادكم الله نورًا على نور . ورغبة بربط اسباب المودّة بجنابكم . واستجلاب بدائع خطابكم . ومجاب دعائكم على الدوام . تحررت لكم هذه الارقام . وعليكم السلام في ١٦ جمادى الاولى سنة ٩٧

المخلص
عبد القادر الحسني

وكان المرحوم قبل توجههِ الى الاستانة ارسل مكتوباً بواسطة بعض خواصهِ للوزير بتونس نصهُ "الصدر الهمام امير الامراء جناب الوزير الاكبر سيدي مصطفى اطال الله عمره اما بعد السلام التام فاني قضيت المناسك ولله الحمد ولم استطع المبادرة بالرجوع الى الوطن لاني في اضطرار الى اراحة البال والبدن للاسباب التي تعلمونها حقاً فلزمتني مراعاة الحال الى ان ينفس الله

الكرب لقوله تعالى ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة والله حفيظ وولي من يتوكل عليهِ والسلام في غرة صفر سنة ١٢٩٧ " الآ ان هذا المكتوب لما بلغ تونس منعهُ احباء صاحب الترجمة وخواصهُ من الوصول ليد الوزير وبقي المرحوم في وظائفهِ الى حين وصوله للاستانة ولما ورد خبر وصوله اليها اسرعت الحكومة التونسيَّة بتوجيه جميع وظائفه الى غيره وهو المرحوم الشيخ احمد الورتتاني ومما يجمل بي ذكره هنا ان عائلة صاحب الترجمة رأت من مكارم اخلاق هذا الخلف وحسن تودُّده وتلطفهِ بها ما يندر وجود مثلهِ في الاعصر السالفة فضلاً عن هذا الزمان في وقت اضطهاد الحكومة لسلفهِ ومراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق بهِ ثم ان صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانيَّة بقصيدة مطلعها

النصر والتأييد والعمر المديد   قد توجت في عرشها عبد الحميد

وارَّخ سنة الجلوس الشاهاني بقوله

بشرى الولاية قد اتت تاريخها   لخلافة يسنى بها عبد الحميد

ولم تطل الايَّام حتَّى ارسل الوزير التونسي يطلب من الباب العالي ارجاع الشيخ بيرم الى تونس مدَّعياً انهُ سافر بدون رخصة الحكومة ولم يقدم حساباً عن ادارتهِ في الاوقاف والواقع ونفس الامر انهُ لم يطلبهُ الآ بالحاح قنصل فرنسا عليهِ من جهة لان فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس والدولة العليَّة باي وجه من الوجوه حتَّى انها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ١٢٨٨ المقرَّر لتابعيَّة تونس للخلافة الاسلاميَّة ومن جهة اخرى قد خشي الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا وافسادهما مساعيهِ

لتولي الامارة واطلاع الدولة العثمانيَّة على دسائسهِ وسوء سياسة الحكومة التونسيَّة في مدة الصادق باي لانهُ سلم جميع الامور بيد وزيره العديم الخبرة وقد بذل مصطفى بن اسماعيل جميع مجهوده واغرى بعض كبار الرجال في الاستانة لمساعدتهِ على اخراج الشيخ بيرم منها غير ان حكمة مولانا امير المؤمنين وعدالتهُ حالت بين صاحب الترجمة وبين اعدائهِ واصدر امره العالي بانهُ اذا كانت هناك دعوى على ناظر اوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها اذ ان تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانيَّة الَّتي تجمعها جامعة تخت السلطنة وبذلك سكت مصطفى بن اسماعيل عن دعواه الفاسدة اما اولاً فلانَّ صاحب الترجمة لم يخرج من تونس الآ بجواز (باسبورت) رسمي ممضي عليهِ من الوزير نفسهِ بصفة كونهِ وزير الخارجيَّة لم يزل محفوظاً للآن وقد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحريَّة وأعدله بامر الوزير الاكبر زورق خصوصي من زوارق الباي لتوصيله للباخرة وقد اوصاه الوزير بمحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين هذا ما يتعلق بالسفر واما حساب الاوقاف فقد جرت العادة بنشره سنويًّا في الجريدة الرسميَّة " الرائد التونسي " ولم يتأخر نشره قط وهو محفوظ في مجموعة الرائد يمكن مراجعتهُ ثم ان صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز اخذ براءة من مجلس ادارة الاوقاف ممضى عليها من جميع الاعضاء ومن امين الصندوق وهي حجة قوية ناطقة بان لا شبهة في الحساب ولا شيء من اموال الاوقاف باق في ذمة الناظر وتلك البراءة هي بنصها بالحرف الواحد

الحمد لله　وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وسلم

ريالات فضه

٣٥٣٩٣٩ ٣١٠/١

٣٠٤٨٧٩ ٤٠٤٢/٣

٤٩٠٥٩ ٢/١ ٤٠٥/٣

٨٦٢ ٥٠٠٠

٤٠٤٣٤ ٢/١ ٤٠٥/٣

اطلعت الجمعيّة على حساب دخلها وخرجها سنة ١٢٩٦ التاريخ بانضمام حسابات السنين السابقة اليها فكانت جملة الدخل ثلاثمائة الف وثلاثة وخمسين الف ريال وتسعمائة وتسعة وثلاثين ريالاً ونصف ريال وعشرة نواصر فضة وجملة الخرج ثلاثمائة الف واربعة آلاف وثمانمائة ريال وثمانين ريالاً الاّ ثمانية نواصر ونصف ناصري فضه الذي بتذاكر الجمعيّة وكان الفاضل ما قدره تسعة واربعون الف ريال وستون ريالاً الاّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة اخرج منهُ الرئيس ثمانية آلاف ريال وستمائة ريال وخمسة وعشرين ريالاً فضة صرف خمسة آلاف فرنك صرفت في مصالح الدولة وخرجت فيها تذكرتين منها لقابضها يدفعها مصروفاً على يد الوزير الاكبر ولم يدفعها القابض الى الآن احداهما تذكرة مؤرخة في ٢٧ القعده من عام ١٢٩٣ عدد ٤٦١٩ بها الفا فرنك اثنان وثانيتهما مؤرخة في ١٥ الحجة سنة ١٢٩٥ عدد ٣٥٦٩ بها ثلاثة آلاف فرنك ولما كان الفصل الواحد والعشرون من ترتيب الداخليّة للجمعيّة قاضٍ بابقاء المفتاح الثالث

للخزنة الثانية عند الرئيس والفصل السابع عشر من الترتيب المذكور قاضٍ بان كاهية الجمعيّة يقوم مقام الرئيس عند غيبتهِ وقد اراد الرئيس السفر الى اروبا فبمقتضى ذلك ابقيت تذكرتا الدولة المذكورتان بالخزنة الثانية المذكورة وسلم الى الكاهية مفتاحها الثالث بمحضر الجمعيّة بعد اطلاعها على الحساب المذكور وسلامة ذمة الرئيس مما في عهدتهِ وكان الباقي تحت يد امين مال الجمعيّة اربعين الف ريال واربعمائة ريال وخمسة وثلاثين ريالاً الاّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة وكتب في ٢٠ يونيه الموافق لرجب الاصب ١٣ من عام ستة وتسعين ومائتين والف

صح احمد الورتتاني　　صح محمد بن الامين

صح محمد الشاذلي السنوسي　　صح من محمود بن سالم

هذا وقد خرج صاحب الترجمة مِن القطر التونسي وترك وظائفهُ فيهِ ولم يكسب منها شيئاً مع انهُ كان يسهل عليهِ كثيرًا في تلك الاوقات الدخول في ابواب الكسب بلا معارض ولا ممانع كما جرت بهِ العادة عند الكثير محافظة منهُ على الاستقامة واحترام الحق لا سيما والاوقاف لم تكن في بادئ امرها مضبوطة ولا معلومة فامرها في الواقع موكول لذمتهِ وطهارة نفسهِ فكان كثيرًا ما يلتزم لبيع املاكهِ وعقاراتهِ لتسديد مصاريفه الواسعة حتّى ان مصاريف سفره الاخير لباريس حيث توجه بمأموريّة من طرف الوزير التونسي تحمل بها من عنده وبلغت اربعة عشر الف فرنك مع ان الوزير المذكور وعدهُ بتسديدها ولم يوفِ بعد. ولما استقرت اقامتهُ في دار الخلافة وجد المرحوم خير الدين باشا مهتمًا

بتقديم تقرير بشأن الاصلاحات المقتضي ادخالها في نظام الدولة العليّة لزيادة سطوتها وتأييد عظمتها على حسب ما يفتكر وقد انهى التقرير المذكور بالفعل غير انهُ لم يحز محل القبول لانهُ لم يكن مطابقاً في بعض وجوههِ لاحكام الشريعة الغراء فاخذ الشيخ بيرم في تطبيقهِ عليها ولما انتهى منهُ حصل تقديمهُ للحضرة السلطانيّة ومن ذلك الحين شملتهُ الانظار الشاهانيّة بعين ملاحظتها لدقة علومهِ واتساع معارفه ثم انهُ تفرّغ لتدوين "صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار" وتمّ الجزئين الاولين منهُ وكان يقصد تقديمه للحضرة المعظمة المشار اليها عند اتمامهِ خصوصاً وهو شارع في جعل خاتمة الكتاب المذكور على نحو مقدمتي ابن خلدون واقوم المسالك اي انها تتضمن ما يقتضيهِ الحال لاصلاح الاحوال في البلاد الاسلاميّة لعود عصر شبابها اليها كما هو غرضهُ الوحيد الذي يدأب لهُ منذ زمان ويتحمل في سبيله كل مشقة وعناء وقد تحسنت صحتهُ اذ ذاك واستراح من اتعاب المرض وكاد ان يشفى منهُ تماماً حتى ان استعماله المرفين قل بحيث بلغ درجة تقرب العدم وبينما هو على ذلك الحال متنعم البال منتظراً الرحمة من الله بانقاذ بلادهِ من حكومتها الجائرة اذ ذاك وقد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها عليهِ الموسيو فورنييه سفير فرنسا في ذلك الحين حاصلها الرجوع الى تونس تحت كنف فرنسا او الاقامة بالجزائر او بباريس اذ فاجأتهُ الاخبار بزحف العساكر الفرنسويّة على الحدود التونسيّة وابتداء حركة "خمير" المخترعة . نعم ان الشيخ بيرم كان عالماً بما ستأول اليهِ البلاد من السقوط في يد فرنسا ولكنهُ لم يكن ينتظر حصول ذلك في العصر الحاضر وكانت في تلك

الاثناء ترد عليهِ مكاتبات من بعض احبائهِ التونسيين وغيرهم بما يحصل في تونس مِنْ تلاعب الوزير بين قنصلي فرنسا وايطاليا وارضائهِ احدهما يوماً واغضابهِ الآخر يوماً ثانياً وكان الشيخ ينصح مكاتبيهِ ومحبيهِ بتجنب هذه الالعاب المضرة خصوصاً تظاهر الوزير بالميل الفجائي لايطاليا واغضابه مرة واحدة عن فرنسا حتى انهُ اهان كرامتها لان ذلك لا تؤمن عواقبهُ ولم يمض على ذلك شهر حتى ايدت الوقائع ما كان يخشاهُ وليس مِنْ غرضنا تكرار كتابة ما حصل في ذلك العهد لدخول فرنسا الى تونس واعلان حمايتها عليها اذ ان ذلك تكفلت بهِ كتابات غيرنا ولكنا نقول ان الحضرة السلطانيّة اصدرت امرها لخير الدين باشا ولصاحب الترجمة بتقديم ما يريانهِ في هذه المسئلة لجانبها وقد كتب صاحب الترجمة في ذلك تقريراً مفصلاً لخص فيهِ بيان حقوق الدولة العليّة على البلاد التونسيّة وارتباطاتها بها قديماً وحديثاً واستنهض هم الدولة لانقاذ تلك المملكة المسلمة حيث انها مرقد المجاهدين ومدفن الصحابة والتابعين من الوقوع في يد دولة اجنبيّة وختم التقرير بنتيجة ما يراه وهو انهُ اذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيّة وعواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها فلا اقل مِن انهُ يلزمها التحالف مع دولة اجنبيّة اخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام ولو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل مينا بنزرت في مقابل هذا التحالف وكانت الدولة جرت على مثلهِ مراراً عديدة فان خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها وقد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير والدموع تقرح عينيهِ والالم العصبي الذي تحرك وتجدّد يفتك بجسده وكان يكرر القول على جلسائهِ بان

لا حذر مما قدّر لا سيما وان الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت وهذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال وسيأتي ذكر هذا التقرير في مجموعة منشآته ورسائله ولما رسخت قدم فرنسا في البلاد يئس المرحوم من قرب العودة اليها ورام التقرب من عائلته للمخابرة في شؤون بيع ماتبقى من املاكه ونقله العائلة من تونس الى بلاد اخرى فسافر الى ايطاليا لذلك الغرض واقام في مدينة ليفورنو لقربها من تونس وكان مدة اقامته في الاستانة معاشرًا لاهلها وخصوصاً ابناء العرب منهم معاشرة الصفاء والاخلاص متباعدًا عن المزاحمة في طلب المناصب او التداخل فيما لا يعنيه ولم يرَ منهم الاَّ ما يسره وكان السيد سلمان القادري رجع من القسطنطينيَّة الى بغداد فلما استقرَّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصهُ

"كتابي هذا وانا ممتلي من الاشواق . ومضطرب لما لها من الاحراق . كيف لا وحب ذلك المولى الاجل . والنجيب الافضل . قد اخذ بمجامع القلوب. واحاط بالفكر على اتم اسلوب. لمزيد ما انطوى عليه من الاوصاف الحميدة . والمكارم السديدة . مع طبع رائق . وعلو جناب فائق . وشهامة كاملة . ونجابة فاضلة . وعلم وافر . وفضل متكاثر. فكل فضيلة به حريَّة . وكل مفخرة لهُ سجيَّة . وليكن معلوماً لسيدي ادام الله تعالى بقاه . واناله كل ما يتمناه . باني لم اخل ذكر ثنائه الجميل من لساني . ولم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جناني . بل لا زلت آنساً بما ذكرتهُ من الذكر والخيال. مفتخرًا بما حصلتهُ من محبة ذلك المولى النبيل بين الاحباب في جميع الاحوال. ثم اني وان قدمت من قبل هذا عريضة لم احظَ بجوابها من ذلك الجناب

الرفيع لكنني ابدي عذرًا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفه بكتاب آخر اذ ترادف المرائض . معدود لدي من جملة الفرائض. فلم يكن التأخير المذكور ناشئاً من قصور في المحبة. ولا عن تقصير في العلم بعلو الدرجة والمرتبة . بل ذلك نوع من التقدير . ووجدانك القوي عالم خبير. يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير. فالمرجو من بعد هذا ان تستمر المراسلات في البين . وينقطع بوجودها البين . افندم

الداعي

في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ — پوست نشين حضرت كيلاني

نقيب بغداد

﴿ السيد سلمان القادري ﴾

وقد كان صاحب الترجمة على عادة اهل تونس وعلى ما امتاز به من التشيع الكلي لآل البيت النبوي الكريم يميل ميلاً خاصاً للسيد المشار اليه لنسبه العالي وحسبه الغالي وفضله المتلالي حتى ان ذلك كان من جملة البواعث على الايقاع به تشفياً من سيادة السيد النقيب حرسهُ الله ومع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهدهُ لجعل علاقاته مع جميع من يعاشرهُ من العرب وغيرهم في الاستانة على احسن ما يكون من المجاملة وحسن المعاملة وكان مع صاحبي السماحة السيد احمد اسعد افندي والسيد ابي الهدى افندي على قدم الوداد وحسن الاعتقاد كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديه ونذكرها هنا تبركاً بهما وافتخارًا بودهما

"اخذت يابهجة الفضلاء . وقرَّة اعين العلماء . كتابكم الكريم . وامركم المحترم الفخيم. واطلعت على رسالتكم الجميلة [1]

(١) عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان

الشاهدة لحضرتكم بايادي العلم الطويلة . واني بحمده تعالى ممن يحب ان
يسدي المعروف لاهل الفضائل . سيما لمثل حضرتكم من ارباب المزايا العليّة
والفواضل . فاذا وفق المولى نقوم بتقديمها لمحلها . ودمتم ارباب المناقب واهلها "

الداعي
(ابو الهدى)

" قدوة الاماجد الكرام . ذو الفضل والاحترام . محبنا العزيز السيد
محمّد بيرام . حفظهُ الله آمين

وبعد مزيد السلام . مع التحيّة والاكرام . نعرف سيادتكم هو ان الساعة
ثلاثة ونصف في يومنا هذا لازم تشرفونا في البيت مع نجلكم المكرم لاجل
ان نتبرك بكم . هذا ما لزم ودمتم . في عز وسرور . وانعم حبور
في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٠٠ "

الداعي
(احمد اسعد)

وبعد ان اتفقُ صاحب الترجمة مع عائلتهِ على العود الى الاستانة
والسكنى بها حيث لم يرَ محلاً انسب منها من بلاد الاسلام ولا تليق
السكنى بعائلة مسلمة في بلاد اجنبيّة مع انهُ كان يخطر في بال بعض
التونسيين اذ ذاك التوجه في عدد كبير الى امريكا للاستيطان بها غير ان
هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونهُ فقصد المرحوم التوجه
الى القسطنطينيّة وعرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث ابقى كاتب هذه
الاحرف في احدى مدارسها المعتبرة ثم قصد ويانه وبلاد المجر والصرب
ورومانيا حيث اقام ليلة في بخارست ومنها توجه الى وارنه من اعمال البلغار

ومنها ركب الباخرة قاصداً دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد
اذ ذاك بينها وبين اوروبا وقد قاسى في هذه السفرة آلام البرد واتعاب
السفر الذي حق فيهِ القول بانهُ قطعة من العذاب خصوصاً ولم يكن
صاحب الترجمة يتكلم بلغة اجنبيّة الاَّ بعض كلمات فرنساويّة وليس في
النمسا ولا في البلاد الّتي عرج عليها كثيرًا ممن يتكلم تلك اللغة وكان يسرع
المسير للوصول قبل عائلتهِ الى الاستانة تحضير محل لنزولها وقد وصل اليها
قبل العائلة بنحو يومين او ثلاثة وبعد ان استراحوا قليلاً فاجأَهم ذوو
الدسائس والاغراض بوشايات اوغرت الصدور على صاحب الترجمة
وكادت ان توقعهُ فيما لا تحمد عقباهُ وكان مبنى تلك الوشايات على حصول
الحركة العرابيّة بمصر اثناء وجود الشيخ بيرم في اوروبا فبنى عليها اصحاب
الاغراض اقوالاً فاسدة ومزاعم بعيدة منشأها الحقيقي حزازات في
صدورهم من الحسد له وبغية الايقاع بارباب المناصب من اصدقائهِ واحبائهِ
فارادوا الانتقام منهم بالاساءة الى صاحبهم وجعلهِ محل تهمة يستخرجون
منها ما يروج غرضهم في النكاية باولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه الى
دار الخلافة الاسلاميّة ان ينزوي في بيتهِ ويلازمهُ مدة تقرب من الستة
اشهر لا يخرج منهُ الاَّ لقضاء الضروري او اداء فرض عين كصلاة الجمعة
وقد رأى في تلك الاثناء من تودّد الهمام الابر الصالح الورع الشيخ محمّد ظافر
افندي المدني وتلطف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش
محل سكنهِ وكلا هما من اقرب المقرَّبين للذات الشاهانيّة المخلصين لها في السر
والعلانيّة ما اطلق لسانهُ بالشكر وقلبهُ بالدعاء الصالح لهما والحق يقال ان

الحضرة الخاقانيَّة لم تفترعن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها وكثيرًا ما
كان امير المؤمنين نصر الله بهِ الدين يظهر علائم رضائهِ وصفائهِ عليهِ حتى انهُ
لما اراد يهدي الى امبراطور المانيا فريدريك الثالث وكان اذ ذاك ولي العهد
بعض جياد الخيل امر احد الاعوان ان يتوجه الى الشيخ بيرم ليكتب رسالة
عربيَّة يصحبها المأمور السلطاني معهُ عند ذهابهِ الى برلين ليقدمها مع الخيل
الى الامير المشار اليهِ وكان ذلك بعد صلاة يوم الجمعة الثالث والعشرين من
رجب سنة ١٢٩٩ وكان يطلق عليهِ عند ذكره من الفاظ العناية ما يستدل
بهِ على قرب منزلتهِ من خليفة المسلمين وبمجرد وصول جلالتهِ الى قصره
الفاخر يلدز بعد صدور ذلك الامر جاءهُ الرسول بالكتابة المطلوبة فسرَّ
بها كثيرًا واثنى على كاتبها وتلك الرسالة هي " الحمد لله بديع الخلق كما شاء
واراد . جاعل الصافنات الجياد . عدة مستمرة من أهم آلات الاستعداد .
وصلاتهُ وسلامهُ على رسولهِ متمم مكارم الاخلاق . الحاث على الفروسيَّة
واقتناء الخيل العتاق . وعلى آلهِ واصحابهِ فرسان ميادين الوفاق . اما بعد
فلا يعزب عن نباهة نبيه . ودراية خبير في المعارف وجيه . ما للخيل على
الاطلاق من المزيَّة . في المنافع البشريَّة . بسائر الآفاق . حتَّى ورد في الخبر
الشهير " الخيل معقود بنواصيها الخير" لا سيما نوع العراب منها . الجامعة
لاشتات المحاسن فلا مندوحة لاهل الفضل عنها . ألم ترانها قد حوت جمال
الصورة . واستقلت بالحذق وتهذيب الاخلاق المشكورة . فكادت ان تشارك
النوع الانساني في الادراك . وفضلت سائر انواع الحيوان بلطافة الذات
والمزيَّة في مواطن العراك . ألا وهي العاديات ضبحًا . المغيرات صبحًا .

متوسطة الجموع . مستشرفات الفروع . مبلغات الآمال . مقربات الشواسع
لهم الرجال . فلذلك توجهت اليها عناية اهل الفضل . وتسابقت اليها
الرغبات في الخصب والمحل . ولم تزل كريماتها محفوظة الانساب . متوارثة الخصال
الحميدة من الاجداد الى الاعقاب . لا يأتلي اهل العناية عن اقتنائها . ومعرفة
اصلها ونسبتها وانتشائها . ويفوز عليها بالمزيَّة ما صلح منها لاقتناء الملوك العظام .
سيما ما اختص بان يعتلي صهوتهُ خليفة الاسلام . لا زال تاجًا على هامة الايام .
وما تختارهُ اليهِ العرب مِنْ صفوة جيادها الكرام . وعلى الخصوص ما تميز
باهدائهِ لخلاصة اهل ولائهِ . من الملوك الفخام . وكان منها هاتهِ الخمس
الجياد . العتيقات الاعراق الامجاد . ثلاثة منها عراب الآباء والامهات .
واثنان من خلاصة الاعاجم الوطن وان ناكبت العراب في الصفات . وقد
تحرر هذا التحرير في التعريف باصولها . وما جمعت من سمات الكمال وفصولها .
فاما الثلاثة العراب . السابقة القرين في العراقة والانتساب . فاولها اشقرها
المبارك . الذي لا يدانيه في استجماع المحاسن مشارك . واسمهُ المجلي . وقد
طابق اسمهُ مسماه اذ هو لمفاخر الخيل مجلي . وهو من جياد نجد العربيَّة .
الشهيرة الصفات والمزيَّة . سقلاوى القبيلة . شامل لما يحمد في امثالهِ من
الفضيلة . كل سلسلة اصولهِ من قبيلته المحمودة . وكلا ابويهِ متفرع من ذلك
القبيل الى جدود كثيرة معدودة . مسماة اجداده وجداته . خالصة من
اشتباه النسب وكمالاته . واما ثانيها وهو الاشهب . الجاعل ابعد القصبات
الهين الاقرب . واسمهُ السابق . فهو مناكب متقدمهِ في جميع صفاتهِ حتى غدى
بهِ لاحق . سوى انهُ استعوض عن النجديَّة . بان كان من العراق العربيَّة .

ولا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزيَّة . سيما في حفظ النسب من الاختلاط . وانتساق عمودهِ على اقوم صراط . لا جرم ان كان وحيد اقرانه . بنباهة شانه . واما ثالثها المسوَّم . وهو الاحمر المستكمل المقوَّم . واسمهُ ابو ليلى . فقد جمع لما في جياد الخيل يتلى . اذ هو من صنف كحيل العجوز . الذي هو لصفات العتاق من العراب يحوز . وعلى من جاراهُ في ميادينها يفوز . فهو لا يجارى اذا ما ضمر . لانهُ من خلاصة خيل قبيلة شمر . فلعمري ان هاتهِ الثلاثة وان اختلفت انسابها . فقد اتحدت عراقتها واحسابها . وكل منها قد استكمل صفات الجودة والفضيلة . واستتبت فيهِ محامد كل الخصال الجميلة . فلا بدع ان تبعها ما يكمل بهِ عدد الخمس . مما تنبسط لهُ الروح وتنشرح بهِ النفس . وهما الفرسان الاخضران . اللذان استكملا صفة العتاق ولو انهما اعجميان . وهما من جزيرة مدلي الشهيرة . ذات النقطة المهمة من البحر الابيض الفائزة بالخيل ذات المناقب الخطيرة . وهما وان افترقا هيكلاً . فقد تفردا منظرًا مجملاً . اذ هما فرسا رهان . متحدا الاخلاق والسمات والالوان . فاستكملت هاتهِ الخيل مزايا التناسب . وكانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب »

وقد كان السلطان ارسل لهُ قبل ذلك ايضاً كتاب الشفاء لابن سينا في نسخة جميلة لتفحصهِ وتقديم كتابة بمضمونهِ وبعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمي الاعادي وحسد الحساد زاد السلطان في اكرامهِ باحتساب مصاريف اقامتهِ في الاستانة على خزينة الدولة باعتبارهِ ضيفاً من ضيوف الحضرة السلطانيَّة وذلك بان تدفع نظارة الماليَّة اجرة المنزل ولوازم

البيت وقدرت في الشهر بخمس وعشرين ليرة عثمانيَّة وقد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهرًا اي لحين خروج صاحب الترجمة من الاستانة

وقد بادر المرحوم بكتابة المكتوب الآتي لاداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانيَّة ونصهُ

المقام الذي اناخت به مطايا البيان واستقرت . واعترفت البلاغة بانهُ وحيد عصرهِ واقرت . وعضد اليراع اشهادها اذ كان بعد ان جست يدها استطاعته ونقرت . فلا بدع ان ابصرت بهِ عين الوزارة وقرت . وكان يمين الخلافة المؤتمن منها على ما تشا . ألا وهو صاحب الدولة علي رضا باشا . باشكاتب الحضرة السلطانيَّة . افاض الله عليهِ آلاءهُ القدسيَّة . اما بعد سلام تحملهُ ايدي التعظيم . وتحفهُ آداب الاجلال والتفخيم . فقد بلغ العبد ما حصل لهُ من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى . والسلطنة الباذخة المجد الشمى . فوقع مني هذا الانعام الموقع الذي ليس وراءهُ حد في الاعجاب . وهزني السرور حتى اعجزني عن التلفظ بالخطاب . كيف لا وقد لاحت من ذاك الانعام بفضل الله علائم اخلاصي فيما اقتحمتهُ من مفارقة وطني وكسبي وعشيرتي وخواصي كما كنت بسطتهُ لدى جنابكم قبل ان تحدث على وطني الطامة الكبرى . المرجو من الله ان يبدل بأمير المؤمنين عسرها يسرا . من اني اعد عملي قربة لله جل وعلى . اذ في ذمتي ورقبتي بيعة لامير المؤمنين لا تبلى . ولا يجوز لي شرعاً ان ابتغي بعبد الحميد سلطاني بدلا . فقد ورد في صحيح البخاري " من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليَّة " فلم ابالي لذلك بالمضادات الوطنيَّة والخارجيَّة . واستقررت في ظل الخلافة

الاسلاميَّة . إلى ان غمرتني الانعامات الخاقانيَّة . فكيف لا اطير لهذا الانعام سرورًا . وهو علامة بإرادة الله تعالى ان تنال النفس الرضى موفورًا . فقلت يا نفس قرّي عينًا . وردي من مناهل امير المؤمنين عذبًا معينًا . فها انت شاهدت قسطاس عدلهِ . واين انت من جودهِ وفضلهِ . وفوق ذلك الطاف العناية . التي ليس وراءها للتطلب من غاية . فحسبي حسبي . ولنتوجه ضارعًا الى ربي . بشراشر لبي . واخلاص قلبي . ونقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائهِ . ويا من احتجب برداء كبريائهِ . يا من توجهت الى جنابهِ الاقدس عزائم الآمال . ويا من تعلقت بعميم جوده اطماع السؤال . نستوهبك من الصلوات والتسليمات . ما يناسب من فضلتهُ على جميع المخلوقات . وانرت بهِ اقطار الارض والسموات . سيدنا ومولانا محمَّد خاتم الرساله . ومنار الدلاله . وتنظم فيها معهُ صحبهُ الكرام وآله . ونتضرَّع اليك اللهم ان تكسو هاتهِ الدولة العليَّة العثمانيَّة حلة النصر . خافقة ألوية عدلها الى آخر الدهر . مؤيدة اعلامها . مكتوبًا على صفحات الايام اجلالها واعظامها . بتأييد اسد غابها . وامام محرابها . قرة اعين المسلمين . مولانا امير المؤمنين . المحفوف بالتأييد الرباني . الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد الثاني . اللهمَّ وكما جعلتهُ منخرطًا في سلك المدح من رسولك عليهِ الصلاة والسلام لامراء القسطنطينيَّة من آله الكرام حسبما هو في الصحيح المأثور . فاجعله اللهمَّ مظهرًا لوعدك حيث قلت " ولينصرَنَّ الله من ينصرهُ ان الله لقويٌّ عزيز الذين ان مكنا هم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " واطل اللهم في طاعتك عمره . واجعل السداد

والصلاح فيما دبره . منكسة اعداؤهُ على الاعقاب . مستبشرة احباؤهُ بعملهِ المستطاب . وألسنتهم بالدعاء اليهِ صادحة . خاتمين ضراعتهم باسرار الفاتحة . وبعد ان انتظمت دعواتنا بمشيئة الله في سلك الاجابة . واحرزت من حضها موقع الاصابة . حان لعصابة الشكر والحمد والثناء ان تكون لسدَّة امير المؤمنين ايده الله مصروفة . ومن البديهي ان وقوعها موقع القبول لدى جلالتهِ على حسن تمهيد مثالك أيها الوزير بعد الاعتماد على الله تعالى موقوفة . فلتورِ لها زناد الحميَّة . من تلك الغيرة الرضائيَّة . لا زلتم صاعدين مدارج السعادة في العناية السلطانيَّة "

وفي تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من صفوة الاعتبار وتحرير رسالة سماها " التحقيق في مسألة الرقيق " بحث فيها عن كيفيَّة معاملة الرق عند المسلمين بمقتضى الشريعة وبيان اسباب الرق ودواعيه واحكامه وذهب فيها الى ان العبيد المباعين الآن هم احرار وان منع الحكومات الاسلاميَّة لتجارة العبيد هو شرعي محض لا يحتاج الحال فيهِ لطلب الدول الاجنبيَّة وقد حرر قبل ذلك جوابًا علميًّا لبعض نبلاء الانكليز عن سؤال وجههُ اليهِ مضمونهُ هل ان التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة اجنبيَّة فاوضح السيد بيرم في جوابهِ بان التونسيين ليسوا اقل الامم حبًّا في الاستقلال والتنعم بلذائذه والغيرة على الوطن وانهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الاسلاميَّة واستدل على ذلك بادلة عقليَّة ونقليَّة طويلة مقنعة وقد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان في تونس ان يحتفل كل سنة بالمولد النبوي الشريف احتفالاً

شائقاً واظب عليهِ لحين وفاتهِ حتى انهُ كان آخر اعماله في هذه الدنيا رحمهُ
الله وفي كل سنة يكتب رسالة مخصوصة في موضوع من المواضيع العلمية
يتخلص فيها لذكر المولد الشريف وقدالف في الاستانة رسالتين لذلك الغرض
احداهما فيما يجب لآل البيت النبوي الكريم من التبجيل والتعظيم مبيناً
حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلي حتى لا يدخل في هذه
السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة وثاني الرسالتين فيما
يجب للنبي صلى الله عليهِ وسلم على سائر المسلمين وألف رسالة اخرى في
سكنى دار الحرب وذلك عند ما رأى ما طرأ على بلاد الاسلام من التقهقر
المستمر نسأل الله اللطف والسلامة وقد ذهب في هذه الرسالة بعد شرح ما عليهِ
البلاد الاسلامية الآن الشرح الكافي وايراد الادلة والنصوص الشرعية الى
ان الانسان حر فيما يختاره حسب مصلحتهِ واجتهاده . وقد سأله بعض الافاضل
عن رأيهِ في مسألة الاجتهاد والتقليد مستنداً على الرسالتين المطبوعتين في
الاستانة المنسوبتين لملك بهوبال صديق حسن خان فشرع في الجواب غير
انهُ لم يتمهُ ويظهر من فحوى كلامهِ واعماله الخصوصية انهُ يرى تقليد احد
الائمة الاربعة واجباً على حسب المشهور في مذهب اهل السنة . ولما تولى
امير تونس الحالي منصب الامارة هنأهُ الشيخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين
البيتين

ألا بعلي ملك تونس سدّدا فلا زال فخراً للبلاد مؤيدا
ونجح دعائي بان اذ قلت ارّخن ألا بعلي ملك تونس سدّدا

وقد توجهت في ذلك الوقت آمال احباء قائل هذين البيتين لرجوعهِ

الى تونس اذ ان نفوره الذاتي كان من الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي
افل نجمهُ بوفاة سيده الصادق باي ولم يبق من مانع له من العود الى بلاده
ومسقط رأسهِ ومدفن اجداده خصوصاً ورستان نائب فرنسا استبدل بغيره
وصفا الوقت وزال المقت فكاتبهُ بعض المتشيعين للسفارة الفرنسوية بتونس
بمناسبة الفرصة لا سيما وقد كان وعد الامير عند توديعهِ وهو اذ ذاك ولي
العهد بالعود الى الوطن عند ولايتهِ عليهِ فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك
بان السيرة العمومية هناك لم تبقَ على الحالة المألوفة ثم ان صحتهُ لم تزل في
تقهقر في الاستانة لتأثره من الانفعالات النفسانية المتسببة عن دسائس ذوي
الاغراض السابق شرحها التي لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس
او فضل يميزه بين اقرانه والمعالجة والعيال يلزمها الكثير من المال فباع
صاحب الترجمة جميع املاكهِ بتونس وصار يصرف من ثمنها في حاجياته وعوائدهِ
التي لم يغير منها شيئاً بحيث رأى نفسهُ في تأخر مالي مستمر لا يأمن معهُ من
الوقوع في مخالب الفقر وهو لم يحسن من العمل الا مباشرة عقاراتهِ والتفرغ
للاشغال العلمية وكان بعض كبار اصدقائهِ ينفرهُ من سائر الوظائف العادية
لاعدادهِ الى وظيفة مخصوصة تليق بعلومهِ وما زال منتظراً حتى ضاق لذلك
ذرعاً وزاد عليهِ اشتداد المرض العصبي اذ وجد عاملاً لتحريكهِ قوياً وهو
الانفعال النفساني المستمر فنظر في امرهِ فلم يجد من البلاد الاسلامية التي
يمكنهُ الاقامة فيها براحة بال الا القطر المصري وهو مع حرارتهِ التي يأباها
مزاج صاحب الترجمة الا انهُ اوفق من غيرهِ من البلاد الاخرى . اما
الولايات العثمانية فقد اشار عليهِ بعض المطلعين على الاحوال على ان طلبهُ

التوجه اليها لا يحوز محل القبول خصوصاً وهو لم يكن لهُ ميل الاَّ للتوجه
الى المدينة المنوّرة للمجاورة او الى الشام ويمنعهُ عن الاقامة في الحجاز
احتياجهُ المستمر للحكماء والعلاجات وهما شيئان مفقودان تقريباً من تلك
الجهات المباركة فاستخار الله في القدوم الى مصر وساعدتهُ المقادير بالحصول
على مكاتيب توصية لبعض ذوي النفوذ في هذه البلاد فاراد طلب الرخصة
للقدوم اليها ولكنهُ استشعر ان طلب الاذن للتوجه اليها ربما لا يحوز قبولاً
خصوصاً وانهُ تعذر عليهِ وجود من يبلغ الحضرة السلطانيَّة تفصيل امرهِ
وشكوى حالهِ على الوجه الحقيقي والاَّ فان احترام الخليفة لمثلهِ من علماء
المسلمين كان يدفع شكواهُ ويرفع عنهُ ألم معيشتهِ ولكن دون الملوك من
عقبات الاشغال ما يمنعهم عن الوقوف احياناً على مثل هذه الاحوال فاذا
فقد الناصح الامين الذي يتيقظ لملافاة هذه الامور بحسن تبليغها الى مقام
الخلافة حصل الاهمال الذي وقع فيهِ صاحب الترجمة وامثالهُ فالتزم التمحل
بطلب العودة الى الوطن وقارن هذا الطلب الاجابة اذ كاتبهُ علي رضا باشا
باشكاتب المابين الهمايوني بهذه البطاقة العربيَّة وهذا نصها بالحرف الواحد
بخط يدهِ

" العالم الفاضل والاديب الكامل محمَّد افندي بيرم سلمهُ الله

بعد التحيَّة الوافية نبدي لكم اننا عرضنا مادة العزيمة الى بلدتكم فصدرت
الارادة السنيَّة السلطانيَّة على عزيمتكم الى ذلك الطرف ان شاء الله تكون
مصحوباً بالسلامة ونروم منكم ان لا تنسونا من دعائكم الصالح في السفر
والاقامة ودمتم في ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (علي رضا) "

وممَّا يذكر هنا مقروناً بمزيد الاسف ان القسطنطينيَّة العظمى تشتمل على
نحو المليون نفس من السكان من اجناس مختلفة اقلهم ابناء العرب او
المنتسبون اليهم ومع ذلك لا ترى اشد منهم تهافتاً على الايقاع فيما بينهم فبينما
ترى الروم والارمن واليهود يعاضدون بعضهم بعضاً ويسعون لبني جنسهم
في الخير بحيث يصدق عليهم انهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ترى
اولاد العرب المسلمين يتحلون ويتلهفون على اختلاق الاسباب وايجادها
لابعاد بني جنسهم عن دار الخلافة وتنفير قلوبهم منها ولله في خلقهِ آيات.
فقد راجت فيهم سوق التحاسد والتباغض والتنافر والتشاحن حتَّى لا يكاد
يخلو حديث من احاديثهم او حركة من حركاتهم الاَّ في ايذاء بعضهم وايقاع
السوء بأنفسهم والتخاذل فيما بينهم لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير
والعظيم والحقير بل الداء واحد في الكل الاَّ من وفق الله ولا شك ان هذا
من سوء حظ الاسلام الذي كان ينبغي ان يصرفوا لهُ اوقاتهم في خدمتهِ بما
في يدهم من القدرة على نفعهِ نسأل الله ان يرفع من بينهم آفة الدسائس التي
يشوشون بها على انفسهم وعلى بلادهم ويسقطون بها سائر الامة العربيَّة في
أعين الامة التركيَّة

وقد غادر الشيخ مركز الخلافة والعين مغرورقة بالدمع والحشاء ممتلئة
بالاسى والصدر مفعم بالاسف ليس ذلك لمنصب فارقهُ او لرفاهة عيش
زايلها او لطمع في شيءٍ من نعيم الدنيا الزايل وعيشها الفاني وانما كان يتحرق
فؤادهُ لما كان يرى عليهِ الامة الاسلاميَّة من الانحلال والاخذ في اسباب
الضعف وكيف ان بلادهُ وقعت اولاً في يد الاجنبي وخرج لاجل ذلك

مشتتاً بعائلتهِ في البلاد ليسكن بها بلدة اسلاميةً فلم يرَ امامهُ مكاناً هو اولى
ان يقصد لهذا الغرض وأليق بعالم مسلم مثلهِ من اولاد نقباء الاشراف ان
يقيم بعائلتهِ فيهِ سوى دار الخلافة وعلل النفس بأن ما يراهُ هناك من صولة
الاسلام وتشييد الدين واستقامة أمور المسلمين واجتهاد امير المؤمنين ومن
حولهُ من خاصتهِ وحاشيتهِ ورجالهِ لانقاذ الاسلام واهلهِ مما سيسلي مصابهُ
بفقد بلادهِ ومنّى النفس بانهُ لا ييأس على ضعفهِ وعجزهِ من القيام بخدمة
تفيد الاسلام او نصيحة تشيد الدين او اشتراك في عمل يجمع بهِ كلمة المسلمين
او ما يماثل ذلك مما يجب على كل فرد من المسلمين القيام بهِ وخصوصاً من
كان من طائفة العلماء فرأى لسوء الحظ من تلك الدسائس ودنايا
السعايات ومسابقة الوشاة اضرارًا بكل من كان مثلهُ على رأيهِ حتى يخلو
الجوّ لاولئك المسابقين ما اضطرهُ الى مبارحة دار الاسلام للتشتت مرة
اخرى في البلاد بعائلتهِ بعد ان يئس من العمل في حقهِ بمقتضى الآية الشريفة
" قل لا أسألكم عليهِ اجرًا الّا المودة في القربى " والمرحوم يمت بحبل النسب
الى البيت الطاهر النبوي من جهة ويتصل من الجهة الاخرى الى مجاهد في
سبيل خدمة الدولة العليّة اراق دمهُ في افتتاح البلاد التونسيّة ولم تزل
اعقابهُ تتوارث الولاء والاخلاص والصداقة المتينة للدولة العليّة في كل
زمان ومكان حتّى انهُ لما اهدى السلطان عبد المجيد كركًا من السمور الفاخر
من ملبوساتهِ الذاتيّة الى امير تونس احمد باشا لم يرَ الامير المشار اليهِ أليق
بلبسهِ من الشيخ بيرم الرابع فاعطاهُ اياهُ ولم يزل محفوظاً يتبرك بهِ في بيت
بيرم بتونس وصار لبس الكرك مزيّةً لهم لم يقلدهم فيها سواهم وقد اكتفى الشيخ

الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسي لما عرضهُ الامير عليهِ واتبعهُ في
ذلك صاحب الترجمة ايضاً سنة ١٢٩٥ اذ صارت العادة في تونس ان العلماء
لا يتقلدون النياشين وفي حرب الدولة مع الروسية سنة ١٢٤٤ تقاعست
الولاية التونسيّة عن نصرة الدولة ماديّا وادبيّا فلم يجد شيخ الاسلام بالاستانة
من يستعين بهِ لحث المسلمين في تونس على مساعدة الدولة الّا جد صاحب
الترجمة بيرم الثاني لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم انها متعلقة بخدمة
الدولة لا تفتر عن ذلك ابدًا فاجابهُ بالمكتوب الآتي نصهُ

" ربنا افرغ علينا صبرًا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .
ان احسن ما تشرفت بهِ الامة المحمديّة . وتجملت بهِ العصابة الاحمديّة . اتباع
اوامر الله تعالى ونواهيهِ . وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيهِ .
اقتداء بصدرها الاول . وعملاً بسنة نبيهِ المرسل . ولعمري ان هذا في
العبارة وان كان سهلاً بيناً . ففي ابرازه للوجود ليس هيناً . لتوقفهِ على
امدادات الهية . وهداية ربانيّة . وداع الى هذا بلسانهِ . ورمحهِ وسنانهِ .
وقد تطابقت حملة الانباء في سائر البلاد . منْ جميع العباد . ان القائم بهذا
الشأن . والحائز قصب السبق في هذا الميدان . ومجدد الدين بعد الاندراس .
ومظهر اعلامهِ اثر الانطماس . الدولة العثمانيّة اعلى الله منارها . وضاعف
اقتدارها . وانام الانام في ظلها . واعاد عليهم من فيض فضلها . فلم تخل
والحمد لله من امام يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ولم يأل جهدًا في
رمي اعدائهِ بالعذاب الاليم . مؤيد من الله بعلماء . عاملين هم ورثة الانبياء
ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ

الاسلام . وامام العلماء الاعلام . ومرجع الحكام في الاحكام . ومن بيده
مقاليد النقض والابرام . لا زالت اقلامهُ في بحار العلوم سابحة . ومواعظهُ
للقلوب جارحة . وتجارتهُ عند الله تعالى رابحة . كتاب كريم . هادٍ باوامره
ونواهيهِ الى الصراط المستقيم . لا يقابلهُ كل مؤمن الاَّ بالقبول والتسليم .
وكيف لا وقد جاء بالذكرى التي تنفع المؤمنين . المأمور بها في الكتاب
المبين . حاثًا على الجهاد . والتشمير عن ساق الاجتهاد . وتعاطي اسبابه .
وطرح الامور الصارفة عن بابه . فاجتمع لقراءتهِ الاعيان من العلماء وغيرهم
بحضرة الامير جمعاً . وفتحوا لهُ قلباً وسمعاً . وتلقوه بالاذعان والقبول .
والمبادرة لامتثالهِ بالفعل والقول . واميرنا مثابر على تنفيذ اوامر الدولة
العلية . التي طاعتها من طاعة رب البريَّة . وماهو الاَّ ان يؤمر فيطيع .
ويكلف فيأتي بما يستطيع . والله تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره . ويجعل
اعداء الدين تحت قهره . ويعلي رايتهُ الشامخة في البر والبحر . ويكتب على
صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم . من العبد الفقير
محمَّد بيرم "

وفي الحرب الاخيرة تأخرت الحكومة التونسيَّة عن مساعدة الدولة
ايضاً لخوفها من معارضة فرنسا فقام الشيخ بمقتضى ما ورثهُ عن ذويهِ من محبة
الدولة العليَّة يحرض الوزير وينصح الامير ويحض المسلمين جميعاً على اعانة
الدولة ولم يكتف بذلك فقط بل سعي سعيهُ حتَّى توصل لاستخراج فتاوى
شرعيَّة بوجوب القيام بواجب المساعدة للدولة حتى لا يبقى هناك عذر لمعتذر
في ذلك التقاعس وهذا صورة السؤال الذي طلب عليهِ الفتوى

" علماء الاسلام . بعد اهداء السلام . والتحيَّة والاكرام . ما قولكم .
رضي الله عنكم . في نازلة صورتها ان امام المسلمين قد اخبر اهل قطر من
المسلمين ممن هم تحت طاعتهِ . وداخلون تحت بيعتهِ يخطب ائمتهم باسمهِ على
منابرهم بان العدوّ قد فاجأ بلاد المسلمين معلناً بالحرب ووقعت منهُ المباشرة
بالفعل في حدود المملكة وكان الامام استشعر من العدوّ ما آل امرهُ اليهِ
من مباشرتهِ بالحرب فهيأ من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة
الاسلام نحو الستمائة الف وحين اطلاعهِ على جيوش العدوّ وعلم ما امكن
من اخبارهم رأى الامام ان الستمائة الف تحتاج الى ضم آخرين اليهم من
العدد الكثير الذي تحصل بهِ مقاومة العدد ويمكن لهُ بهِ مدافعة العدوّ فاستنفر
كل من استطاع من اهالي ذلك القطر الى الانضمام الى حوزة العساكر ثم
الذي وقع في الخارج بعد استنفار الامام هو ان العدوّ قد استولى على
بلدان وقرى من مملكة ذلك الامام واهاليها مسلمون جارية في تلك البلدان
والقرى شعائر الاسلام كما استولى على قسم من مملكة ذلك الامام سكانه
نصارى يؤدون الخراج ويذعنون بالطاعة للامام وهذا القسم له بال من
المملكة يبلغ عدد سكانهِ نحو الخمس ملايين وقد جعله العدوّ مركزًا لذخائره
وعَدَدهِ وعُدَدهِ بما فيهِ من الحصون ومع ذلك لم يقدر العدد الوافر المهيأ
من عساكر المسلمين على اخراج العدو لما تسلط عليهِ ثم حصلت للعدو مضرات
اخرى من غزو سفنهِ وثورة قسم ممن كان تحت سلطانهِ من المسلمين باعانة
الامام لهم فهل يجب والحالة ما ذكر على احاد ذلك القطر المستنفر اهله ممن
قدر على الزاد والكراع والسلاح ان ينفر للامام ويلبي دعوتهُ سواء كان

ذلك القطر مواليًا لموضع المهجوم او بعيدًا عنهُ وعلى تقدير ان يكون الموضع
الموالي اهله تكاسلوا اوعرض لهم مانع يتعلق الوجوب حينئذٍ بمن يلي من يليهم
وهكذا ام لا يجب واذا قلنا بوجوب ذلك على الافراد والاشخاص بذلك
الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا اعلم منهُ في البلد
بفصل القضاء فهل ذلك مسقط للوجوب عنهُ ام لا جوابكم الشافي "

وما فتئ رحمهُ الله يخلص الخدمة للبيت العثماني عند كل فرصة وبكل
وسيلة حتّى انهُ رأى رأيًا ينتج عنهُ نفع المسلمين وارتقاء شأنهم جميعًا من
جهة توثيق عرى الجامعة الاسلاميَّة وائتلاف ممالك المسلمين وتنظيم احوالها
على ما يضمن قوة المركز وثبات الوجود ومن جهة اعتلاء شأن البيت
العثماني بتشييد امر الخلافة فيهِ على جميع المسلمين وممالكهم وذلك الرأي هو
ان تتحد الممالك المستقلة الاسلاميَّة والولايات العثمانيَّة المستقلة استقلالاً
داخليًا ثم يصير الجميع عصبة واحدة ومملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة
السلطان العثماني ومن ضمن الامور الّتي اوصى بها في روابط هذه الجامعة
ان يجتمع امراء الممالك الاسلاميَّة في بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون
شاهدًا على قوة ارتباطهم وفي ذلك من اعلاء شأن الممالك الاسلاميَّة مالا يخفى
عَلَى كل من امعن النظر في نظام الممالك الالمانيَّة الّتي كانت ضعيفة ضئيلة
بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مرارًا فلما اتحدت
جميع المقاطعات الالمانيَّة على النمط الذي نراهُ الآن بمملكة بروسيا اصبحت
اعظم الممالك شأنًا واشدها قوة وصارت مملكة بروسيا الّتي كانت تحت رحمة
الطامع لضعفها وانفرادها اقوى الممالك باتحادها مع بقيَّة الممالك الالمانيَّة وقد

كتب المرحوم في هذا الباب كلامًا طويلاً مستشهدًا فيهِ بالشواهد الدينيَّة
والتاريخيَّة كقول احد مشايخ اسلام الاستانة الاقدمين عند تحسينهِ هذا
المشروع لمن كان يعارضهُ ان الاليق بمجد السلطان وفخر الدولة ان يكون
السلطان سلطان السلاطين لاسلطان الولاة وربما ادخلناهُ في ضمن ما سننشرهُ
مِن بعض كتاباتهِ الّتي تركها عند الفرصة

وقد خرج الشيخ على تلك الحال يُقلب طرفهُ في البلاد لعلهُ يجد بلدة
اسلاميَّة يشد اليها رحلهُ فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن
على نفسهِ وعرضهِ ولا يكون عرضة لمثل تلك الدسائس الاَّ البلاد المصريَّة
وان كان دمعهُ ليجري اسفًا على تلك البلاد ايضًا الّتي اصابها ما اصاب غيرها
من سيطرة الاجنبي عليها ولكن رب ضار نافع وبعض الشر اهون من بعض
وقد انكر عليهِ المتشدقون عملهُ هذا وقدومهُ عَلى مصر في حالة وجود الانكليز
وتضارب الاحوال فيها غير انهُ كان يجيب على ذلك " بان لا حق لأحد في
الاعتراض عليَّ اذ ان الدولة رضيت لي الاقامة في تونس تحت حماية فرنسا
حسب منطوق الارادة السنيَّة المسطرة اعلاه وتونس انسلخت بالمرة عن
الممالك العثمانيَّة ولا اثر لسلطة الدولة او المسلمين فيها. اما مصر فانهُ مع وجود
الانكليز فيها فانها لم تزل ولاية من ولايات الدولة وسيطرة الحكومة المحليَّة
فيها قائمة وعلى فرض المساواة في المعاملة لا قدَّر الله فلا فرق بين الانكليز
والفرنسيس "

وقد انتقل المرحوم بعائلتهِ الى مصر معرجًا في طريقه على بلاد اليونان
وذلك في المحرم سنة ١٣٠٢ (نوفمبرسنة ١٨٨٤) اي بعد الاحتلال الانكليزي

بسنتين وشهرين ولما استوطن بالقاهرة هنأهُ حضرة المصقع البليغ الشيخ حمزة افندي فتح الله بهذين البيتين البديعين

لئن اشرقت في الشرق مصر ببيرم   واضحت بهِ تلك الكِنانة تونس
فكم شاد مع آبائهِ مِن مكارم   اضاءت بها في الغرب من قبل تونس

وبعد ان استراح اياماً قابل الجناب الخديوي التوفيقي المرحوم فاظهر لهُ مزيد العناية وانزله منزلة الثقة الامين فحكى له سموّهُ جميع ما جرى في الثورة العسكريّة وتفاصيلها وكلما يتعلق بما قاساهُ فيها وختم كلامهُ بقوله "انني ذكرت لكم كل هذا لتتاكدوا من صداقتي لكم" ثم اظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له ومِن ذلك انهُ امر بان تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان في ضيافة مولانا السلطان وفي ٢٥ ربيع الاول من تلك السنة اصدر جريدة الاعلام وهي جريدة علميّة سياسيّة يوميّة غير ان صحة صاحب الترجمة وقلة اختباره بالقطر المصري لم تساعداهُ على توالي اصدارها يوميّة فجعلها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع ثم صارت اسبوعيّة واستمرّت كذلك مدة طويلة بحيث ان اول عدد منها صدر في التاريخ المذكور وآخر عدد وهو ٢٦٩ صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولي صاحبها خطة القضاء في محكمة مصر الابتدائيّة الاهليّة وكان في نيتهِ عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة بهِ ان يشغل نفسهُ بتحريرها وبطبع الكتب المفيدة طلباً لنفع العموم بما اكتسبهُ من الاختبار بالتجول في البلدان وبما يعلمهُ من العلوم الشرعيّة الاسلاميّة وتطبيقها على الاحوال السياسيّة الّتي ينتج عنها تحرير البلاد وانتظام امورها كما كانت تتولع بهِ نفسهُ منذ القديم

حتى قال خيرالدين باشا عن هذه الجريدة انها لا تلبث ان تكون "تيمس العرب" ودفعهُ الى ذلك ايضاً ما كانت عليهِ سجيتهُ من حب الاشتغال بالعلوم وفن التحرير والانشاء وما يتسع هذا الغرض الاَّ في مثل الاشتغال بطبع الكتب وانشاء الصحف ولكن قد خاب جميع امله اذ ان الجريدة لم تطل ايامها حتى رماها بعض الناس بانها تحث على الانتماء للاجنبي وهو امر لم نقله ابداً وغاية ما هنالك انها كانت تحث علَى الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين في البلاد اذ ان معاكستهم وامر البلاد والامة جميعاً في يدهم لا تحمد عقباها كما بينتهُ التجربة بعد والذي ألجأهُ لانتهاج هذا المسلك ما قاساه مِنْ ظلم الاستبداد وما رآه من وجود عوامل محركة في مصر باغراء بعض الاجانب لتوغير صدور الناس على حكامهم اذ ذاك وخشي من دوام الحال على ذلك المنوال ان يأتي بالضرر المادي والمعنوي على الطائفة الاسلاميّة والحاصل ان كثيرًا من الناس لم يقدروا عملهُ حق قدرهِ هذا زيادة عن ان حال الجرائد في الشرق ليس هو على ما يشاهد في البلاد المرتقيّة في التمدن والحضارة بحيث ان الجرائد هنا لا تنجح الاَّ اذا كان لها معضد قويٌ ولم يتعوّد الشرق لغاية الآن ان ينمي شيئاً ما لم تكن يد الحكام فيهِ والشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس واخلاقهم في مصر فلم يجن من جريدتهِ ثمرة تذكر ثم ان الكتب الّتي طبعها تحمل بخسارة مصاريفها ولم يكسب منها شيئاً وزد على ذلك انهُ تربى في ترف وعزة نفس وهمة عالية ومن تكن هذه اخلاقهُ قلما ينجح في عمل تجاري ثم ان الحرّ اضر بصحتهِ وزاد في تقهقرها فزاد في استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام وكسور

في اليوم وهو مقدار كاف لقتل عدة من الانفس الغير المتعودة عليهِ فالتزم بعد سنتين ونصف من الاقامة بمصر ان يسافر الى اوربا وكان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضي الخمسين سنة على توليها الملك فتوجه اولاً الى مدينة فلورنسا من اعمال ايطاليا لملاقاة صديقهِ المرحوم الجنرال حسين باشا التونسي حيث طلبهُ لتسوية شؤونهِ لما اعياهُ المرض فأوقف جملة من املاكهِ على بعض اخصائهِ وخصصها بعدهم لجيوش المسلمين ومن هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها في امر صحتهِ ثم سافر الى لندرة عاصمة الانكليز وهناك قابل جملة من نبلائها وكبار اعيانها كاللورد سالسبوري واللورد نورثبروك وقد تكلم مع من قدَّر الله والاهمال ان يكون بيدهم زمام الاحوال المصرية بما رآهُ نافعاً لبني جلدتهِ وجنسهِ وحامياً لذمارهم ومشيداً في المستقبل لفخارهم وكان اذ ذاك النفور متمكناً بين نائب الانكليز في مصر وبين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم في حيرة من هذا الامر خصوصاً والمرشحون لمنصب الوزارة في مصر قليلون جداً والفكر القائم في اذهان بعضهم حينئذٍ ان رياض باشا مكروهٌ في البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارتهِ الاولى فبذل المرحوم جهدهُ لصرف هذا الفكر وسعى بقدر استطاعتهِ لما فيهِ اعلاء شأن المسلمين وبعد ان حضر الاحتفال رجع الى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد الى مصر بعد ان تغيب عنها نحو الخمسة اشهر معرجاً في طريقهِ على برلين وويانه وفي الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيراً لارجاعهِ الى الاستانة وكاتبهُ بعض اصدقائهِ في ذلك حسب ما صدرت بهِ الاوامر السلطانية فأظهر المرحوم كمال

استعدادهِ للرجوع اليها قائلاً ان بيعة امير المؤمنين لم تزل في عنقي واوقف رجوعهُ على تسوية احوالهِ المالية ثم يقدم الى القسطنطينية ومع ذلك فلم تكن الاعداء تكف عنهُ الاذى في غيابهِ ايضاً حتى انهُ لما طبع صاحب الترجمة احدى رسائلهِ المذكورة آنفاً المختصة بحقوق الاشراف دس ارباب الدسائس لهُ في دار الخلافة ما اوجب المخابرة مع الحكومة المصرية بشأن موضوع تلك الرسالة اذ قيل انهُ تعرض فيها لمسالة الخلافة وهو امر لم يخطر لهُ على بال ومن العبث ان يفتكر فيهِ عاقل وحاشا لمثل الشيخ بيرم وقد وصل لما وصل اليهِ من التعب المادي والمعنوي غيرة منهُ على بني جنسهِ وملتهِ ان يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم وزرع بذور الخلاف بمسألة استقرَّ القرار عليها منذ قرون واجمع المسلمون قاطبة في مشارق الارض ومغاربها عند عربها وتركها وزنجها بالاقرار فيها لبني عثمان منذ عهد السلطان سليم الاول ثم تعقبوهُ ايضاً فيما يكتب في جريدة الاعلام الى ان يسر الله بقدوم الغازي مختار باشا الى مصر وظهر لهُ بالعيان فساد تلك الوشايات

وفي اثناء سفره كاتبهُ العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادي نجا الابياري من كبار علماء الجامع الازهر ومفتي المعية السنية بهذا المكتوب

بسم الله والسلام عليكم ورحمة الله

ورد الكتاب على المحب المغرمِ … فشفاهُ من وجد الغرام المؤلمِ
قد شمت منهُ مذ شممت اريجهُ … بشراً بصحة ذي السيادة بيرمِ
حيًّا فأحيا مهجة كانت بما … قاساهُ تمسي في اشد تألمِ

وابيك ما ذاقت شرابًا سائغًا — من بعد فرقته وراحة نائم
الأَّ بان سرّت سرائرنا بما — ابداهُ من سريان برء محكم
لجناب مولانا الهمام فانهُ — هو بهجة الدنيا ونور العـالم
جمع الاله لهُ الفضائل مثلما — جمع الزهور الروض تحت المِرزم
ما بين اخلاق كازهار الربى — ومحاسن تزهو بكل مخيم
بجمالةٍ وجلالةٍ وفخـامة — وسماحة موروثة عن حاتم
وسيادة وسعادةٍ ابديَّة — وجميل تدبير برأي محكم
فالله يكمل صحة لجنابهِ — ما غردت قمريَّة بترنم

استفتح ألوكتي هذه بلطائف تحيَّات تتنسك بها نسائم الاسحار فتتمسك. واستفتح كمائم رقائق تضرعاتي بقلب سليم الى ربهِ تنسك . مبتهلاً اليهِ تعالى ان ينعم البال ويشرح الصدر بكمال صحة مزاج حضرةٍ نضرة وجه الايام. وغرة طلعة الزمان وقرة اعين الانام . شمامة الدنيا الّتي بها تتأرج . وشمس قلادة العلياء الّتي بها تتبرج . علامة العصر. الذي انست محاسنهُ محاسن ابناء سلافة العصر. فما هو الاَّ روح الارواح . ولوح الفضائل الّتي تتبلج في المساء والصباح . وان شفاء جسمهِ لشفاء لكل عليل . ورواء ظما كل غليل . فمهما صح مزاجهُ الشريف صح مزاج الايام . ومهما لبس حلل العافية فعلى الدنيا السلام. هذا ورجائي ان تنعشوا روحي بتوالي اخبار صحتكم كلما وفد وافد . وتنعموا نفسي بورود اخبار صحتكم كلما ورد لهذا الطرف وارد . ثم سعادة الهمام فكري باشا يتحف حضرتكم بلطائف التحيّات . احسن الله لنا ولهُ ولحضرتكم النهايات

في ١٣ الحجة سنة ١٣٠٤ عبد الهادي نجا الابياري

وعلى ذكر هذا المكتوب والشيء بالشيء يذكر ننشر هنا بعضاً من محررات وردت على صاحب الترجمة عن لسان المغفور لهُ توفيق باشا دلالة على منزلتهِ لديهِ وانموذجاً على معاملته له فمنها تلغراف جاءهُ جوابًا على التهنئة الّتي قدَّمها يوم تذكار الجلوس الخديوي في ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٨

حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمَّد بيرم بمصر

تلغراف حضرتكم الوارد بتهنئة الحضرة الخديويَّة على اليوم السعيد بعرضهِ قد صارت الممنونيَّة لجنابهِ العالي من ذلك ولزم تبليغ الامر للمعلوميَّة

سر تشريفاتي خديوي

برأس التين

ومنها مكتوب ورد لهُ من محمَّد زكي باشا تشريفاتي اول خديوي اذذاك وهو

حضرة والدنا العزيز المحترم دام بالخير والنعم

تشرفنا بورود تذكرة حضرتكم ومتشكرين غاية التشكر وبوقتهِ قدمنا الامانة للاعتاب الكريمة فحصلت الممنونيَّة التامة وامرنا بتبليغ ذلك لسيادتكم افندم

الداعي

في ٦ شعبان سنة ١٣٠٦ محمَّد زكي

ولما كنا بصدد ذكر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مكتوبًا ورد على المرحوم من صديقهِ الحميم . الملاذ العظيم . ذي القلب السليم . الاستاذ الابر مولانا الشيخ محمَّد ظافر دامت بركاتهُ اذ الغاية بيان ما كانت عليهِ صلات صاحب الترجمة بمعاصريهِ ومعارفهِ ومخاطباته مع محبيهِ ونص المكتوب

الحمد لله

الى حضرة الهمام الفاضل . والعمدة الكامل . جامع شتات الفضائل . وناظم فرائد محاسن الشمائل . ومنبع المعارف . ومجمع اللطائف . وقطب فلك السياسة ومركز دائرة ارباب الرئاسة . جناب الاعز الاكرم . مولانا الشيخ سيدي محمَّد بيرم . ادام الله عزهُ واقبالهُ . وانالهُ مناهُ وآمالهُ . آمين

بعد اهداء تحيَّات اطيب نفحا من روض الازهار . وألطف من نسيم الاسحار . فقد وصل كتابكم الكريم . المشتمل على الدر النظيم . الحري بالتبجيل والتعظيم . وقرت بهِ اعيننا سرورًا . وامتلأت بهِ قلوبنا بهجة وحبورًا . وما اعلنتموهُ من الفرح والجذل . بحصول نشاط محبكم من عارض المرض الذي حصل . فهو من علامات تمام الوداد . وخلوص محبتكم الاصيلة وكمال الاعتقاد . ولكم عندنا من ذلك الحظ الاوفر . والقسط الاكبر . وما عطفتم بهِ على ذلك من الذكر الجميل . والثناء والتبجيل . على المحب فهو من انطباع كما لاتكم الظاهرة . التي تجلت في مرآت ذاتي واصبحت في عالم الشهادة لكم ظاهرة . كما هو مصداق قولهِ صلى الله عليهِ وسلم المؤمن مرآة اخيهِ كما يشهد بذلك ذوق كل صديق وموقن وعلى كل فنحن معترفون بالقصور . ونسأل الله سبحانهُ وتعالى التوفيق في جميع الامور . وان يجعلنا ببركة دعاكم مظهرًا للخيرات . وواسطة لتوالي المبرات . وان يجعل العاقبة للمتقين . وينجز وعدهُ بنزول نص النصر على اعلام جيوش المؤمنين . ونخص بالسلام كامل من بحضرتكم وجناب اخينا الشيخ سيدي حمزه مسلم عليكم . وكذا كامل اولادنا مقبلين يديكم . وهذا ما لزم . ودام مجدكم والسلام

خادم الفقرا

١٣ شعبان سنة ١٢٩٤

محمَّد ظافر المدني

وقد تفرغ صاحب الترجمة في الاوقات التي يتركها لهُ المرض لاتمام تأليف ابتدأهُ في استانبول سماهُ " تجريد السنان للرد على الخطيب رونان " وذلك ان العالم الفرنساوي المذكور وهو من مشاهير اهل بلادهِ تعرض في خطابة القاها بباريس تحت عنوان " الاسلام والعلم " الى ذكر الديانة الاسلاميَّة وانها تمنع العلوم من الانتشار بين ابنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع اتى فيهِ على ذكر جميع العلوم والفنون التي استنبطها المسلمون او نقحوها ولهُ رسالة في صورة سؤال حرَّرها في جواز شراء اوراق الديون التي تصدرها الممالك الاسلاميَّة حتَّى تبقى اموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذي لا ينطبق في هذه الحالة عليها وكتب تقريرًا مسهبًا في شأن التعليم بمصر ذهب فيهِ الى لزوم انتشاره باللغة العربيَّة لسهولة تناوله وتعميمهِ بين العموم مستندًا في ذلك على عمل العرب في صدر الاسلام وعلى عمل الاروباويين انفسهم فانهم لا يعلّمون الاَّ بلغاتهم وقد نجحوا اما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الاجنبي لم تنتشر فيها العلوم والفنون مع طول الزمن الذي مضى من حين تأسيس المدارس فيها ولهُ ايضاً عدة كتابات على جملة احاديث نبويَّة شريفة وهي التي كان يحتفل بختمها في تونس على حسب العادة الجارية هناك في المدرسة العنقيَّة التي كان شيخًا عليها وفي سراي المرسى عند جناب الامير الحالي وسننشر جميع هذه الرسائل والمنشآت والقصائد وغيرها من التحارير العلميَّة والسياسيَّة التي كتبها في مجموعة خاصة بحول الله تعالى ولم تتركهُ ايضاً في مصر دسائس بعض الفرنسيس وتهمهم الباطلة فمن ذلك ان جريدة لانترن

(المصباح) الباريسيَّة نشرت خبرًا عن مكاتبها في القاهرة في شهر أُغسطس سنة ١٨٨٩ مفادهُ ان الشيخ بيرم سافر متوجهاً الى الشيخ السنوسي للاتفاق معهُ على اهاجة نار الفتنة في السودان بواسطة المهدي والقصد من ذلك كلهِ معاكسة فرنسا وصادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقة من القاهرة ولكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطئ البحر في جهة رأس البر بدمياط وقد تجول المرحوم في كثير من انحاء القطر المصري وكان يكتب اثناء تجولهِ في ذهبيَّة بقيَّة صفوة الاعتبار فاتم الجزء الرابع واول الخامس ولم يمهلهُ الاجل لاتمامهِ فانهُ كان يقصد التوسع في الكتابة عن بلاد النمسا وسويسره والمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان وهي البلاد التي شاهدها ولكن ما كتبهُ اجمالاً عنها في الجزء الاول يمكن ان يغني القارئ عن التفصيل والاسهاب وكان ينوي كتابة خاتمة صفوة الاعتبار على نمط مقدمتي تاريخ ابن خلدون واقوم المسالك فلم تمكنهُ صحتهُ ولا اجلهُ من اخراجها من حيز الفكر الى قوة العمل ونحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها في هذا الموضوع عسى ان يقيض الله من يمشي على نمطها اذ المقصود هو نفع ملتنا وايقاظنا من غفلتنا وكفى بماجرى للامة في القرنين الماضيين من التقهقر والتلاشي والانحلال واعظًا في ديوان العبر واهم باب المبتدا والخبر لمن يروم الاستفادة بالماضي ليدفع بهِ غائلة المستقبل اما تعليقاتهُ فهي فيما ينبغي لنا اتخاذهُ وتدبير نفوسنا عليهِ وفيهِ فصول الاول في زيادة نشر العلم الثاني في كيفيَّة الحكم وانهُ ينبغي اتخاذ قول واحد من المذهبين (اي في تونس حيث الاحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفي والمالكي) . الثالث في كيفيَّة ادارة

السياسة وما هو عمل الملك وما هو عمل كل وزير وما هو عمل مجلس النواب الذي حقهُ ان يتخذ من الاهالي وان لا تعطى الكلفة دفعة واحدة بل على قدر استطاعة الاهالي وقابليتهم وان ذلك يأتي في المسلمين من الملك وهو المربي لرعيتهِ والسبب في عدم اعطاء الحريَّة التامة في فرنسا كما هو جار في انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الاسلام على خلاف التصرف في داخليتهم لضعفنا وعدم انصافهم فعلينا بالوسائل وحكم تذاكر البنوك شرعاً وليس هو من قبيل السفتجة . وعلاقة الدول والاحكام وفوائد الصحف وفوائد سكك الحديد والبريد والتكلم عليه وعدم تأخير المقصد في الكلام عند الزيارة لاثنين معاً . والنهي عن الغيبة بين الاخوان . اجتهاد اليهود في المال بكل بلاد واغلب الصناعات بأيديهم وعدم تعاطيهم الصنائع المجهدة . الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل . ابلاغ الشريعة الى الكفار واجب ولو بدون حرب . اجتهاد الاجانب في العمل حتى وصَّلوا بين شاطئ اميركا والبحرين الاحمر والابيض وخرق المنسني والخرق تحت المنش . اسباب عدم استواء الدول الاجانب في التظلم ببلاد الاسلام على حسب مقاصدهم وقوتهم فامريكا مثلاً وان كانت رعيتها عند الترك قدر رعيَّة الانكليز فلا تجد منهم تظلماً ولا اقامة حجة مستمرة من سفيرهم . الوجوب على الحكومة والعلماء فيمن يتوجه الى الحج بتعليمهِ ما يجب عليهِ قبل السفر والاَّ فيمنع

وفي ١٢ جمادي الاولى سنة ١٣٠٦ (١٤ يناير سنة ١٨٨٩) عين صاحب الترجمة قاضياً في محكمة مصر الابتدائيَّة الاهليَّة في مدة وزارة رياض باشا الثانية وكان في وزارة نوبار باشا كُلف المرحوم بكتابة ما يراهُ

عن القوانين المعمول بها في المحاكم الاهليَّة من حيث مطابقتها للشريعة الغراء او القوانين الجارية في الدولة العثمانيَّة الشامل لها كتاب المجلة والدستور فرام اولاً التوسع في الموضوع بتقسيم القوانين المصريَّة بابًا بابًا ومقارنتها بالمجلة او الدستور واذا لم يجد نصًّا مطابقًا لها فيهما فيطبقها بقدر الامكان على قول احد المجتهدين بدون تقيد بمذهب مخصوص غير ان عملاً مثل هذا يلزمهُ طول الوقت وكثرة العمال والزمن غير قاض بذلك فالتزم ان يصرف النظر عن هذا العمل وكتب عن القوانين ما نصهُ

" القوانين الاصول الَّتي عليها مدار الحقوق في الحكومة المصريَّة هي القانون المدني وقانون التجارة البري وقانون التجارة البحري وقانون العقوبات وهاتهِ القوانين الاربعة نظر مطابقتها للقوانين العثمانيَّة اوللشريعة المطهرة على التفصيل الآتي

فاما قانون العقوبات وقانون التجارة البريَّة والبحريَّة فجميع ما يوجد من موادها في القوانين العثمانيَّة المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة وهو ايضاً الاكثر من مواد القوانين المصريَّة لكن القليل جدًّا من مواد هاتهِ القوانين لا يوجد اصلاً في مثلها من القوانين العثمانيَّة . واما القانون المدني المصري فهو مخالف للمجلة العثمانيَّة الَّتي هي قائمة مقامهُ مخالفة كثيرة كليَّة غير ان القانون المدني المصري مع ذلك اكثرهُ مطابق للشريعة المطهرة على الاطلاق من غير نظر الى خصوص مذهب معين بل بالنظر الى اقوال الائمة المعمول باقوالهم في الديانة والقليل من هذا القانون المدني مخالف ايضاً لجميع تلك الاقوال غير ان تحويره بما يرجع بهِ الى مطابقة احدها مما يقتضيهِ الحال امر سهل يسير بفطنة حذاق اهل الخبرة والعلم "

وكذلك كلفهُ الباشا المشار اليهِ تقديم تقرير بما يراه لاصلاح حال الاوقاف وقد فعل وكان موجهاً همتهُ في مدة توظفه بالمحاكم للسعي وراء تطبيق قوانينها على الشريعة الغراء ولمقدم ولي عهد الانكليز الى مصر كان صاحب الترجمة من الافراد القليلين الذين اجتمعوا بهِ وفي تلك السنة انهى رياض باشا ترميم منزله بالحلميَّة فهنأهُ المرحوم بهذه الابيات

ان الوزير المصطفى في عصرهِ ... لا زال عونًا للمليك بازرهِ
ابدى من التدبير في الاصلاح ما ... قد حقق المعهود منهُ بقطرهِ
فلقد اتى في قصره ما يبتغي ... حسنًا بهِ ومتانةً مع وفرهِ
والقطر قصر واسع الارجاء قد ... ابدى له انموذجاً من قصرهِ
وكلاهما مستأهل بعيالهِ ... وادارة باصابة من فكرهِ
فكما نشاهد في الصغير اجادة ... فكذا الكبير نراه صار بامرهِ
اذ اتقن التحسين حتى ارَّخوا ... قصر رياض فيهِ جنة مصرهِ

(سنة ١٨٨٩)

وقد عُين عضوًا في اللجنة الَّتي تشكلت للنظر في تعميم المحاكم الاهليَّة بالوجه القبلي وعضد هذا التعميم وكذلك انتُخب عضوًا في لجنة تشكلت في الحكمة بناءً على طلب نظارة الحقانيَّة لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله في القوانين على حسب ما يلائم حالة البلاد وعُين عضوًا في لجنة بنظارة الداخليَّة لمراجعة الاحكام الصادرة من قومسيونات الاشقياء وانبنى على عمل هذه اللجنة الافراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طره وكان امضاؤه عَلَى تقرير هذه اللجنة آخر اعماله

الرسميَّة فتوجه الى مدينة حلوان لتغيير الهواء وهناك اشتدَّ عليهِ المرض وبلغ بهِ الضعف غاية المنتهى وظهر في جهة جنبهِ الايسر خرَّاجان بسبب الحقن بالمرفين اعقبهما بعد فتح الطبيب لهما تكوُّن المادة في الرئة وبعد ان لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة والعشرين يوماً فارق الحياة وذلك في الساعة الخامسة ونصف بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ (١٨ دسمبر سنة ١٨٨٩) وقد خلف ثلاثة بنين رزق بهم من بنت عمه التي تزوَّج بها في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٧ وكان قبل ملازمته للفراش محتفلاً بالمولد النبوي الشريف هناك بمحضر بعض الاصحاب وقد دخل الى الحرم من تلك الحفلة ولم يخرج حيًّا وفي مدة مرضهِ ورد عليهِ مكتوب من صديقهِ رياض باشا ونصهُ

" جناب الاستاذ

من صميم الفؤاد قد تكدرت من خبر ما طرأ على جنابكم من انحراف المزاج الذي لم اعلم بهِ الاَّ من منذ كم يوم وادعو المولى سبحانهُ وتعالى ان يمنَّ عليكم بالشفاء وكمال الصحة والعافية ونراكم معنا عن قريب وعلى اي حال اترجاكم ان لا تؤاخذوني والعذر عند كرام الناس مقبول

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧   محبكم المخلص

❋ رياض ❋

وقد حضر دولة الباشا المشار اليهِ الى حلوان وقصد عيادتهُ وارسل اليهِ نجله وكذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤال عنهُ يوميًّا بواسطة طبيبهِ عيسى باشا حمدي ولما توفى اظهر لابنائهِ جميل التلطف تغمدهُ الله

برحمتهِ وقد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمة صبيحة يوم الجمعة وكانت مودَّتهما صافية خالصة ودفنهُ في التربة المخصوصة التي شيدها بقرب ضريح الامام الشافعي رضي الله عنهُ وقد كُتب على قبرهِ هذه الابيات وهي من انشاء الشاعر البليغ حفني بك ناصف

يا قبر اضنانا البكاءُ وتبسمُ   ادريت ان الفضل فيك مخيمُ
أعلمتَ انك قد حويت محمَّدًا   وتركت اكباد الورى تتضرَّمُ
هذا الذي كانت بدائع فكرهِ   تملي البيان على اليراع فينظمُ
من عترة ثوت العلوم بدارهم   فهم لطلاب الهداية انجمُ
اولاهُ مولاهُ مواهب فضلهِ   والله يعطي من يشاء ويرحمُ
واقام في دار النعيم فأرخوا   في جنة الفردوس أُسكن بيرمُ

سنة ١٣٠٧

وقد رثاهُ جملة من احبابهِ وكتبت الجرائد تنعيهِ ولنقتصر منها على ما قالتهُ " الوقائع المصريَّة " جريدة الحكومة المصريَّة الرسميَّة الصادرة في ٢١ دسمبر سنة ١٨٨٩ نمرة ١٤٥ " انا لله وانا اليهِ راجعون . في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمَّد بيرم احد قضاة المحكمة الابتدائيَّة الاهليَّة بمصر وصاحب جريدة الاعلام العربيَّة وكانت وفاتهُ رحمهُ الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبي الذي مني بهِ من عدة سنين ولم ينجع فيهِ علاج الاطباء

وفي صباح يوم الجمعة الماضي احتفل بنقل جسدهِ من حلوان احتفالاً يليق بمقامهِ وفضلهِ وانتظرهُ على محطة ميدان محمَّد علي العدد العديد من

رجال الحكومة السنيّة واكابرها وفي مقدمتهم صاحب الدولة رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخليَّة والماليَّة وكثير من العلماء وقضاة المحاكم الاهليَّة ومشاهير المحامين وذوي الفضل من الوجوه والاعيان . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ما كان من صاحب الدولة رياض باشا من العناية بأمر المرحوم والاهتمام بشأنهِ والمساعدة في اكرام تشييع جنازتهِ ودفنهِ وتعزية اولادهِ وتشجيعهم على تحمل المصاب الى غير ذلك من الاحتفال والاكرام ولما وصلت الجنازة الى المحطة شيعت في مشهد حافل مشى فيهِ دولة رئيس النظار ومن تقدم ذكرهم ومن حضروا من حلوان بغاية السكون والوقار وكان في مقدمة المشهد الذاكرون ومرتلو البردة وغيرها من الاحزاب والاوراد ثم المشيعون للجنازة فحملة السرير وكلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظيم الشان وقد دفن رحمهُ الله في المدفن الذي بناهُ صاحب الدولة رياض باشا بقرافة الامام الشافعي عليهِ الرضوان وفرّقت الصدقات على الفقراء والمساكين ودعا الناس للمرحوم بالرحمة والغفران

اما الرجل رحمهُ الله فكان عالمًا فاضلاً فقيهًا كاملاً متضلعًا من العلوم الشرعيَّة بأنواعها مطلعًا على احوال الامم ولهُ الباع الطولى في فنون التاريخ القديم والحديث وكان من ذوي الاقلام البليغة فيما يريد كتابتهُ من المواضيع وقد ألف رسائل كثيرة في الاحاديث والاصول والاحكام الشرعيَّة والجغرافيا التاريخيَّة والسياسيَّة وغيرها وكلها تدل على غزارة مادتهِ وسعة تفننهِ في المعارف والعلوم وكان كثير الاستشهاد بأحوال الامم الغابرة والحاضرة في كتاباتهِ واقوالهِ ولهُ قوة حاضرة في اقامة الدليل والبرهان كما يشهد بذلك

المقامات الافتتاحيَّة الَّتي كان ينشرها في جريدة الاعلام رحمهُ الله رحمة واسعة وافرغ على آلهِ وذويهِ جميل الصبر . وعزاهم على مصابهم فيهِ اكمل العزاء واثابهم على الصبر عظيم الاجر آمين "

وهذا ما قالتهُ جريدة الحاضرة الصادرة بتونس في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ عدد ٧٤ " صباح يوم الخميس الفارط نشرت اخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحرير صاحب الصيت الشهير المؤلف الشيخ السيد محمّد بيرم وبما انهُ من مفاخر البلاد التونسيَّة تقوم الحاضرة بواجب رثائهِ وهي ادرى من غيرها بفضائل رجالها فقد ولد هذا العالم في بيت العلم البيرمي سنة ست وخمسين ومائتين والف وتربى في مهاد العلم والتعليم وقرأ على ابن عمهِ الشيخ احمد بيرم وعلى عم جدهِ الشيخ مصطفى بيرم وعلى شيخ الاسلام الشيخ محمّد معاوية وقرأ على الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ الشاذلي بن صالح والشيخ محمّد الشاهد والشيخ علي العفيف وغيرهم من فحول جامع الزيتونة الى ان حصل على رتبة عالية وتقدم لخطتي التدريس وقرأ كتبًا مهمة بجامع الزيتونة وولي مشيخة المدرسة العنقيَّة بعد وفاة عمهِ شيخ الاسلام الرابع وختم بها الاختام المهمة وكان يعيدها كل سنة في بيت الحضرة العليَّة وكان عالمًا فاضلاً عالي الهمة عزيز النفس رفيع الحسب منشئًا فصيح اللسان جميل المحاضرة صاحب اناة ووقار خبيرًا بالسياسات الشرعيَّة والوقتيَّة حسن التدبير واسع الادارة امتنع من قبول الخطط الشرعيَّة عدة مرار متعللاً بضعف بدنهِ وكان عضوًا في عموم الجمعيَّات الَّتي انعقدت لوضع التراتيب العلميَّة والتنظيميَّة اول الوزارة

الخيريَّة وهو الذي قام برئاسة جمعيَّة الاوقاف عند تأسيسها فأسس اصولها بعد ان جمع شملها بما يقتضيهِ العلم والانصاف وولي نظارة المطبعة الرسميَّة واعترتهُ امراض عصبيَّة بمدتهِ سافر بسببها عدة مرار لباريز وايطاليا وحنكتهُ الاسفار بما يزيدهُ في الاعتبار وباشارتهِ كان انشاء المستشفى الصادقي وباشر اقامتهُ على النمط الذي رآهُ بباريز ومن قلمهِ كان انشاء قانونهِ وشكرهُ الامير يوم فتحهِ في الموكب العمومي وولي عضوًا في مجلس الدولة الشوري على عهد وزارة ابن اسمعيل واشتد مرضهُ والحَّ في طلب الاعفاء ولم تسعفهُ الدولة بذلك وخرج لبيت الله الحرام اواخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف ورجع على طريق الشام ولما رأت الدولة انحلال وظائفهِ احالتها لغيرهِ في الثامن والعشرين من محرم سنة ١٢٩٧ وتنقل من الشام الى دار الخلافة العثمانيَّة فنزل بمنزل التعظيم والتكريم وعرضت عليهِ نقابة الاشراف والفتوى بالشام فلم يقبل لضعف بدنهِ ثم انضمَّ اليهِ ابناؤهُ وعائلتهُ واجرت عليهِ الدولة جراية سلطانيَّة وهنالك ألف رحلتهُ صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والامصار واودعها من الاصول السياسيَّة والاصول العلميَّة ما يدل على كمال تضلعهِ وقوة عارضتهِ واقام بالاستانة الى ان شق عليهِ مرضهُ العصبي واشار عليهِ الاطباء بالتنقل الى البلاد الحارة فتنقل بأهلهِ وابنائهِ اول المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة والف وتلقتهُ الديار المصريَّة بالرحب والقبول وانزلهُ الجناب الخديوي منزلة التكريم واجرى عليهِ جراية تليق بأمثالهِ وفتح بها مطبعتهُ الاعلاميَّة وافادت صحيفة " الاعلام " في سائر الجهات العربيَّة الى ان ولي حاكمًا بالمحكمة الاهليَّة وفي اثناء هاتهِ الاسفار كان مجدًا في الاعتناء بكرام

ابنائهِ في المدارس الى ان وصلوا الى قدم الكفاءة للمهمات وترقى اولهم لخطة كاتب بمجلس النظار بالديار المصريَّة نسأل الله ان يجعل منهم خلفًا محمودًا وان يديم عليهِ في نعيم الجنان ظلاً ممدودا "

هذا وقد قيل ان قيمة المرء لا تقوم بمقدار مادحيهِ فقط بل بانضمام المنتقدين عليهِ ايضًا وعلى ذلك نقول انهُ من دون سائر الجرائد العربيَّة والافرنجيَّة قد انفردت احدى جرائد الاستانة العربيَّة بنشر ما يخالف امره عليهِ الصلاة والسلام " اذكروا موتاكم بخير "

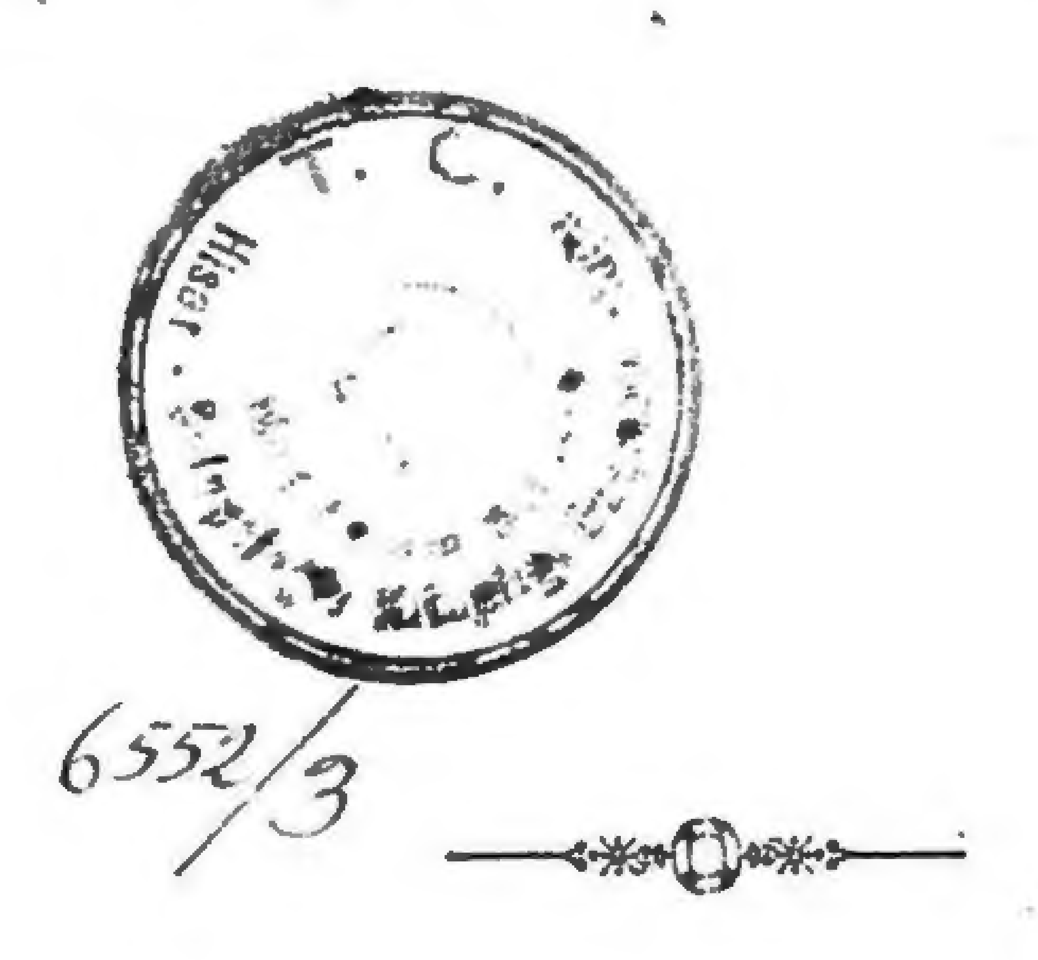
ولم يكن ذلك ليؤثر على حسن صيته وشهرتهِ فقد قيل — كلام العدى ضرب من الهذيان — ومن تأمل في تاريخ حياة المغفور لهُ علم انهُ كلما خفض الاعداء والحساد من شأنهِ ذراعًا ارتفع ميلاً وكلما اشتدت بهِ ملمات الحوادث وكوارث الزمن زاد قدره اعتلاء فقد خرج المرحوم من دياره مغربًا مشردًا فما زالت بهِ همتهُ حتَّى بلغت بهِ الى شرف المقابلة بالحضرة الشاهانيَّة ونوال اقصى الرعاية السلطانيَّة وخسر امواله واملاكه فقام له فضله وعلمه بعدم الحاجة لاحد فعاش ميسورًا ومات ميسورًا واجتهد بعض ذوي التقصير في الحط من سيرتهِ والطعن في شهرتهِ فما زاده ذلك الاَّ اعتلاء في الصيت واحترامًا في النفوس وتوقيرًا في الصدور فقضى حياتهُ حميد السيرة وانتقل الى رحمة ربهِ طاهر السريرة وعلى كل حال فنسأل الله ان يجازي الجميع خيرًا ولا يريهم ضيرًا هذا وقد كتبت ما كتبتهُ والله يعلم اني لم اقصد بهِ فخرًا ولا حبًا في الظهور وانما هي حقائق مثبوتة بمستنداتها القيتها تحت نظر القارئ ليرى في حياة هذا المؤلف وما طرأ عليهِ من

نعيم وبؤس العبرة التي يتوخاها وقياماً بحقوق الابوة والتربية واجابة لما كان كلفني بهِ عند قدومهِ الى مصر ولكوني اعلم الناس بأحوالهِ رحمهُ الله رحمة الابرار

وكلما تذكرت على قبره محاسن افعاله في حياتهِ العموميَّة وجميل اخلاقه وشهامة نفسهِ في حياتهِ الخصوصيَّة اكاد انشد بيت المعرّي مخاطباً لقبر ابيهِ

لأطبقتَ اطباق المحارة فاحتفظ   بلؤلؤة المجد الحقيقة بالحزن

٩ ذي الحجة سنة ١٣١١   محمّد بيرم



كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

وهو رحلة

الشيخ الجليل والعالم المحقق النبيل السيد محمّد بيرم الخامس التونسي

رحمهُ الله وطيب ثراه

الجزء الاول — يشتمل على مقدمة وأقسام وفيها مباحث في احكام السفر شرعاً والاستدلال على قدرة الخالق والقول بتكوير الارض ودورانها والاستدلال على ذلك بأقوال الحكماء والفقهاء والصوفيَّة وغير ذلك من المباحث الشرعيَّة والعلميَّة الطبيعيَّة وذكر ما ورد في السفر من كلام الحكماء والادباء وحكم السفر لغير ارض الاسلام واسباب سفر المؤلف وتقسيم احوال اهل الارض الآن مقسّماً ذكرهم الى ٨٧ فصلاً اي على عدد الحكومات المستقلة مشروحة كل واحدة منها بالشرح الوافي وهو اتم كتاب في الجغرافية العموميَّة للكرة الارضيَّة مطبوع باللغة العربيَّة وفي هذا القسم كثير من الفوائد كدخول الاسلام الى الصين وذكر دولهم فيهِ والمملكة التي أنشأها السلطان سليمان وذكر استيلاء الانكليز على الهند والموكب الذي حصل لتلقيب ملكتهم بسلطانة الهند وسفر ولي عهدهم الى ذلك القطر وما جرى لهُ من الاحتفال وكذلك سفر شاه ايران الى اوربا والاستانة وما لاقاهُ فيها من اكرام السلطان عبد العزيز وتفصيل احوال مملكة مراكش واسباب تقدم اوربا ويلي هذا الكلام على القطر التونسي منشإ المؤلف ثم جدول عمومي عن احوال جميع ممالك الارض وبيان عدد سكانهم وديانتهم وقواتهم الحربيَّة والبحريَّة وايرادهم ومصروفهم وتجارتهم وديونهم وطول السكك الحديديَّة فيها

الجزء الثاني — في بقيَّة الكلام على القطر التونسي بالتفصيل عن ادارتهِ وسياستهِ واحكامهِ واخلاق اهاليهِ وجميع ما يتعلق بذلك من زمن الفتح الاسلامي الى حين دخول فرنسا فيهِ